سلسلة الخلفاء

الأمين والمأمون

محمد الأمين

١٩٣ - ١٩٨هـ

عبد الله المأمون

١٩٨ - ٢١٨هـ



المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

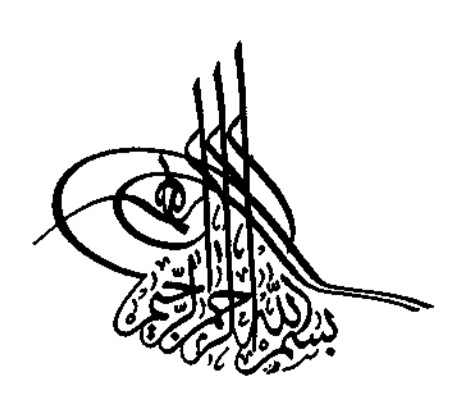
المكتب الإسلامي

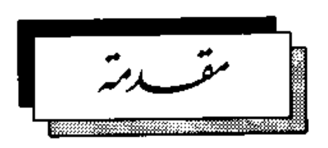
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : (٠٥)٤٥٦٢٨٠

دمشق : ص.ب : ١٢٠٧٩ ـ هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

الأمين والمأمون


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله سيّد المرسلين وخاتمهم وخير الأنبياء وآخرهم وعلى إخوانه وآله وأصحابه *أما بعد* :

فإن المتلوّنين الحاقدين منذ أن دالت دولتهم، وزالت وثنيتهم، وانتهت مكانتهم قد خشي أفرادهم على حياتهم إن بقوا على ما كانوا عليه، وخافوا على مستقبلهم إن بقوا هملاً ولغيرهم تبعاً لذا أظهر بعضهم الإسلام وأبطن خلافه، وأبدى الإيمان وقلبه يمتلئ حقداً ويكاد يتميّز من الغيظ كُرهاً على الذين هزموهم وأخذوا أبناءهم إلى عقيدتهم، وضمّوا بلادهم إلى ديارهم.

غدا المتلوّنون مسلمين في الظاهر وفي الحقيقة عناصر متغلغلةً في المجتمع الإسلامي الذي تريد تهديمه من الداخل، وتقويضه على أهله، ونسفه من جذوره، وأخذ الفكر يعمل والمعاول تفعل، فلم يروا وسيلةً سوى التفرقة، ولم يَقُدْهم هواهم إلا إلى إشعال نار الفتنة بين بطون العشيرة وأبناء الأسرة الواحدة، وهم

بعيدون عن التهمة فما هم إلا أفراد من عامة المجتمع لا يُشار لأحدهم بالبنان ولا يعرف بسلطان وقد زال الماضي وانقضى، ونُسي الغابر ومضى، وغُفل عن القديم واندثر.

مكر المتلوّنون فأظهروا التقوى والورع، وأبدوا المحبة والعاطفة، لذا أمالوا نفوسهم إلى الأفراد الذين يميل إليهم المسلمون عاطفةً، ويتقرّبون إليهم قُربى، ويتحببون إليهم حباً وتديناً لموقعهم من نبيّ هذه الأمة ﷺ، فأخذ بعضهم موقعاً إلى جانب أحدهم، وكانت أكباد الإبل تُقطع لرؤية أحدهم وزيارته والإفادة منه، وطلب الدعاء، وما ذلك كله، إلا في سبيل إبداء الصدق في المحبة المدّعاة والإخلاص في العقيدة المعلنة.

سبق أهل الكتاب الأول المتلوّنين بالفتنة إذ أظهر عبد الله بن سبأ الإسلام، وأخذ يدسّ ويفتري ما يخالف الإسلام ويُغري به الأعراب وحديثي العهد بالإسلام وبعض أصحاب العواطف لميولهم وحبّهم لأفرادٍ، غير أن هذه الفتنة قد قُبرت في المهد لوعي أكثر المسلمين، ولوجود رأسٍ واحدٍ للفتنة وغير موثوقٍ، ولغوغائية أكثر الذين تبعوه.

وإن لم يُشارك المتلوّنون في فتنة عبد الله بن سبأ

لحداثة نشأتهم أولاً ولعدم معرفتهم بالخلفية الأساسية للقائم بها ثانياً، غير أنهم استفادوا منها إذ أخذوا بعض ما دعا له ابن سبأ بغية بثّ شوائب في العقيدة ينشأ عنها اختلاف وتمزّق، كما رأوا ضرورة مشاركة فئةٍ من قادة القبائل وأبناء سادة المهاجرين والأنصار لتكون فتنة عامة نتيجة قوة الطرفين.

زاد عدد المتلوّنين، وكثر أتباعهم، وتنامت قوتهم وبدؤوا بالعمل فأعادوا إلى الأذهان خلافات الجاهلية، وصراعات بطون القبيلة الواحدة، وخاصةً بين بني هاشم، وبني أمية فخذي بطن بني عبد مناف أحد بطون قبيلة قريش، وذلك بعد أن آل أمر الخلافة إلى بني أمية، فتوسعوا في ذكر مثالب بني أمية، وموقف بعض كبارهم من الإسلام في أول عهده، وأغفلوا تاريخ هؤلاء الكبار بعد إسلامهم، وبقي ما دوّنه المتلوّنون هو السائد والمتعارف، وفي الوقت نفسه أهملوا تاريخ بعض كبار بني هاشم ممن لم يسلم كأبي لهب عبد العزّى بن عبد المطلب، فإذا تردّدت مثالب المسؤولين تطاولت الرجال، وامتدّت الألسن، وفقدت الثقة، وظهرت الفوضى، وحدث الوهن، وبدأ الضعف، وهذا هدف الأعداء.

وأعلن المتلوّنون وقوفهم إلى جانب فئةٍ من بني هاشم وهم من أحفاد أبي طالب من نسل عليّ، رضي الله عنه، أولاً، ثم من نسل حفيده علي زين العابدين بن الحسين، رضي الله عنه، لا حبّاً بهم، ولا تمييزاً لهم عن غيرهم من المسلمين، فما هم سوى أفرادٍ من المسلمين الذين يحقدون عليهم أشدّ الحقد لما أصاب دولة فارس على أيديهم وما لحق المجوسية منهم بل ربما كان حقدهم أشدّ على بني هاشم لأنهم رهط نبيّ هذه الأمة التي انتصرت على غيرها وسادت العالم باتباعها تعاليم هذا النبي وسيرها على منهجه. غير أن المتلوّنين قد أظهروا محبتهم التي ادّعوها وادّعوا عطفهم الذي أظهروه كسباً للذين تغلب عليهم العاطفة فيسيرون حسبها دون فكرٍ، وجذباً لعواطف الناس نحوهم، وشدّاً لميل الآخرين إليهم، وأما أحفاد علي زين العابدين فيمكن كسبهم إلى جانبهم من باب عصبية الخؤولة ما دامت أُمّه منهم وإن كان لا بدّ من بذل جهدٍ، ودفع مكرٍ، ورسم نهجٍ، وإعمال فكرٍ، وهذا يُؤمّن ما دامت الرجال تعمل، والسياسة تلعب، والمخططات تُرسم، وجند إبليس يشهدون.

بدأت فتن المتلوّنين فكانوا يُثيرون أحد الطالبيين

بافتراءاتٍ على الأمويين، ويبثّون الشائعات عليهم، ثم يُشجّعون عليهم، ويُبدون التأييد لمن أثاروه، ويدعونه للقيام معه، وجهاد المخالفين فإذا وافقهم، وسار إليهم، ودعا لنفسه، وجاءت الجنود، ضنّ المتلوّنون بأنفسهم، فتخلّوا عن صاحبهم، وأسلموه لعدوه، وتعدّدت هذه الحركات، وكلها على أسلوبٍ واحدٍ، لم تُغيّر وضعاً، ولم توصل أحداً إلى خلافة. وإن خذلان من يدعون له دليل على عدم الصدق للمبدأ وعدم الإيمان بما يدعو، فمن صدق بذل، ومن أخلص ضحّى، أما من خذل وتخلّى كمن أثار وتبرّأ، وضرب وهرب.

ورأى المتلوّنون حركةً منظمةً تدعو للتغيير، وتستعدّ للانقضاض ألا وهي الدعوة العباسية، فتخلّوا عن الطالبيين وابتعدوا عنهم، وكانوا من قبل يدّعون أنهم قد نذروا أنفسهم إليهم، ثم انضمّوا إلى الدعوة العباسية، ونسوا ما كانوا يقولون بالأمس، وهذا دليلٌ آخر على عدم صدقهم.

انخرط المتلوّنون في صفوف الدعوة العباسية وأبدوا النشاط الذي كانوا يُبدونه للطالبيين، وأظهروا الصدق الذي كانوا يُظهرونه، وأعلنوا الولاء الذي كانوا يُعلنونه، وادّعوا الإخلاص الذي كانوا يدّعونه، وليس

بالحقيقة أي شيءٍ من هذا كله بل همّهم إثارة الفتنة والإيقاع بين المسلمين كي تضعف قوتهم وتذهب ريحهم، لا يحبّ المتلوّنون أي فئةٍ من المسلمين، ولا فرق عندهم بين طالبيين أو عباسيين أو أمويين فالجميع مسلمون، وكلهم أعداء وإنما يُبدون الوقوف بجانب فريقٍ ويظهرون تأييده ومحبته ضدّ فريقٍ لإثارة الفتنة والإيقاع بين الطرفين.

ونجحت الدعوة العباسية وتسلّم بنو العباس الخلافة، وكان دعاتهم وبينهم المتلوّنون في طليعة رجال الدولة، وفكّروا في إمكانية توجيه السلطة فلم يستطيعوا، فعملوا على استلام مراكز قياديةٍ فظهرت رغبات بعضهم، فأُبعدوا بل وقضي على بعضهم، ومنهم رأسهم أبو مسلم الخراساني، وقاموا ببعض ردود الفعل دون جدوى، وقد بدت فيها حقيقتهم، وعُرف من خلالها واقعهم، إذ كان فيها خروج على الإسلام وإظهار للكفر، وَوَضُح هذا في خروج سنباذ، والراوندية و....

عمل المتلوّنون على إيقاع الفتنة بين أفراد الأسرة العباسية، وحدثت بعض الوقائع، ووقعت بعض الأحداث غير أنها بقيت جانبيةً فلم تدخل الأعماق، ولم تتعمّق الجراح وعُدّت هامشيةً، فاستمرت الدولة

قويةً فكانت تستطيع ضرب أيّة حركةٍ، وتتجاوز العقبات، وتتخطّى الصعاب والحواجز التي توضع في الطريق من أجل إعاقة المسير وعرقلة الحركة.

رأى المتلوّنون أنه لا بدّ من بعض التضحيات لتحقيق شيءٍ من المخططات وللاقتراب من الهدف، فإذا ما اقتربوا أسرع إليهم أصحاب الغايات يبتغون غُنماً، وهرول نحوهم أهل الأهواء يرغبون نيلاً، وسعى إليهم المنتفعون يرجون كسباً، واتجه نحوهم رجال المصالح يأملون نفعاً، فيزدادون قوةً وتُشرق لهم الدنيا فيُقبلون عليها من كل جهةٍ يضمّونها وتحضنهم بين ذراعيها فيقطفون ما شاءوا، ويرتعون فيها كما يحبّون.

خطّط المتلوّنون على أن يعملوا على تجزئة الأسرة إلى فريقين، وأن تنضم فئة منهم إلى هذا الفريق وفئة إلى ذاك، وكل فئةٍ تُحرّض فريقها وتدعمه، وتُشجّعه وتُؤيّده، وتحثّه وتدفعه، وتفتري على خصمه لتثيره عليه، ويتوقّع المتلوّنون ألا يكون بعد ذلك إلا الصراع الشديد والقتال العنيف، ووقعت بعض الخلافات في الأسرة غير أنه قُضي عليها دون أن يكون انقسام ومن غير أن يحدث اشتباك.

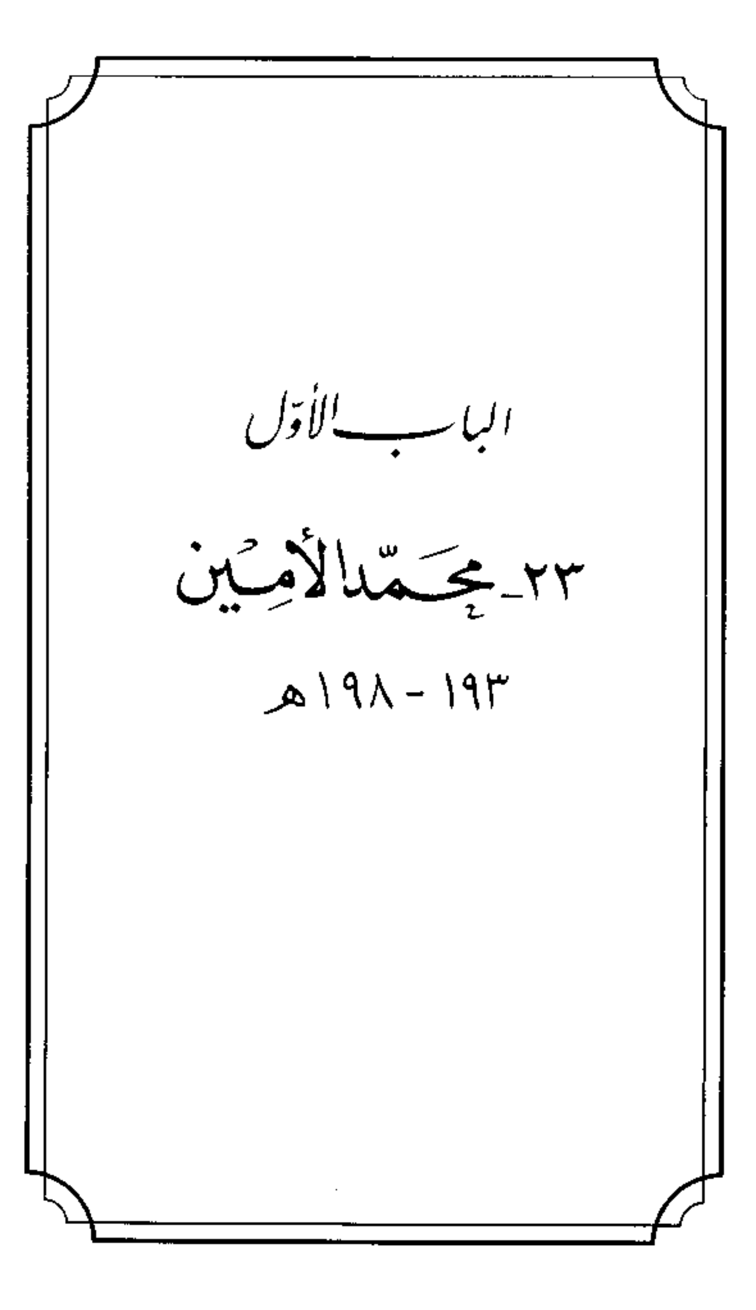
وجاء عهد الأمين وتعصّب المتلوّنون لولي العهد

المأمون لأن أمّه منهم، وانحاز فريق منهم إلى جانب الأمين وأخذ التحريض دوره مدة سنتين، فنظمت قصائد تهيج كل جانبٍ على خصمه، وتمدح فريقها وتذمّ الطرف الآخر، ورُويت أخبار وقصص اجتماعية وإن كانت غايتها محددةً إلا أنها تُسيء إلى المسلمين بل إلى الإسلام، وخاصةً أنها مدوّنة وتداولتها الكتب.

وتغلّب جانب المأمون وعاد مسير الدولة ورجعت لها قوتها فصعب ذلك على المتلونين فأغواهم شيطانهم، ودلّهم على دسّ الشوائب الفكرية وإدخالها في العقيدة فكانت مشكلة خلق القرآن، وزالت بعد مدةٍ ورجع المتلوّنون إلى الطالبيين يُثيرون الفتن، ويوقعون الخلاف حتى ضعفت الدولة أكثر...

فنرجو أن يُوفّقنا الله في إعطاء صورةٍ صادقةٍ عن واقع تاريخ الأمين والمأمون وأن يُجنّبنا الزلل، وأن يجعل أعمالنا كلها خالصةً له، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





الباب الأول

٢٣ـ محمّد الأمين

١٩٣ - ١٩٨هـ



الفصل الأول

الأمين قبل الخلافة

ولد محمد الأمين بن هارون الرشيد ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلةً خلت من شهر شوال سنة ١٧٠هـ، فهو الولد الثاني للرشيد، إذ ولد الابن الأول وهو المأمون ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول من السنة نفسها وهي ١٧٠هـ، أي يوم ولي الخلافة أبوه الرشيد، وتوفي عمّه موسى الهادي، فالأمين أصغر من أخيه المأمون بسبعة شهورٍ سوى يومين اثنين.

لما ولي الرشيد الخلافة في منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠هـ ولد ابنه المأمون، وهو الولد الأكبر له، ولذا فإن جماعةً من بني العباس قد مدّوا أعناقهم للخلافة، وطمعوا بها، وبعد سبعة شهورٍ ولد الابن الثاني وهو محمد الأمين، وعلى هذا فأبناؤه فتية صغار غير مُؤهّلين لولاية العهد فماذا يفعل؟ يريد أبناءه للخلافة غير أنهم صغار، وغيرهم يطمع بها، ويطمح إليها لسنّه ومكانته فما العمل؟

رغب الرشيد في أخذ البيعة من بعده لابنه الكبير المأمون بصفته الأكبر كما تبدو عليه بعض الصفات التي تُظهر أنه أكثر اتزاناً كما أنه أكثر وعياً وإدراكاً رغم صغر سنّه، وهذا ما عزم عليه ولكنه خضع لضغوطٍ جعلته يُغيّر ما عزم عليه، لقد خضع من جهة لضغط زوجه وابنة عمه زبيدة ذات التأثير الواضح عليه لما لها من فكرٍ ثاقبٍ، وعقلٍ نيّرٍ، ورأي راجحٍ، كما أنها ذات دينٍ، وتحبّ الخير وتسعى له، وتنهض بمشروعاتٍ فيه، إضافةً إلى أنها ابنة عمّه وذات ميزاتٍ تجعل على قلبه أثراً، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فقد نشط إخوتها للتدخّل في هذا الجانب وخاصةً عيسى بن جعفر بن المنصور[1]، فلربما فكروا بالإفادة من ابن أختهم فيما لو توسّد منصب الخلافة. ويجب ألا ننسى أن أبناء الحرائر لهم ميّزات في المجتمع ومكانة أكثر من أبناء أمهات

---

(١) عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي: قائد، من أمراء بني العباس، وهو ابن عمّ هارون الرشيد، وأخو زبيدة زوجة هارون الرشيد، بعثه الرشيد عاملاً على عُمان في ستة آلاف مقاتلٍ، فلم يكد يستقرّ فيها حتى سيَّر إليه إمام الأزد «الوارث الخروصي» جيشاً قاتله، فانهزم عيسى، وأسر، وسُجن في «صحار»، ثم تسوَّر بعضهم عليه السجن فقتلوه فيه سنة ١٨٥هـ.

الأولاد، فزبيدة أم محمد الأمين حرّة كريمة من أرومة بني العباس الأصلية على حين أن أم عبد الله المأمون أم ولدٍ من أصلٍ فارسي، ولا شكّ فإن بني العباس قد مالوا لمحمد الأمين وكذا المجتمع العربي إذ لاحظ أبناؤه آثار بعض المخططات الغريبة ضدّ الإسلام يتحرّك خلفها المتلوّنون الذين يعودون إلى أصولٍ من الموالي، وممن قضى الإسلام على سلطانهم القديم، وأزال ممالكهم القديمة، وأزاح دولهم عن الساحة، وأنهى عقائدهم، ولهذا أثره الخطير فيجب الانتباه إليه والحذر منه.

عزم الرشيد على البيعة لولده محمد الأمين وخاصةً بعد أن رأى والي خراسان الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي[1] يعمل على البيعة لمحمد الأمين تحت

(١) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي: ولد سنة ١٤٦هـ، وهو أكبر من الرشيد بسبعة أيام، أمه زينب بنت منير، أرضعت الرشيد معه، فهو أخوه في الرضاع، وعندما شبّا، وتسلّم الرشيد الخلافة، استوزره مدةً قصيرةً، ثم ولّاه خراسان، فحسنت سيرته، وكان من أجود الناس، وأقام حتى فتك الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧هـ، وكان الفضل عنده ببغداد، فقبض عليه وعلى أبيه يحيى، وأخذهما معه إلى الرقة فسجنهما، وأجرى عليهما الرزق، واستصفى أموالهما وأموال البرامكة كافةً، وتوفي الفضل في سجنه بالرقة سنة ١٩٣هـ، وكان من خيار الناس.

تأثير عيسى بن جعفر، إذ وزّع الفضل الأموال في خراسان، وأعطى الجند الأُعطيات المتتابعة، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد، فبايع الناس، وسمّاه الأمين.

وأظنّ أن الفضل بن يحيى قد قام بهذا العمل بعد أن رأى رغبةً عند الرشيد في ذلك، وهو يريد أن يظهر عدم ميله للمأمون بصفة أن أمه فارسية، كما توقّع أن الأمر صائر لمحمد الأمين فلا بدّ من أخذ رؤوس الخيوط كافةً لترسيخ الأقدام، وتثبيت المكانة، وإبعاد الشبهة إذ كانت له المكانة المرموقة عند الرشيد، وكذا كان لأبيه يحيى[1] ولأخيه جعفر[2].

---

(١) يحيى بن خالد بن برمك: أبو الفضل، ولد سنة ١٢٦هـ، وكان الجواد المقرّب من بني العباس، وكان الرشيد يناديه «يا أبتي»، وضمّه الخليفة محمد المهديّ إلى ابنه هارون الرشيد ليُربّيه، ويُثقّفه، ويُعلّمه الأمور، ثم أمره المهديّ سنة ١٦٣هـ أن يُلازم الرشيد وأن يكون كاتباً له، وأكرمه بمائة ألف درهم، وقال له: هي معونة لك للسفر مع هارون. ولما بويع الرشيد بالخلافة قلّد يحيى الوزارة فكان يتصرّف بأمور الدولة كالخليفة نفسه. كان سيد بني برمك، مات في سجن الرقة سنة ١٩٠هـ.

(٢) جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك: ولد سنة ١٥٠هـ، وأمه فاطمة بنت محمد بن الحسن بن الحسن بن قحطبة بن شبيب، وقد رضع الرشيد منها كما رضع من أم الفضل، والفضل أكبر من جعفر بسنتين ونصف، وكان ذا مكانةٍ عاليةٍ عند الرشيد، =

فلما تناهى الخبر إلى الرشيد بذلك وبيعة أهل المشرق لابنه محمد، بايع هو له، وكتب إلى الآفاق فبويع له في الأمصار جميعها وذلك سنة ١٧٥هـ، ولم يكن عمره ليزيد على خمس سنوات، وأنكرت جماعة من بني العباس هذه البيعة لصغر سنّ محمد الأمين.

وحجّ الرشيد سنة ١٨١هـ، وبعد أن أقام للناس الحج انصرف من مكة، وسار إلى الرقة، وفي الرقة بويع لابنه عبد الله المأمون بعد ابنه محمد الأمين، وأخذ البيعة على الجند بالرقة، ثم وجّهه إلى بغداد ومعه من أهل بيته جعفر بن أبي جعفر المنصور، وعبد الله بن صالح[1]، ومن القادة علي بن

= ويدخل عليه من غير إذن، وقد تسلّم الوزارة بعد أخيه الفضل، كما ولي أمر المغرب كله، ويناديه الرشيد «أخي» فلما نقم الرشيد على البرامكة قتله في مقدمتهم سنة ١٨٧هـ.

(١) عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس: أمير من بني العباس. ولّاه موسى الهادي إمرة الموصل سنة ١٦٩هـ، وعزله الرشيد سنة ١٧١هـ، ثم ولّاه المدينة، والصوائف، وولّاه مصر مدةً قصيرةً، فلم يذهب إليها، وولّاه دمشق فأقام فيها أقلّ من سنةٍ. وبلغه أنه يطلب الخلافة، فحبسه ببغداد سنة ١٨٧هـ، ولما مات الرشيد أطلقه الأمين وولّاه الشام والجزيرة سنة ١٩٣هـ، فأقام بالرقة إلى أن توفي سنة ١٩٦هـ. كان من أفصح الناس وأخطبهم. له هيبة بالنفوس ومكانة بين الناس.

عيسى[1]، فبويع له في بغداد حين قدمها، وولّاه أبوه خراسان وما يتصل بها إلى همذان، وسمّاه المأمون.

ثم بايع الرشيد لابنه القاسم[2]، وسمّاه «المؤتمن» وذلك بعد طلب عبد الملك بن صالح الذي كان يعيش

---

(١) علي بن عيسى بن ماهان: من كبار القادة في عصر الرشيد والأمين، وهو الذي حرّض الأمين على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، وسيّره الأمين لقتال المأمون بجيشٍ كبيرٍ، وولّاه إمارة الجبل وهمدان، وأصبهان، وقُم، وتلك البلاد فخرج من بغداد في أربعين ألف فارسٍ فتلقّاه طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون في الري سنة ١٩٥هـ، فقُتل ابن ماهان، وهُزم أصحابه.

(٢) القاسم بن هارون الرشيد: أمه أم ولد تُدعى «قصِف». ولد سنة ١٧٣هـ فهو أصغر من أخويه المأمون والأمين بثلاث سنواتٍ. ولّاه أبوه الجزيرة والثغور والعواصم، فكان المأمون ينظر بأمر هذه الأمصار باسم المؤتمن، إلى أن شبّ، وأغزاه الرشيد أرض الروم سنة ١٨٧هـ، واستخلفه على الرقة سنة ١٩٢هـ، يريد تدريبه على الحكم، ولما مات الرشيد، وتولّى الخلافة الأمين عزل المؤتمن عن الجزيرة، وأقرّه على قنسرين والعواصم وذلك سنة ١٩٣هـ. ولما اشتدّت الفتنة بين الأمين والمأمون سار المؤتمن إلى المأمون بخراسان فوجّهه إلى جرجان سنة ١٩٧هـ، فأقام فيها، وأعلن المأمون خلعه من ولاية العهد سنة ١٩٨هـ بعد قتل الأمين، وترك الدعاء له على المنابر، وتوفي ببغداد سنة ٢٠٨هـ في حياة المأمون، فلم يلِ الخلافة.

القاسم عنده، وولّى الرشيد ابنه القاسم الجزيرة الفراتية والثغور والعواصم.

وهكذا قسّم الرشيد ديار الخلافة بين أولاده الثلاثة: فولّى محمد الأمين العراق والشام إلى المغرب، وولّى عبد الله المأمون من حدّ همذان إلى مشرق ديار الإسلام، وولّى القاسم المؤتمن الجزيرة الفراتية والثغور، والعواصم.

قام الرشيد بهذا التقسيم ظنّاً منه أنه قد أحكم المُلك، وعدل بين أبنائه أولياء عهده من بعده، ولكن يبدو أنه قد أوقع بينهم التنافس فأمهاتهم مختلفة هذا من ناحيةٍ، ومن ناحية أخرى فقد أعطى المأمون مشرق ديار الإسلام حيث أوكار المتلوّنين ومقرّ الحاقدين فأظهروا التفاهم حول المأمون، وأبدوا محبتهم وتأييدهم المطلق له بل أعلنوا تعصّبهم له إذ أن أمه ترجع بأصولها لهم فما هناك إلا تحريك العصبية الجاهلية وإظهار المحبة وإبداء الدعم وإعلان الصدق ساعة المحنة، فركن إليهم واعتدّ بعدها بساعده. وفي الوقت نفسه فإن في الطرف الغربي أناس يعيشون بين أهله وهم يعودون أرومةً إلى الطرف الشرقي، وهم يثيرون محمد الأمين على أخيه المأمون، ويريدون أن تقع الجفوة ويحدث الخلاف، ويجري

الصدام، وينتهي الأمر إلى الانقسام وعندها يُحدّدون موقفهم؛ إما الخذلان وتسليم صاحبهم وإما قلب ظهر المجنّ والانضمام إلى الجانب الآخر إن وجدوا قوةً مع من يُحرّضونه ويُشجّعونه، وذلك لأن أهل الطرف الغربي ليس عندهم أحقاد على أولئك ولا يرسمون مخططاتٍ للتهديم ولا يتظاهرون بأمرٍ ويُبطنون خلافه.

أخذت العقول تُخطّط والأيدي تلعب، وجرت أمور عفوية فُسِّرت تفسيرات حسب المصالح فشُحنت بها نفوس، واستغلّها المتلوّنون.

حجّ الرشيد سنة ١٨٦هـ فكتب في داخل الكعبة العهود لوليي عهده الأمين والمأمون وكتب المواثيق وأشهد الشهود، كما أخذ الشروط على ولديه كل تجاه الآخر، كتب ذلك يوم السبت لسبع ليالٍ بقين من المحرم سنة ١٨٧هـ.

أمر الرشيد لعبد الله المأمون بمائة ألف دينارٍ، وحُملت له من بغداد إلى الرقة.

سار الرشيد سنة ١٨٩هـ إلى (قرماسين[١])، وأشخص إليها عدة رجالٍ من القضاة وغيرهم،

---

(١) قرماسين: موضع على طريق مكة قرب العُذيب.

وأشهدهم أن جميع ماله في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكُراع وما سواه أجمع لعبد الله المأمون، وأنه ليس له فيه قليل ولا كثير بوجهٍ ولا بسببٍ، وجدّد البيعة له على من كان معه، ووجّه هرثمة بن أعين[1] صاحب حرسه إلى بغداد، فأعاد أخذ البيعة على محمد بن هارون أمير المؤمنين وعلى من

---

(١) هرثمة بن أعين: أمير من القادة الشجعان، له عناية بالعمران، بنى في أرمينية، وفي إفريقية وفي غيرهما، ولّاه الرشيد مصر سنة ١٧٨هـ، ثم وجّهه إلى إفريقية لإخضاع عُصاتها فدخل القيروان سنة ١٧٩هـ، ولقي من أهلها ما يحبّ فأحسن معاملتهم، وتقدّم في جيشٍ كثيفٍ إلى تيهارت، فقاتله ابن الجارود، وظفر هرثمة، وأطاعته قبائل البربر فعاد إلى القيروان، وبنى فيها القصر المعروف بـ«المنستير» على يد زكريا بن قادم، وبنى سور طرابلس الغرب، واستمرّ والياً على إفريقية سنتين ونصف السنة، وطلب من الرشيد أن يعفيه، فنقله سنة ١٨١هـ، وعقد له على خراسان، فأقام فيها، وولّاه غزو الصائفة سنة ١٩١هـ، ثم ولّاه ما كان لعيسى بن علي بن ماهان فانتقل إلى مرو سنة ١٩٢هـ. ولما بدأت الفتنة بين الأمين وأخيه المأمون انحاز إلى المأمون، فقاد جيوشه، وأخلص له الخدمة حتى سكنت الفتنة بمقتل الأمين، وانتظمت الدولة للمأمون، فنقم عليه أمراً، قيل: اتهمه بممالأة إبراهيم بن المهدي. وقيل: بالتراخي في قتال الطالبيين وأبي السرايا، فدعاه إليه وشتمه وضربه وحبسه، وكان الفضل بن سهل وزير المأمون يكره هرثمة، فدسّ إليه من قتله سراً في سجن مرو سنة ٢٠٠هـ.

كان بحضرته لعبد الله والقاسم على النسخة التي كان أخذها عليه الرشيد بمكة. وجعل أمر القاسم في خلعه وإقراره إلى عبد الله إذا أفضت إليه الخلافة.

وفاة هارون الرشيد:

كان هارون الرشيد بالرقة، وتوجّه إلى خراسان لقتال رافع بن الليث[1]، فسار من الرقة، وقد استخلف عليها ابنه القاسم المؤتمن، وضمّ إليه خازم بن خزيمة، فوصل الرشيد إلى بغداد يوم الجمعة لخمس ليالٍ بقين من شهر ربيع الثاني من سنة ١٩٢ هـ، وخرج من بغداد لخمسٍ خلون من شهر شعبان من بعد صلاة العصر من السنة نفسها، واستخلف على بغداد ابنه محمد الأمين.

وسأل المأمون أباه الرشيد أن يخرج معه خوفاً من

---

(١) رافع بن الليث بن نصر بن سيّار: ثائر من بيت إمارةٍ ورئاسةٍ، كان مُقيماً في بلاد ما وراء النهر في مدينة سمرقند، وناب فيها أيام الرشيد، وعُزل وسُجن بسبب امرأةٍ، وهرب من الحبس، فقتل العامل على سمرقند، واستولى عليها سنة ١٩٠هـ، وخلع طاعة الرشيد، ودعا إلى نفسه، وسار إلى نائب خراسان علي بن عيسى بن ماهان فظفر رافع، وتوجّه إليه الرشيد سنة ١٩٢هـ، واستمرّ الأمر إلى ما بعد الرشيد، وسارت إليه الجيوش، وحوصر في سمرقند، ودُخلت عليه، وقُتل سنة ١٩٥هـ.

غدر أخيه الأمين فأبى عليه. وهذا يدل على أن نفوس الأخوين كانت مشحونةً بعضها على بعضٍ، وعندما أبى الرشيد على المأمون السير معه، قال المأمون له: يا أبت أنت عليل، وإنما أردت أن أخدمك، ولست أُكلّفك شيئاً فأذِنَ له، وسار معه.

وصل موكب الرشيد إلى جرجان في شهر صفر من سنة ثلاثٍ وتسعين ومائة، وانتهت إليه خزائن علي بن عيسى بن ماهان تُحمل على ألفٍ وخمسمائة بعيرٍ، ثم تحوّل إلى طوس وهو عليل.

انتصر هرثمة بن أعين على رافع بن الليث وأسر أخاه بشير بن الليث وأرسله إلى الرشيد وهو بطوس فقتله. واتهم الرشيد هرثمة بن أعين لذا فقد وجه ابنه المأمون إلى مرو، وذلك قبل وفاته بثلاثٍ وعشرين ليلةً، وبعث معه عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وأسد بن يزيد بن مزيد الشيباني، والعباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، والسنديّ بن الحرشيّ، ونعيم بن حازم، وعلى كتابته ووزارته أيوب بن أبي سمير.

وتوفي الرشيد في منتصف ليلة السبت لثلاثٍ خلون من جمادى الآخرة من سنة ١٩٣هـ، وصلى عليه بطوس ابنه صالح، وحضر وفاته الفضل بن الربيع، وإسماعيل بن صبيح، ومن خدمه مسرور، وحسين، وراشد.

الفصل الثاني

خلافة محمد الأمين

توفي الخليفة هارون الرشيد في مدينة طوس، وكان يومذاك ابنه محمد الأمين ببغداد، وابنه عبد الله المأمون في مرو، وابنه صالح معه، فأرسل صالح إلى بغداد رجاء الخادم فوصل يوم الأربعاء لأربع عشر ليلةً خلت من جمادى الآخرة، فأظهره يوم الجمعة بعد ستره بقية يومه وليلته. وخاض الناس في أمره.

ولما قدم كتاب صالح على محمد الأمين مع رجاء الخادم بوفاة الرشيد، ومع رجاء الخاتم والقضيب والبردة ـ وكان نازلاً في قصره بالخُلد ـ تحوّل إلى قصر أبي جعفر ـ وهو قصر الذهب ـ على شطّ دجلة، فصلّى بالناس، ثم صعد المنبر فخطبهم وعزّاهم بالرشيد، وبسط آمال الناس ووعدهم الخير فبايعه الخواص من قومه ووجوه بني هاشم والأمراء، وأمر بصرف أُعطيات الجند عن سنتين، ثم نزل وأمر ابن عمّ أبيه سليمان بن

جعفر أن يأخذ له البيعة من بقية الناس، فلما انتظم أمر الأمين واستقامت حاله حسده أخوه المأمون، وأخذت علائم الخلاف تظهر بينهما.

الخلاف بين الأمين والمأمون:

كان الرشيد حين شخص إلى خراسان قد جدّد البيعة للمأمون ووهب له جميع ما يملك في عسكره من أموالٍ وخزائن وسلاحٍ وكُراعٍ، وأشهد على ذلك من معه من القادة وسائر الناس، وهذا ما أثار شيئاً في نفس الأمين عندما بلغه خبر ذلك.

وعندما وصل إلى الأمين خبر اشتداد علّة أبيه الرشيد بعث من عنده بكر بن المعتمر إلى طوس حيث يقيم الرشيد، ومع بكر كتب سِرّية ليوصلها إلى الأمراء إن مات الرشيد. فلما توفّي الرشيد نفذت الكتب إلى الأمراء وإلى صالح بن الرشيد، وفيها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة. فأخذ صالح البيعة من الناس إلى الأمين، وارتحل الفضل بن الربيع بالجيش إلى بغداد، وقد بقي في النفوس حرج من البيعة التي أُخذت للمأمون، وكتب إليهم المأمون يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه، فوقعت الوحشة بين الأخوين، ولكن تحوّل

الجيش عامةً إلى الأمين، فعند ذلك كتب المأمون إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة، وبعث إليه من هدايا خراسان وتُحفها، من الدواب والمسك وغير ذلك، وهو نائبه عليها.

وفي شهر شعبان سنة ١٩٣هـ قدمت زبيدة أم الأمين من الرقة بالخزائن، وما كان عندها من التحف والقماش من الرشيد، فتلقّاها ولدها الأمين إلى الأنبار ومعه وجوه الناس، وأقرّ الأمين أخاه المأمون على ما تحت يده من بلاد خراسان والريّ وغير ذلك، وأقرّ أخاه القاسم المؤتمن على الجزيرة والثغور، كما أقرّ عمال أبيه على البلاد إلا القليل منهم.

أما أهم الكتب التي أرسلها محمد الأمين إلى الأمراء مع بكر بن المعتمر فهي.

١ ـ كتاب محمد الأمين إلى أخيه عبد الله المأمون. وهو:

إذا ورد عليك كتاب أخيك ـ أعاذه الله من فقدك ـ عند حلول ما لا مردّ له ولا مدفع مما قد أخلف، وتناسخ في الأمم الخالية والقرون الماضية فعزّ نفسك بما عزّاك الله به، واعلم أن الله جل ثناؤه قد اختار

لأمير المؤمنين أفضل الدارين، وأجزل الحظّين فقبضه الله طاهراً زاكياً، قد شكر سعيه، وغفر ذنبه ـ إن شاء الله ـ فقم في أمرك قيام ذي الحزم والعزم، والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين، وإياك أن يغلب عليك الجزع، فإنه يحبط الأجر، ويُعقِب الوِزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيّاً وميتاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وخذ البيعة عمن قبلك من قوادك وجندك وخاصّتك وعامّتك لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم بن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين من نسخها له وإثباتها، فإنك مقلّد من ذاك ما قلّدك الله وخليفته. وأعلم مَن قِبلك رأيي في صلاحهم وسدّ خَلّتهم والتوسعة عليهم، فمن أنكرته عند بيعته أو اتهمته على طاعته، فابعث إليّ برأسه مع خبره، وإيّاك وإقالته، فإن النار أولى به، واكتب إلى عمال ثغورك وأمراء أجنادك بما طرقك من المصيبة بأمير المؤمنين، وأعلمهم أن الله لم يرض الدنيا ثواباً حتى قبضه إلى روحه وراحته وجنّته، مغبوطاً محموداً قائداً لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله. ومرهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم وخواصهم وعوامّهم على مثل ما أمرتك به من أخذها على من قِبلك، وأوعز إليهم في ضبط ثغورهم والقوة على عدوهم، وأعلمهم أني متفقّد

حالاتهم ولامّ شعثهم وموسّع عليهم، ولا تني في تقوية أجنادي وأنصاري، ولتكن كتبك إليهم كتباً عامةً، لتُقرأ عليهم، فإن في ذلك ما يسكنهم ويبسط أملهم، واعمل بما تأمر به لمن حضرك، أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتشاهد، فإن أخاك يعرف حسن اختيارك، وصحة رأيك، وبُعد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يشدّ بك عضده، ويجمع بك أمره، إنه لطيف لما يشاء.

وكتب بكر بن المعتمر بين يدي وإملائي في شوال سنة ثنتين وتسعين ومائة.

٢" ـ كتاب محمد الأمين إلى أخيه صالح:

بسم الله الرحمٰن الرحيم. إذا ورد عليك كتابي هذا عند وقوع ما قد سبق في علم الله ونفذ من قضائه في خلفائه وأوليائه وجرت سنته في الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين، فقل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾[1]، فاحمدوا الله على ما صار إليه أمير المؤمنين من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائه، صلوات الله عليهم، وإنا إليه راجعون. وإياه نسأل أن يحسن

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

الخلافة على أمة نبيه محمد ﷺ، وقد كان لهم عصمةً وكهفاً،وبهم رؤوفاً رحيماً، فشمّر في أمرك، وإياك أن تلقي بيديك، فإن أخاك قد اختارك لما استنهضك له، وهو متفقّد مواقع فقدانك، فحقّق ظنّك ونسأل الله التوفيق، وخذ البيعة على مَن قِبلك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومواليه وخاصّته وعامّته لمحمد أمير المؤمنين، ثم لعبد الله بن أمير المؤمنين، ثم للقاسم بن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها أمير المؤمنين رحمة الله عليه من فسخها على القاسم أو إثباتها، فإن السعادة واليمن في الأخذ بعهده، والمضيّ على مناهجه. وأعلم مَن قِبلك من الخاصة والعامة رأيي في استصلاحهم، وردّ مظالمهم وتفقّد حالاتهم، وأداء أرزاقهم وأعطياتهم عليهم، فإن شغب شاغب، أو نَعَر ناعر، فاسطو به سطوةً تجعله نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين. واضمم إلى الميمون بن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين وخدمه وأهله، ومره بالمسير معهم فيمن معه من جنده ورابطته، وصيّر إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه، فإنه ثقة على ما يلي مقبول عند العامة، واضمم إليه جميع الشُّرَط من الروابط وغيرهم إلى من معه من جنده، ومُرهُ بالجدّ والتيقُّظ وتقديم الحزم في أمره كله، ليله ونهاره،

فإن أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يغتنمون مثل حلول هذه المصيبة، وأقِرّ حاتم بن هرثمة على ما هو عليه، ومُره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين، فإنه ممن لا يعرف إلا بالطاعة، ولا يدين إلا بها بمعاقد من الله مما قدّم له في حال أبيه المحمود عند الخلفاء، ومُرْ الخدم بإحضار روابطهم ممن يُسدّ بهم وبأجنادهم مواضع الخلل من عسكرك، فإنهم حدّ من حدودك، وصيّر مقدمتك إلى أسد بن يزيد بن مزيد، وساقتك إلى يحيى بن معاذ فيمن معه من الجنود، ومرهما بمناوبتك في كل ليلةٍ، والزم الطريق الأعظم، ولا تعدّون المراحل، فإن ذلك أرفق بك، ومر أسد بن يزيد يتخيّر رجلاً من أهل بيته أو قواده فيصير إلى مقدمته، ثم يصير أمامه لتهيئة المنازل أو بعض الطريق، فإن لم يحضرك في عسكرك بعض من سمّيت، فاختر لمواضعهم من تثق بطاعته ونصيحته وهيبته عند العوام، فإن ذلك لن يعوزك من قوادك وأنصارك إن شاء الله، وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأي شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع، وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك، ولا تخرجنّ أحداً منهم من ضمن ما يلي إلى أن تقدم عليّ.

وقد أوصيت بكر بن المعتمر بما سيبلّغكه، واعمل في ذلك بقدر ما تشاهد وترى، وإن أمرت لأهل العسكر بعطاءٍ أو رزقٍ، فليكن الفضل بن الربيع المتولّي لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه، بمحضرٍ من أصحاب الدواوين، فإن الفضل بن الربيع لم يزل يتقلّد مثل ذلك لمهمات الأمور. وأنفذ إليّ عند وصول كتابي هذا إليك إسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر على مركبيهما من البريد، ولا يكون ذلك عرجة ولا مهلة بموضعك الذي أنت فيه حتى توجّه إليّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله، أخوك يستدفع الله عنك ويسأله لك حسن التأييد برحمته.

وكتب بكر بن المعتمر بين يدي وإملائي في شوال سنة ثنتين وتسعين ومائة.

وقيل: إن نعي الرشيد لما ورد بغداد صعد إسحاق بن عيسى بن علي المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أعظم الناس رزيئةً، وأحسن الناس بقيةً رزؤنا، فإنه لم يُرزأ أحد كرزئنا، فمن له مثل عوضنا، ثم نعاه إلى الناس، وحضّ الناس على الطاعة.

وكان المأمون قد رحل من مرو إلى قصر خالد بن حماد على فرسخٍ من مرو يريد سمرقند حيث رافع بن

الليث وقد خلع الطاعة، وأمر المأمون العباس بن المسيّب بإخراج الناس واللحوق بالعسكر، فمرّ به إسحاق الخادم ومعه نعي الرشيد، فغمّ العباس قدومه، فوصل إلى المأمون فأخبره، فرجع المأمون إلى مرو، ودخل دار الإمارة، دار أبي مسلم، ونعى الرشيد على المنبر، وشقّ ثوبه ونزل، وأمر للناس بمال، وبايع لمحمد ولنفسه، وأعطى الجند رزق اثني عشر شهراً[1].

وأصبح أعوان كل طرفٍ من ولدي الرشيد الأمين والمأمون يُروّجون رواياتٍ تُؤيّد جانب صاحبهم وتُؤيّد أحقيته بالخلافة.

قال الفضل بن سهل: استقبل الرشيد وجوه أهل خراسان، وفيهم الحسين بن مصعب، ولقيني فقال لي: الرشيد ميتٌ أحد هذين اليومين، وأمر محمد بن الرشيد ضعيف، والأمر أمر صاحبك، مدّ يدك، فمدّ يده فبايع للمأمون بالخلافة، ثم أتاني بعد أيام ومعه الخليل بن هشام، فقال: هذا ابن أخي، وهو لك ثقة خذ بيعته.

وقيل: لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين بطوس من القواد والجند وأولاد الرشيد،

(١) تاريخ الطبري.

تشاوروا في اللحاق بمحمد، فقال الفضل بن الربيع: لا أدعُ ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل، ففعلوا ذلك محبةً منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد، وتركوا العهود التي كانت أُخذت عليهم للمأمون، فانتهى الخبر بذلك من أمرهم إلى المأمون بمرو، فجمع من معه من قواد أبيه، فكان معه منهم: عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وشبيب بن حميد بن قحطبة، والعلاء مولى هارون، والعباس بن المسيّب بن زهير وهو على شرطته، وأيوب بن أبي سمير وهو على كتابته، وكان معه من أهل بيته عبد الرحمٰن بن عبد الملك بن صالح، وذو الرياستين، وهو عنده من أعظم الناس قدراً وأخصّهم به، فشاورهم وأخبرهم الخبر، فأشاروا عليه أن يلحقهم في ألفي فارس جريدةً[1]، فيردّهم، وسُمّي لذلك قوم، فدخل عليه ذو الرياستين، فقال له: إن فعلت ما أشاروا عليك جعلت هؤلاء هديةً إلى محمد، ولكن الرأي أن تكتب إليهم كتاباً، وتوجّه إليهم رسولاً، فتذكّرهم البيعة، وتسألهم الوفاء، وتحذّرهم الحنث، وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين، وقال له: إن كتابك ورسلك

---

(١) جريدة: جماعة من الخيل، جُرّدت لوجهةٍ معينةٍ.

تقوم مقامك فتستبرئ ما عند القوم، وتوجّه سهل بن صاعد، فإنه يأملك، ويرجو أن ينال أمله، فلن يألوك نصحاً، وتُوجّه نوفلاً الخادم مولى موسى الهادي أمير المؤمنين، فكتب كتاباً، ووجّههما فلحقاهم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل.

قال سهل بن صاعد: فأوصلت إلى الفضل بن الربيع كتابه، فقال لي: إنما أنا واحد منهم، وشدّ عليّ عبد الرحمٰن بن جبلة بالرمح فأمرّه على جنبي، ثم قال لي: قل لصاحبك: والله لو كنت حاضراً لوضعت الرمح في فيك. هذا جوابي. ونال من المأمون. فرجعت بالخبر.

قال الفضل بن سهل للمأمون: أعداء قد استرحت منهم، ولكن افهم عني ما أقول لك، إن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها أيام أبي جعفر، فخرج عليه المقنع وهو يدّعي الربوبية، وقال بعضهم: طلب بدم أبي مسلم، فتضعضع العسكر بخروجه بخراسان، فكفاه الله المؤونة، ثم خرج بعده يوسف البَرْم وهو عند بعض المسلمين كافر، فكفى الله المؤونة، ثم خرج أستاذسيس يدعو إلى الكفر، فسار المهدي من الري إلى نيسابور فكُفي المؤونة، ولكن ما أصنع! أكثرُ عليك، أخبرني كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع بن الليث؟

قال: رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً، قال: وكيف بك وأنت نازل في أخوالك[1]، وبيعتك في أعناقهم! كيف يكون اضطراب أهل بغداد!. اصبر وأنا أضمن لك الخلافة. ووضع الفضل بن سهل يده على صدره، قال المأمون: فعلت وجعلت الأمر إليك فقم به، قال الفضل بن سهل: والله لأصدُقنّك. إن عبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ ومن سمّينا من أمراء الرؤساء، إن قاموا لك بالأمر كانوا أنفع مني لك برياستهم المشهورة، ولما عندهم من القوة على الحرب، فمن قام بالأمر كنت خادماً له حتى تصير إلى محبتك[2]، وترى رأيك فيّ،

---

(١) أخوال المأمون في خراسان إذ أن أمه أم ولد فارسية. فهو يريد أن يظهر قوة أهل خراسان، وأثرهم الخطير في نفوس الآخرين.

(٢) الفضل بن سهل يعود إلى أصلٍ من جهة خراسان فلا يريد أن يظهر في الواجهة فيكشف الأمر، ويعرف المخطط، لذا أراد تقديم غيره، ويعمل هو بالخفاء بالتحريض والدسّ والتخطيط.
ولد الفضل بن سهل في مدينة «سرخس» بخراسان سنة ١٥٤هـ، أبو العباس، وزير المأمون وصاحب تدبيره، اتصل به في صباه وأسلم على يده سنة ١٩٠هـ، وكان من قبل مجوسياً، وصحبه قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معاً فكان يُلقّب بذي الرياستين (الحرب والسياسة)، مولده ووفاته بمدينة سرخس لذا نُسب إليها، فيقال: الفضل بن سهل السرخسي، قُتل سنة ٢٠٢هـ وهو بالحمّام، كان حازماً فصيحاً، من الأكفاء وأخباره كثيرة.

فلقيتهم في منازلهم، وذكّرتهم البيعة التي في أعناقهم وما يجب عليهم من الوفاء. قال: فكأني جئتهم بجيفةٍ على طبقٍ، فقال بعضهم: هذا لا يحلّ، اخرج، وقال بعضهم: من الذي يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه، فجئت فأخبرته، قال: قم بالأمر، قال: قلت: قد قرأت القرآن، وسمعت الأحاديث، وتفقّهت في الدين، فالرأي أن تبعث إلى مَن بالحضرة من الفقهاء، فتدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة، وتقعد على اللبّود، وتردّ المظالم. ففعلنا وبعثنا إلى الفقهاء، وأكرمنا القواد والرؤساء وأبناء الرؤساء، فكنا نقول للتميمي: نقيمك مقام موسى بن كعب، وللربعيّ: نقيمك مقام أبي داود خالد بن إبراهيم، ولليمانيّ: نقيمك مقام قحطبة ومالك بن الهيثم. فكنا ندعو كل قبيلةٍ إلى نقباء رؤوسهم، واستملنا الرؤوس، وقلنا لهم مثل ذلك، وحططنا عن خراسان ربع الخراج، فحسن موقع ذلك منهم، وسُرّوا به، وقالوا: ابن أختنا[1]، وابن عمّ النبيّ ﷺ.

---

(١) برزت الحميّة الجاهلية، لا عصبيةً بل للفتنة والتهديم للوصول إلى أهدافٍ يعملون لها بجهودهم، ويخططون لها بعقولهم، ولا تكاد تفارق مخيلتهم.

الطرف الآخر:

ويمثّله الفضل بن الربيع[1] الذي فكّر بعد مقدمه من العراق على محمد الأمين منصرفاً من طوس، وناكثاً للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه لابنه عبد الله المأمون، وعلم أن الخلافة إذا أفضت إلى المأمون يوماً وهو حيّ لم يُبْقِ عليه، وكان في ظَفَره به عطبُه، فسعى في إغراء محمد الأمين به، وحثّه على خلعه، وصرْف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى بن محمد الأمين، ولم يكن ذلك من رأي محمد الأمين ولا عزمه، بل كان عزمه ـ فيما ذكر عنه ـ الوفاء لأخويه: عبد الله والقاسم، بما كان أخذ عليه لهما والده من العهود والشروط، فلم يزل الفضل بن الربيع به يُصغِّر في عينه

---

(١) الفضل بن الربيع بن يونس، أبو العباس، من أحفاد أبي فروة «كيسان» مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه: ولد سنة ١٣٨هـ. وزير، أديب، حازم. كان أبوه وزيراً لأبي جعفر المنصور، وجعله المنصور حاجباً لما ولّى أباه الوزارة، فلما آل الأمر إلى الرشيد واستوزر البرامكة كان الفضل بن الربيع من أكبر خصومهم، حتى ضربهم الرشيد تلك الضربة، وولي الفضل الوزارة إلى أن مات الرشيد، واستخلف الأمين، فأقرّه في وزارته، فعمل على مقاومة المأمون، ولما ظفر المأمون استتر الفضل حتى عفا عنه المأمون، وأهمله بقية حياته، وتوفي بطوس سنة ٢٠٨هـ.

شأن المأمون، ويزين له خلعه، حتى قال له: ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك، فإن البيعة كانت لله متقدمةً قبلهما، وإنما أُدخلا فيها بعدك واحداً بعد واحدٍ، وأدخل في ذلك من رأيه معه علي بن عيسى بن ماهان والسنديّ وغيرهما ممن بحضرته، فأزال محمداً عن رأيه.

فأول ما بدأ به محمد عن رأي الفضل بن الربيع فيما دبّر من ذلك، أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون وللمؤتمن القاسم بن الرشيد، فذكر الفضل بن إسحاق بن سليمان أن المأمون لما بلغه ما أمر به محمد الأمين من الدعاء لابنه موسى، وعزله القاسم عما كان الرشيد ضمّ إليه من الأعمال واستقدامه له إلى مدينة السلام بغداد، علم أنه يدبّر عليه في خلعه، فقطع البريد عن محمد، وأسقط اسمه من الطراز والضرب (الطراز: لباس الحاكم، والعلم) و(الضرب: ضرب النقود).

وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيار لما انتهى إليه الخبر عن المأمون وحسن سيرته في أهل عمله وإحسانه إليهم، بعث في طلب الأمان لنفسه، فسارع إلى ذلك هرثمة بن أعين، وخرج رافع فلحق بالمأمون،

وهرثمة بعد مقيم بسمرقند، فأكرم المأمون رافعاً. وكان مع هرثمة في حصار رافع طاهر بن الحسين، فلما دخل رافع في الأمان، استأذن هرثمة المأمون في القدوم عليه، فعبر نهر بلخ بعسكره والنهر جامد، فتلقّاه الناس، وولّاه المأمون الحرس. فأنكر ذلك كلّه محمد الأمين فبدأ بالتدبير على المأمون، فكان من التدبير أن كتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك ـ وهو عامل المأمون على الريّ ـ وأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الريّ ـ مريداً بذلك امتحانه ـ فبعث إليه ما أمره به، وكتم المأمون وذا الرياستين (الفضل بن سهل). فبلغ ذلك من أمره المأمون، فوجّه الحسن بن عليّ المأموني وأردفه بالرستمي على البريد، وعزل العباس بن عبد الله بن مالك، فذكر عن الرستميّ أنه لم ينزل عن دابته حتى اجتمع إليه ألف رجل من أهل الريّ.

ووجّه الأمين إلى المأمون ثلاثة أنفس رسلاً: أحدهم العباس بن موسى بن عيسى، والآخر صالح صاحب المصلى، والثالث محمد بن عيسى بن نهيك، وكتب معهم كتاباً إلى صاحب الريّ أن استبقهم بالعُدة والسلاح الظاهر، وكتب إلى والي قومس ونيسابور وسرخس بمثل ذلك ففعلوا، ثم وردت الرسل مرو، وقد أُعدّ لهم من السلاح وضروب العدد والعتاد، ثم صاروا

إلى المأمون فأبلغوه رسالة الأمين بمسألته تقديم موسى على نفسه، ويذكر له أنه سمّاه الناطق بالحق، وكان الذي أشار عليه بذلك علي بن عيسى بن ماهان، وكان يخبره أن أهل خراسان يطيعونه، فردّ المأمون ذلك وأباه.

قال العباس بن موسى بن عيسى بن موسى: وما عليك أيها الأمير من ذلك، فهذا جدي عيسى بن موسى قد خلع فما ضرّه ذلك. فصاح به ذو الرياستين الفضل بن سهل: اسكت، فإن جدّك كان في أيديهم أسيراً، وهذا بين أخواله وشيعته، فانصرفوا. وأُنزل كل واحدٍ منزلاً. قال الفضل بن سهل: فأعجبني ما رأيت من ذكاء العباس بن موسى، فخلوت به فقلت: أيذهب عليك في فهمك وسنّك أن تأخذ بحظك من الإمام ـ وسُمّي المأمون في ذلك اليوم بالإمام ولم يُسمّ بالخليفة، وكان سبب ما سُمّي به الإمام ما جاء من خلع محمد له. وقد كان محمد الأمين قال للذين أرسلهم: قد تسمّى المأمون بالإمام، فقال لي العباس بن موسى: قد سميتموه الإمام، فقلت له: قد يكون إمام المسجد والقبيلة، فإن وفيتم لم يضرّكم، وإن غررتم فهو ذاك. ثم قلت للعباس: لك عندي ولاية الموسم، ولا ولاية أشرف منها، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما

شئت. فما برح حتى أخذت عليه البيعة للمأمون بالخلافة، فكان بعد ذلك يكتب إلينا بالأخبار، ويشير علينا بالرأي.

قال علي بن يحيى السرخسيّ: مرّ بي العباس بن موسى ذاهباً إلى مرو ـ وقد كنت وصفت له سيرة المأمون وحسن تدبير ذي الرياستين واحتماله الموضع، فلم يقبل ذلك مني ـ فلما رجع مرّ بي، فقلت له: كيف رأيت؟ قال: ذو الرياستين أكثر مما وصفت، فقلت: صافحت الإمام؟ قال: نعم، قلت: امسح يدك على رأسي. قال: ومضى القوم إلى محمد الأمين فأخبروه بامتناعه، قال: فألحّ الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان على الأمين في البيعة لابنه وخلع المأمون، وأعطى الفضل الأموال التي بايع لابنه موسى، وسمّاه الناطق بالحق، وأحضنه علي بن عيسى وولّاه العراق.

ونهى الفضل بن الربيع عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم المؤتمن والدعاء لهما على شيءٍ من المنابر، ودسّ لذكر عبد الله والوقيعة فيه، ووجّه كتاباً إلى مكة مع رسول من حجبة البيت يقال له محمد بن عبد الله بن عثمان بن طلحة في أخذ الكتابين اللذين كان هارون

الرشيد كتبهما، وجعلهما في الكعبة لعبد الله بن محمد، فقدم بهما عليه، وتكلم في ذلك بقية الحجبة، فلم يحفل بهم، وخافوا على أنفسهم، فلما صار بالكتابين إلى محمد الأمين قبضهما منه، وأجازه بجائزةٍ عظيمةٍ، ومزّقهما وأبطلهما.

كتاب من الأمين إلى المأمون:

وكان محمد الأمين قد كتب إلى أخيه المأمون قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه، يسأله أن يتجافى له عن كورٍ من كور خراسان ـ سمّاها ـ وأن يُوجّه العمال إليها من قبل الأمين، وأنه يحتمل توجيه رجلٍ من قبله يولّيه البريد عليه ليكتب إليه بخبره. فلما ورد إلى المأمون الكتاب بذلك، كبُر ذلك عليه واشتدّ، فبعث إلى الفضل بن سهل وإلى أخيه الحسن بن سهل، فشاورهما في ذلك، فقال الفضل: الأمر مُخْطر، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة، ولهم تأنيس بالمشاورة، وفي قطع الأمر دونهم وحشة، وظهوره قلة ثقة، فرأي الأمير في ذلك. وقال الحسن: كان يقال: شاور في طلب الرأي من تثق بنصيحته، وتألّف العدوّ فيما لا اكتتام له بمشاورته، فأحضر المأمون الخاصة من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا جميعاً

له: أيها الأمير تُشاور في مخطر، فاجعل لبديهتنا حظاً من الرؤية، فقال المأمون: ذلك هو الحزم، وأجّلهم ثلاثاً، فلما اجتمعوا بعد ذلك، قال أحدهم: أيها الأمير، قد حُمِلت على كُرهين، ولست أرى خطأ مدافعةً بمكروه أولهما مخافة مكروه آخرهما، وقال آخر: كان يقال أيها الأمير، أسعدك الله إذا كان الأمر مُخْطراً، فإعطاؤك من نازعك طرفاً من بغيته أمثل من أن تصير بالمنع إلى مكاشفته. وقال آخر: إنه كان يقال: إذا كان علم الأمور مغيّباً عنك، فخذ ما أمكنك من هدنة يومك، فإنك لا تأمن أن يكون فساد يومك راجعاً بفساد غدك، وقال آخر: لئن خيفت للبذل عاقبة، إن أشدّ منها لما يبعث الإباء من الفرقة. وقال آخر: لا أرى مفارقة منزلةِ سلامةٍ، فلعلّي أُعطى معها العافية. فقال الحسن بن سهل: فقد وجب حقكم باجتهادكم، وإن كنت من الرأي على مخالفتكم، فقال له المأمون: فناظرهم، قال: لذلك ما كان الاجتماع. وأقبل الحسن بن سهل عليهم، فقال: هل تعلمون أن محمد الأمين تجاوز إلى طلب شيءٍ ليس له بحقّ؟ قالوا: نعم، ويحتمل ذلك لما نخاف من ضرر منعه. قال: فهل تثقون بكفه بعد إعطائه إياها، فلا يتجاوز بالطلب إلى غيرها؟ قالوا: لا، ولعل سلامةً تقع من دون ما

يُخاف ويتوقّع. قال: فإن تجاوز بعدها بالمسألة، أفما ترونه قد توهّن بما بذله منها في نفسه، قالوا: ندفع ما يعرض له في عاقبةٍ بمدافعة محذورٍ في عاجلةٍ، قال: فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا، قالوا: استصلح عاقبة أمرك باحتمال ما عرض من كره يومك، ولا تلتمس هدنة يومك بإخطارٍ أدخلته على نفسك في غدك. قال المأمون للفضل: ما تقول فيما اختلفوا فيه؟ قال: أيها الأمير، أسعدك الله، هل يؤمن الأمين أن يكون طالبك بفضل قوتك ليستظهر بها عليك غداً على مخالفتك! وهل يصير الحازم إلى فضلةٍ من عاجل الدعة بخطرٍ يتعرض له في عاقبة، بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم، فقال المأمون: بل بإيثار العاجلة صار من صار إلى فساد العاقبة في أمر دنيا أو أمر آخرة. قال القوم: قد قلنا بمبلغ الرأي، والله يؤيّد الأمير بالتوفيق.

كتاب من المأمون إلى الأمين:

قال المأمون: اكتب يا فضل إليه، فكتب:

قد بلغني كتاب أمير المؤمنين يسألني التجافي عن مواضع سمّاها مما أثبته الرشيد في العقد، وجعل أمره إليّ، وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره، غير

أن الذي جعل الطرف الذي أنابه، لا ظنين للنظر في عامته، ولا جاهل بما أسند إليَّ من أمره، ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة، ثم كنتُ على الحال التي أنا عليها من إشراف عدوٍّ مخوف الشوكة، وعامّة لا تتألف عن هضمها، وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال وطرف من الإفضال لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يحبّ من لمّ أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته، وأن يستصلحه ببذل كثيرٍ من ماله، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق، ووكّد به مأخوذ العهد، وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يُطلع بمسألة ما كتب بمسألته إليَّ.
ثم أنا على ثقةٍ من القبول بعد البيان إن شاء الله.

وكان المأمون قد وجّه حارسةً إلى الحدّ، فلا يجوز رسول من العراق حتى يُوجّهوه مع ثقات من الأمناء، ولا يدعه يستعلم خبراً ولا يؤثر أثراً، ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحداً، ولا يُبْلغ أحداً قولاً ولا كتاباً، فحصر أهل خراسان من أن يُستمالوا برغبةٍ، أو أن تودع صدورهم رهبةً، أو يحملوا على منزل خلافٍ أو مفارقة، ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظّنّة في أمره فمن أتى بجواز في مخرجه إلى دار مآبه، أو تاجر

معروف مأمون في نفسه ودينه، ومنع الأشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول في البلدان في هيئة الطارئة والسابلة، وفُتّشت الكتب.

وكان أول من أقبل من قبل محمد الأمين مناظراً في منعه ما كان سأل جماعة، وإنما وُجّهوا ليعلم أنهم قد عاينوا وسمعوا، ثم يلتمس منهم أن يبذلوا أو يحرموا فيكون مما قالوا حجة يُحتجّ بها، أو ذريعة إلى ما التمس منها. فلما صاروا إلى حدّ الريّ، وجدوا تدبيراً مؤيداً، وعقداً مستحصداً متأكداً، وأخذتهم الأحراس من جوانبهم، فحفظوا في حال ظعنهم وإقامتهم من أن يخبِروا أو يُسْتَخْبروا، وكتب بخبرهم من مكانهم، فجاء الإذن في حملهم، فحُملوا محروسين، لا خبر يصل إليهم، ولا خبر يطلع منهم إلى غيرهم، وقد كانوا مُعدّين لبثّ الخبر في العامة وإظهار الحجة بالمفارقة والدعاء لأهل القوة إلى المخالفة، يبذلون الأموال، ويضمنون لهم معظم الولايات والقطائع والمنازل، فوجدوا جميع ذلك ممنوعاً محسوماً حتى صاروا إلى باب المأمون.

ردّ الأمين:

وكان الكتاب النافذ معهم إلى المأمون:

أما بعد: فإن أمير المؤمنين الرشيد وإن كان قد أفردك بالطرف، وضمّ إليك ما ضمّ من كور الجبل، تأييداً لأمرك، وتحصيناً لطرفك، فإن ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك. وقد كان هذا الطرف وخراجه كافياً لحدثه، ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من ردّه، وقد ضمّ لك إلى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها، فالحق فيها أن تكون مردودةً في أهلها ومواضع حقها. فكتبت إليك أسألك ردّ تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها، لتكون فضول ردّها مصروفةً إلى مواضعها وأن تأذن للقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدّي إلينا علم ما تعنى به من خبر طرفك فكتبت تلطّ[1] دون ذلك بما إن تمّ أمرك عليه صيّرنا الحق إلى مطالبتك، فاثن عن همك اثن عن مطالبتك، إن شاء الله.

ردّ المأمون:

فلما قرأ المأمون الكتاب كتب مجيباً له:

أما بعد: فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه، ولم يسأل ما

---

(١) تلطّ: تجحد.

يوجبه حق فيلزمني الحجة بترك إجابته، وإنما يتجاوز المتناظران منزل النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها، فمتى تجاوز متجاوز ـ وهي موجودة الوسع ـ ولم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال ما في تركها، فلا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك، ولا على قطيعتك، وأنا على إيثار ما تحبّ من صلتك، وارضَ بما حكم به الحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام.

ثم أحضر الرسل، فقال: إن أمير المؤمنين كتب في أمرٍ كتبت له في جوابه، فأبلغوه الكتاب، وأعلموه أني لا أزال على طاعته، حتى يضطرني بترك الحق الواجب إلى مخالفته. فذهبوا يقولون، فقال: قفوا أنفسكم حيث وقفنا بالقول بكم، وأحسنوا تأدية ما سمعتم، فقد أبلغتمونا من كتابنا ما عسى أن تقولوه لنا. فانصرف الرسل ولم يُثبتوا لأنفسهم حجةً، ولم يحملوا خبراً يؤدونه إلى صاحبهم، ورأوا جداً غير مشوبٍ بهزلٍ، في منع ما لهم من حقهم الواقع ـ بزعمهم ـ.

فلما وصل كتاب المأمون إلى الأمين وصل منه ما فظع منه، وتمخط[1] غيظاً بما تردّد منه في سمعه، وأمر

---

(١) تمخط: اقشعر نفسياً.

عند ذلك ما ذُكر من الإمساك عن الدعاء له على المنابر، وكتب إليه:

جواب الأمين:

أما بعد: فقد بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكّن لك من ظلّها، متعرضاً لحراق نارٍ لا قبل لك بها، ولحظّك عن الطاعة كان أودع لك، وإن كان تقدّم مني متقدّم، فليس بخارج من مواضع نفعك إذ كان راجعاً على العامة من رعيتك، وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة، ويثبت لك من حال الهدنة، فأعلمني رأيك أعمل عليه ـ إن شاء الله ـ.

وذكر سهل بن هارون عن الحسن بن سهل، أن المأمون قال لذي الرياستين (الفضل بن سهل): إن ولدي وأهلي ومالي الذي أفرده الرشيد لي بحضرة محمد الأمين ـ وهو مائة ألف ألف ـ وأنا إليها محتاج، وهي قِبله فما ترى في ذلك؟ وراجعه في ذلك مراراً. فقال له ذو الرياستين: أيها الأمير، بك حاجة إلى فضلة مالك وأن يكون أهلك في دارك وجنابك، وإن أنت كتبت فيه كتاب عزمة فمنعك صار إلى خلع عهده، فإن فعل حملك ولو بالكره على محاربته، وأنا أكره أن تكون المستفتح باب

الفرقة ما أرتجه الله دونك، ولكن تكتب كتاب طالب لحقك، وتوجيه أهلك على ما لا يوجب عليه المنع نكثاً لعهدك، فإن أطاع فنعمة، وعافية، وإن أبى لم تكن بعثت على نفسك حرباً أو مشاقة. فاكتب إليه، فكتب عنه.

جواب المأمون:

أما بعد، فإن نظر أمير المؤمنين للعامة نظر من لا يقتصر عنه على إعطاء النصفة من نفسه حتى يتجاوزها إليهم ببرّه وصلته، وإذا كان ذلك رأيه في عامته، فأحْرِ بأن يكون على مجاوزة ذلك بصنوه وقسيم نسبه، فقد تعلم يا أمير المؤمنين حالاً أنا عليها من ثغورٍ حللت بين لهواتها، وأجنادٍ لا تزال موقنة بنشر غيّها وبنكث آرائها، وقلة الخَرْجِ قِبَلي، والأهل والولد قبل أمير المؤمنين ما للأهل - وإن كانوا في كفايةٍ من برّ أمير المؤمنين، فكان لهم والداً - بدّ من الإشراف والنزوع إلى كنفي، ومالي بالمال من القوة والظهير على لمّ الشعث بحضرتي، وقد وجّهت لحمل العيال وحمل ذلك المال، فرأى أمير المؤمنين في إجازة فلان إلى الرقة في حمل ذلك المال، والأمر بمعونته عليه، غير محرجٍ له فيه إلى ضيقةٍ تقع بمخالفته، أو حاملٍ له على رأيٍ يكون على غير موافقةٍ والسلام.

خطاب الأمين:

أما بعد فقد بلغني كتابك بما ذكرت مما عليه رأي أمير المؤمنين في عامّته فضلاً عما يجب من حقٍّ لذي حرمته وخليط نفسه، ومحلك بين لهوات ثغور، وحاجتك لمحلك بينها إلى فَضلة من المال لتأييد أمرك، والمال الذي سُمّي لك من مال الله، وتوجيهك من وجهت في حمله وحمل أهلك من قبل أمير المؤمنين. ولعمري ما ينكر أمير المؤمنين رأياً هو عليه مما ذكرت لعامّته، يوجب عليه من حقوق أقاربه وعامته. وبه إلى ذلك المال الذي ذكرت حاجة في تحصين ثغور المسلمين، فكان أولى به إجراؤه منه على فرائضه، وردّه على مواضع حقه، وليس بخارجٍ من نفعك ما عاد بنفع العامة من رعيتك، وأما ما ذكرت من حمل أهلك، فإن رأي أمير المؤمنين تولّي أمرهم، وإن كنت بالمكان الذي أنت فيه من حق القرابة. ولم أر من حملهم على سفرهم مثل الذي رأيت من تعريضهم بالسفر للتشتّت، وإن أرَ ذلك من قِبلي أوجههم إليك مع الثقة من رسلي ـ إن شاء الله ـ والسلام.

ولما ورد الكتاب على المأمون، قال: لاطَ دون حقنا يريد أن نتوهّن مما يمنع من قوتنا، ثم يتمكّن

للوهنة من الفرصة في مخالفتنا، فقال له الفضل بن سهل: أو ليس من المعلوم دفع الرشيد إلى ذلك المال إلى الأمين لجمعه، وقبض الأمين إياه على أعين الملأ من عامته، على أنه يحرسه قِنْية، فهو لا ينزع إليها، فلا تأخذ عليه مضايقها، وأمل له ما لم تضطرك جريرته إلى مكاشفته بها، والرأي لزوم عروة الثقة، وحسم الفُرقة، فإن أمسك فبنعمة، وإن تطلع إليها فقد تعرّض لله بالمخالفة، وتعرّضت منه بالإمساك للتأييد والمعونة.

وعلم المأمون والفضل بن سهل أنه سيحدث بعد كتابه هذا من الحدث ما يحتاج إلى لمّه، ومن الخبر ما يحتاج أن يباشره بالثقة من أصحابه، وأنه لا يُحدث في ذلك حدثاً دون مواطأة رجال النباهة والأقدار، فرأى أن يختار رجلاً يكتب معه إلى أعيان أهل العسكر من بغداد، فإن أحدث الأمين خلعاً للمأمون صار إلى دفعها، وتلطّف لعلم حالات أهلها، وإن لم يفعل من ذلك شيئاً خنس في حُقته، وأمسك عن إيصالها، وتقدم إليه في التعجيل.

ولما قدم أوصل الكتب، وكان كتابه مع الرسول الذي وجهه لعلم الخبر.

خطاب المأمون:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين كأعضاء البدن يحدث العلّة في بعضها فيكون كره ذلك مؤلماً لجميعها، وكذلك الحدث في المسلمين يكون في بعضهم فيصل كره ذلك إلى سائرهم، للذي يجمعهم من شريعة دينهم، ويلزمهم من حرمة أخوتهم، ثم ذلك من الأئمة للمكان الذي به الأئمة من سائر أممهم، وقد كان من الخبر ما لا أحسبه إلا سيعرب عن محنته، ويسفر عما استتر من وجهه، وما اختلف مختلفان فكان أحدهما مع أمر الله إلا كان أول معونة المسلمين وموالاتهم في ذات الله، وأنت يرحمك الله من الأمر بمرأى ومسمع، وبحيث إن قلت أُذِن لقولك، وإن لم تجد للقول مساغاً فأمسكت عن مخوف اقتدى فيه بك، ولن يضيع الله عليَّ ثواب الإحسان مع ما يجب علينا بالإحسان من حقك، ولحظّ حاز لك النصيبين، أو أحدهما أمثل من الإشراف لأحد الحظين، مع التعرّض لعدمهما، فاكتب إليّ برأيك، وأعلم ذلك لرسولي ليؤدّيه إليّ عنك ـ إن شاء الله ـ.

وكتب إلى رجال النباهة من أهل العسكر بمثل ذلك.

فوافق قدوم الرسول بغداد ما أمر به من الكفّ

عن الدعاء للمأمون في الخطبة يوم الجمعة، وكان بمكان الثقة من كل من كتب إليه معه، فمنهم من أمسك عن الجواب وأعرب للرسول عما في نفسه، ومنهم من أجاب على كتابه، فكتب أحدهم:

أما بعد: فقد بلغني كتابك وللحق برهان يدلّ على نفسه تثبت به الحجة على كل من صار إلى مفارقته، وكفى غبناً بإضاعة حظٍ من حظ العاقبة، لمأمولٍ من حظ عاجلةٍ، وأبين من الغبن إضاعة حظ عاقبة مع التعرّض للنكبة والوقائع، ولي من العلم بمواضع حظي ما أرجو أن يحسن معه النظر مني لنفسي، ويضع عني مؤنة استزادتي ـ إن شاء الله ـ.

وكتب الرسول المتوجّه إلى بغداد منها إلى المأمون والفضل بن سهل:

أما بعد: فإني وافيت البلدة، وقد أعلن خليطك بتنكّره، وقدم علماً من اعتراضه ومفارقته [وأمسك عما كان يجب ذكره وتوفيته] بحضرته، ودفعت كتبك فوجدت أكثر الناس ولاة السريرة ونفاة العلانية، ووجدت المشرفين بالرعية لا يحوطون إلا عنها ولا يبالون ما احتملوا فيها، والمنازع مختلج الرأي، لا يجد دافعاً منه عن همّه، ولا راغباً في عامّة، والمحلون

بأنفسهم يحلون تمام الحدث، ليسلموا مِن منهزم حدثهم، والقوم على جدّ، ولا تجعلوا للتواني في أمركم نصيباً ـ إن شاء الله ـ والسلام.

ولما قدم على الأمين من معسكر المأمون سعيد بن مالك بن قادم، وعبد الله بن حميد بن قحطبة، والعباس بن الليث مولى أمير المؤمنين، ومنصور بن أبي مطر، وكثير بن قادرة، تلطّف بهم وقرّبهم، وأمر لمن كان قبض منهم الستة الأشهر برزق اثني عشر شهراً، وزادهم في الخاصة والعامة، ولمن لم يقبضها بثمانية عشر شهراً.

ولما عزم الأمين على خلع المأمون دعا يحيى بن سُليم فشاوره في ذلك، فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، كيف بذلك لك مع ما قد وكّد الرشيد من بيعته، وتوثّق بها من عهده، والأخذ للأيمان والشرائط في الكتاب الذي كتبه، فقال له الأمين: إن رأي الرشيد كان فلتةً شبّهها عليه جعفر بن يحيى البرمكي بسحره، واستماله بِرُقاه وعُقَدِهِ، فغرس لنا غرساً مكروهاً لا ينفعنا ما نحن فيه إلا بقطعه، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثه والراحة منه. فقال: أما إذا كان رأي أمير المؤمنين خلعه، فلا يُجاهره مجاهرةً فيستنكرها الناس،

ويستشنعها العامة، ولكن تستدعي الجند بعد الجند والقائد بعد القائد، وتؤنسه بالألطاف والهدايا، وتُفرّق ثقاته ومن معه، وتُرغّبهم بالأموال، وتستميلهم بالأطماع، فإذا أوهنت قوته، واستفرغت رجاله، أمرته بالقدوم عليك، فإن قدم صار إلى الذين تريد منه، وإن أبى كنت قد تناولته وقد كلّ حدّه وهيض جناحه، وضعف ركنه وانقطع عزّه. فقال الأمين: ما قطع أمراً كصريمة، أنتَ مهذار خطيب، ولست بذي رأي، فزُل عن هذا الرأي إلى الشيخ الموفّق والوزير الناصح[١]، قم فالحق بمدادك وأقلامك.

قال يحيى بن سُليم: غضب الأمين، يشوبه صدق ونصيحة، أشرت إلى رأيٍ يخلطه غشّ وجهل، فوالله ما ذهبت الأيام حتى ذكرت كلامي، وأقررت بخطئي وخرقي.

قال سهل بن هارون: وقد كان الفضل بن سهل دسّ قوماً اختارهم ممن يثق به من القواد والوجوه ببغداد ليكاتبوه بالأخبار يوماً يوماً، فلما همّ الأمين بخلع المأمون بعث الفضل بن الربيع إلى أحد هؤلاء

(١) يقصد الفضل بن الربيع.

الرجال يشاوره فيما يرى من ذلك، فعظّم الرجل عليه أمر نقض العهد للمأمون، وقبّح الغدر به. فقال له الفضل: صدقت، ولكن عبد الله المأمون قد أحدث الحدث الذي وجب به نقض ما أخذ الرشيد له. قال: أفتثبت الحجة عند العوام بمعلوم حدثه كما تثبت الحجة بما جدد من عهده، قال: لا، قال أفحدثٌ هذا منكم يوجب عند العامة نقض عهدكم ما لم يكن حدثه معلوماً يجب به فسخ عهده، قال: نعم، قال الرجل - ورفع صوته: بالله ما رأيت كاليوم رأي رجلٍ يرتاد به النظر، يشاور في رفع ملك في يده بالحجة ثم يصير مطالبته بالعناد والمغالبة، قال: فأطرق الفضل بن الربيع ملياً، ثم قال: صدقتني الرأي، واحتملت ثقل الأمانة، ولكن أخبرني إن نحن أغمضنا عن قالة العامة ووجدنا مساعدين من أعواننا وأجنادنا، فما القول؟ قال: أصلحك الله، وهل أجنادك إلا من عامتك في أخذ بيعتهم وتمكن برهان الحق في قلوبهم، أفليسوا وإن أعطوك ظاهر طاعة هم مع ما تأكّد من وثائق العهد في معارفهم. قال: فإن أعطونا بذلك الطاعة، قال: لا طاعة دون أن تكون على تثبتٍ من البصائر. قال: نرغّبهم بتشريف حظوظهم. قال: إذن يصيروا إلى التقبّل، ثم إلى خذلانك عند حاجتك إلى مناصحتهم.

قال: فما ظنك بأجناد المأمون؟ قال: قوم على بصيرةٍ من أمرهم لتقدّم بيعتهم وما يتعاهدون من حظهم. قال: فما ظنك بعامتهم؟ قال: قوم كانوا في بلوى عظيمةٍ من حيف ولاتهم في أموالهم ثم في أنفسهم صاروا به إلى الأمنية في المال والرفاهة في المعيشة، فهم يدافعون عن نعمةٍ حادثةٍ لهم، ويتذكرون بليةً لا يأمنون العودة إليها. قال: فهل من سبيل إلى استفساد عظماء البلاد عليه لتكون محاربتنا إياه بالمكيدة من ناحيته، لا بالزخرف نحوه لمناجزته، قال: أما الضعفاء فقد صاروا له إلباً لما نالوا به من الأمان والنصفة، وأما ذوو القوة فلم يجدوا مطعناً ولا موضع حجةٍ، والضعفاء السواد الأكثر. قال: ما أراك أبقيت لنا موضع رأي في اعتزالك إلى أجنادنا، ولا تمكّن النظر في ناحيته باحتيالنا، ثم أشدّ من ذلك ما قلت به وهنة أجنادنا وقوة أجناده في مخالفته. وما تسخو نفس أمير المؤمنين بترك ما لا يعرف من حقه، ولا نفسي بالهدنة مع تقدّمٍ جرى في أمره، وربما أقبلت الأمور مشرفةً بالمخافة، ثم تكشف عنه الفُلْج والدرك في العاقبة. ثم تفرقا.

وكان الفضل بن الربيع أخذ بالمراصد لئلا تتجاوز الكتب الحدّ، فكتب الرسول مع امرأةٍ، وجعل الكتاب

وديعةً في عودٍ منقورٍ من أعواد الأكاف، وكتب إلى صاحب البريد بتعجيل الخبر، وكانت المرأة تمضي على المسالح كالمجتازة من القرية إلى القرية، لا تُهاج ولا تُفتّش. وجاء الخبر إلى المأمون موافقاً لسائر ما ورد عليه من الكتب، قد شهد بعضها ببعض، فقال للفضل بن سهل: هذه أمور قد كان الرأي أخبر عن عيبها ثم هذه طوالع تخبر عن أواخرها وكفانا أن نكون مع الحق، ولعل كرهاً يسوق خيراً.

وكان أول ما دبّره الفضل بن سهل بعد ترك الدعاء للمأمون وصحة الخبر به، أن جمع الأجناد التي كان أعدّها بجنبات الريّ مع أجنادٍ قد كان مكّنها فيها، وأجناد للقيام بأمرهم، وكانت البلاد أجدبت بحضرتهم، فأعدّ لهم من الحمولة ما يُحمل إليهم من كل فجٌ وسبيلٍ، حتى ما فقدوا شيئاً احتاجوا إليه، وأقاموا بالحدّ لا يتجاوزونه ولا يطلقون يداً بسوءٍ في عامدٍ ولا مجتازٍ، ثم أشخص طاهر بن الحسين فيمن ضمّ إليه من قواده وأجناده، فسار طاهر مُغذّاً لا يلوي على شيءٍ، حتى ورد الريّ، فنزلها ووكّل بأطرافها، ووضع مسالحه، وبثّ عيونه وطلائعه.

وجّه محمد الأمين إلى همذان عصمة بن حماد بن

سالم في ألف رجل، وولّاه حرب كور الجبال، وأمره بالمقام بهمذان، وأن يوجّه مقدمته إلى ساوة، واستخلف أخاه عبد الرحمٰن بن حماد بن سالم على الحرس. وجعل الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان يُلهّبان الأمين، ويبعثانه على خلع المأمون والبيعة لابنه موسى.

وعقد محمد الأمين في شهر ربيع الأول من سنة ١٩٤هـ لابنه موسى(١) على جميع ما استخلفه عليه، وجعل صاحب أمره كله علي بن عيسى بن ماهان، وعلى شُرَطه محمد بن عيسى بن نهيك، وعلى حرسه عثمان بن عيسى بن نهيك، وعلى خراجه عبد الله بن عبيدة، وعلى ديوان رسائله عليّ بن صالح صاحب المصلى. (مع العلم أن موسى بن الأمين لم يتجاوز السنة الرابعة من عمره فهو لا يزال طفلاً).

---

(١) موسى بن محمد الأمين بن هارون الرشيد: ولد سنة ١٩٠هـ، وقد تولّى أبوه الأمين الخلافة سنة ١٩٣هـ، وكان ولي عهده أخوه المأمون بعهدٍ من أبيهما الرشيد، غير أن الأمين خلع أخاه المأمون، وجعلها لابنه موسى، وهو طفل، وسمّاه «الناطق بالحق» فقامت الحرب بين الأخوين، وانتهت بقتل الأمين سنة ١٩٨هـ. وتسلّم المأمون الخلافة، ولم يتعرّض لابن أخيه موسى الذي عاش عند جدته زبيدة بنت جعفر أم أبيه الأمين حتى توفي سنة ٢٠٩، وعمره يومذاك تسعة عشر عاماً.

التباين والاختلاف:

أمر الخليفة محمد الأمين إسقاط ما كان ضُرب لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدراهم بخراسان سنة ١٩٤هـ، لأن المأمون كان قد أمر ألا يُثبت فيها اسم أخيه محمد الأمين، وكان يقال لتلك الدنانير والدراهم الرباعية. وكانت غير مقبولة مدةً.

نهى الخليفة محمد الأمين عن الدعاء على المنابر للمأمون والقاسم، وأمر بالدعاء له عليها ثم من بعده لابنه موسى (الطفل) وذلك في شهر صفر من سنة ١٩٥هـ. وكان قد فعل ذلك عن رأي الفضل بن الربيع. فلما بلغ ذلك المأمون أطلق على نفسه اسم «إمام الهدى».

عقد الخليفة محمد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان يوم الأربعاء لليلةٍ خلت من شهر ربيع الثاني على كور الجبل كلها: نهاوند، وهمذان، وأصفهان، وقُم، حربها وخراجها، وضمّ إليه جماعةٌ من القادة، وأمر له بمائتي ألف دينارٍ، ولولده بخمسين ألف دينارٍ، وأعطى الجند مالاً عظيماً، كما أمر له بألفي سيفٍ، وستة آلاف ثوبٍ للخِلَع.

أحضر محمد الأمين أهل بيته ومواليه وقادته

المقصورة بالشمّاسية يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ، فصلى الأمين الجمعة، ودخل، وجلس ابنه موسى في المحراب ومعه الفضل بن الربيع وجميع من أحضر، فقرأ عليهم الفضل بن الربيع كتاباً من الأمين يُعلمهم رأيه فيهم، وحقّه عليهم، وما سبق لهم من البيعة متقدّماً مفرداً بها، ولزوم ذلك لهم، وما أحدث المأمون من تسمية نفسه بالإمامة، والدعاء إلى نفسه، وقطع ذكر الأمين في دور طرز الثياب وسكّ النقود، وأن ما أحدث من ذلك ليس له، ولا ما يدّعي من الشروط التي شرطت له بجائزةٍ له، وحثّهم على طاعته، والتمسك ببيعته. وقام سعيد بن الفضل الخطيب بعد قراءة الكتاب، فعارض ما في الكتاب بتصديقه والقول بمثله. ثم تكلم الفضل بن الربيع وهو جالس، فبالغ في القول وأكثر، وذكر أنه لا حق لأحدٍ في الإمامة والخلافة إلا لأمير المؤمنين محمد الأمين، وأن الله لم يجعل لعبد الله المأمون ولا لغيره في ذلك حظاً له ولا نصيباً. فلم يتكلم أحد من أهل البيت العباسي ولا غيرهم بشيءٍ إلا محمد بن عيسى بن نهيك ونفر من وجوه الحرس. وقال الفضل بن الربيع في كلامه: إن الأمير موسى بن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معشر خراسان من صلب ماله بثلاثة آلاف ألف درهم

تقسم بينكم. ثم انصرف الناس. وأقبل علي بن عيسى على محمد الأمين يُخبره أن أهل خراسان كتبوا إليه يذكرون أنه إن خرج هو أطاعوه وانقادوا معه.

بدء النزال:

سار علي بن عيسى بن ماهان من بغداد يوم الجمعة لخمس عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ، فيما بين صلاة الجمعة وصلاة العصر إلى معسكره، فأقام فيه في زهاء أربعين ألفاً، وحمل معه قيد فضة ليُقيّد به المأمون ـ بزعمه ـ. وسار معه محمد الأمين إلى النهروان يوم الأحد لستٍّ بقين من جمادى الآخرة، فعرض بها الذين ضمّوا إلى علي بن عيسى، ثم أقام بقية يومه ذلك بالنهروان، ثم انصرف إلى بغداد، وأقام علي بن عيسى بالنهروان ثلاثة أيام، ثم شخص إلى ما وُجّه له مسرعاً حتى نزل همذان فولّى عليها عبد الله بن حميد بن قحطبة.

وكتب الأمين إلى عصمة بن حماد بالانصراف في خاصّة أصحابه وضمّ بقية العسكر وما فيه من الأموال وغير ذلك إلى علي بن عيسى بن ماهان.

وكتب الأمين أيضاً إلى أبي دلف القاسم بن عيسى

بالانضمام فيمن معه إلى علي بن عيسى بن ماهان، ووجّه معه هلال بن عبد الله الحضرمي، وأمر له بالفرض.

وعقد الأمين لعبد الرحمٰن بن جبلة الأبناوي على الدينور، وأمره بالسير في بقية أصحابه، ووجه معه ألفي ألف درهمٍ حُملت إليه قبل ذلك.

وسار علي بن عيسى بن ماهان من همذان يريد الريّ قبل ورود عبد الرحمٰن عليه، فسار حتى بلغ الريّ على تعبئة. فلقيه طاهر بن الحسين وهو في ثلاثة آلافٍ وثمانمائة رجلٍ. ولما تراءى الجمعان، قال طاهر بن الحسين: هذا لا قبل لنا به، ولكن أمر لا بدّ منه. وكان الكثير يتوقّع أن يتنازل طاهر بن الحسين لعلي بن عيسى بن ماهان للتفاوت الكبير بين القوتين.

قال طاهر بن الحسين[1] لأحمد بن هاشم وكان

---

(١) طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي، أبو الطيب، وأبو طلحة: ولد سنة ١٥٩هـ، وهو من كبار الوزراء والقادة، وأمثلهم أدباً وحكمةً وشجاعةً. وهو الذي وطّد الملك للمأمون، ولد في (بوشنج) من أعمال خراسان، وسكن بغداد، فاتصل بالمأمون في صباه، وكانت لأبيه منزلة عند الرشيد، ولّاه المأمون شرطة بغداد بعد أن قتل الأمين، ثم ولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب في السنة نفسها (١٩٨هـ)، ثم خراسان سنة ٢٠٥هـ. وكان في نفس المأمون =

على شرطه: أخرج أصحابنا، فدعاهم، فجعل المأموني على الميمنة، ومحمد بن صعب، والرستميّ على الميسرة.

وكان علي بن عيسى بن ماهان قد جعل على ميمنته الحسين بن علي ومعه أبو دُلُف القاسم بن عيسى بن إدريس، وعلى ميسرته عصمة بن حماد ومعه هلال بن عبد الله الحضرميّ.

القتال:

كرّ علي بن عيسى بن ماهان بقواته على قوات طاهر بن الحسين فدحرها. فقيل لطاهر: نُذكّر علي بن عيسى بن ماهان البيعة التي كانت، والبيعة التي أخذها للمأمون خاصةً على معاشر أهل خراسان، فقال طاهر: نعم، فعُلّقت على رمحين، وقام أحمد بن هشام بين الصفين، وقال: الأمان، لا ترمونا ولا نرميكم، فقال ابن ماهان: ذلك لك، فقال أحمد: يا علي بن عيسى،

= شيء عليه لأنه قتل أخاه الأمين دون مشورته، ولعله شعر بذلك، فلما ولي خراسان قطع خطبة المأمون يوم جمعة فقتله أحد غلمانه في تلك الليلة بمرو، وقيل: مات مسموماً وذلك سنة ٢٠٧هـ. وكان المأمون قد لقّبه بـ(ذو اليمينين) لأنه ولي العراق وخراسان، وكان أعور.

ألا تتقي الله، أليس هذه نسخة البيعة التي أخذتها أنت خاصةً! اتق الله فقد بلغت باب قبرك. فقال: من أنت؟ قال: أحمد بن هشام. فصاح علي بن عيسى: يا أهل خراسان، من جاء به فله ألف درهم. قال أحمد: وكان معنا قوم بخارية، فرموه، وقالوا: نقتلك ونأخذ مالك. وخرج من عسكره العباس بن الليث مولى المهدي، وخرج رجل يقال له: حاتم، فشدّ عليه طاهر، وشدّ يديه على مقبض السيف، فضربه فصرعه وقتله، وشدّ داود سياه على علي بن عيسى فصرعه، وهو لا يعرفه فشدّ عليه أحدهم بالسيف فذبحه، فانهزمت قواته، وتابعهم طاهر بن الحسين فوقفوا له اثنتي عشر مرةً وكانوا يُهزمون في كل مرةٍ.

وصل خبر النصر إلى المأمون فأمر بإحضار أهل بيته والقادة ووجوه الناس، فدخلوا فسلّموا عليه بالخلافة. ولما انتهى الخبر بقتل علي بن عيسى بن ماهان إلى الخليفة محمد الأمين وإلى الفضل بن الربيع، بعث الخليفة إلى نوفل خادم المأمون ـ وكان وكيل المأمون ببغداد وخازنه، وقيّمه في أهله وولده وضياعه وأمواله ـ فأخذ منه الألف ألف درهم التي كان الرشيد وصل بها المأمون، وقبض ضياعه وغلّاته بالسواد،

وولّى عمالاً عليها من قبله. ووجّه عبد الرحمٰن الأبناوي بالقوة والعدّة فنزل همذان.

سار عبد الرحمٰن بن جبلة الأبناوي في عشرين ألفاً، وحمل معه الأموال، وأمدّه الأمين بالسلاح والخيل، وأجازه بجوائز وولّاه حلوان إلى ما غلب عليه من أرض خراسان، وندب معه الفرسان وأهل البأس والنجدة، وأمره أن يُسرع حتى ينزل مدينة همذان فيسبق طاهر بن الحسين إليها، ويخندق عليه وعلى أصحابه، ويجمع إليه آلة الحرب. وبسط يده، وأنفذ أمره في كل ما يريد العمل به. فتوجّه عبد الرحمٰن حتى نزل همذان، فضبط طرقها، وحصّن سورها وأبوابها، وسدّ ثَلْمها، وحشر إليها الأسواق والصنّاع، وجمع فيها المواد الغذائية، واستعدّ للقاء طاهر ومحاربته. وكان يحيى بن علي بن عيسى بن ماهان لما قُتل أبوه هرب في جماعةٍ من أصحابه، فأقام بين الري وهمذان، فكان لا يمرّ به أحد من فَلّ أبيه إلا احتبسه، وكان يرى أن محمد الأمين سيولّيه مكان أبيه، وسيوجّه إليه الخيل والرجال، فأراد أن يجتمع الفلول إلى أن يوافيه القوة والمدد، وكتب إلى الأمين يستمدّه ويستنجده، فكتب إليه الأمين يعلمه توجيه عبد الرحمٰن الأبناوي، ويأمره

بالمقام موضعه، وتلقّي طاهر بمن معه، وإن احتاج إلى قوةٍ ورجالٍ كتب إلى عبد الرحمٰن فقوّاه وأعانه.

فلما بلغ طاهر أمر عبد الرحمٰن الأبناوي توجّه نحوه، فلما اقترب من يحيى، قال يحيى لأصحابه: إن طاهراً قد اقترب منا ومعه ممن تعرفون من رجال خراسان وفرسانها، وهو صاحبكم بالأمس، ولا آمن إن لقيته بمن معي من هذا الفلّ أن يصدعنا صدعاً يدخل وهنه على مَنْ خلفنا، وأن يعتلّ عبد الرحمٰن بذلك، ويُقلّدني به العار والوهن والعجز عند أمير المؤمنين، وإن استنجدت به وأقمت على انتظار مدده، لم آمن أن يمسك عنا ضنّاً برجاله وإبقاءً عليهم، وشُحّاً بهم على القتل، ولكن نزحف إلى مدينة همذان فنعسكر قريباً من عبد الرحمٰن، فإن استعنا به قرُب منا عونه، وإن احتاج إلينا أعناه وكنا بفنائه، وقاتلنا معه، قالوا: الرأي ما رأيت، فانصرف يحيى فلما قرب من مدينة همذان خذله أصحابه، وتفرّق عنه أكثر من كان اجتمع إليه، وقصد طاهر لمدينة همذان، فأشرف عليها، ونادى عبد الرحمٰن في أصحابه، فخرج على تعبئةٍ، فالتقى مع طاهر، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر الفريقان جميعاً، وكثر القتلى والجرحى فيهم، ثم إن عبد الرحمٰن انهزم،

فدخل مدينة همذان فأقام بها أياماً حتى قوي أصحابه، واندملت جراحهم، ثم أمر بالاستعداد، وزحف إلى طاهر، فلما رأى طاهر أعلامه وأوائل أصحابه قد طلعوا، قال لأصحابه: إن عبد الرحمٰن يريد أن يتراءى لكم، فإذا قربتم منه قاتلكم، فإن هزمتموه بادر إلى المدينة فدخلها، وقاتلكم على خندقها، وامتنع بأبوابها وسورها، وإن هزمكم اتسع لهم المجال عليكم وأمكنته سعة المعترك من قتالكم، وقتل من انهزم وولّى منكم، ولكن قفوا من خندقنا وعسكرنا قريباً، فإن تقارب منا قاتلناه، وإن بعُد من خندقهم قرُبنا منه. فوقف طاهر مكانه، وظنّ عبد الرحمٰن أن الهيبة بطّأت به من لقائه والنهود إليه، فبادر قتاله فاقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر طاهر، وأكثر القتل في أصحاب عبد الرحمٰن، وجعل عبد الرحمٰن يقول لأصحابه: يا معشر الأبناء، يا أبناء الملوك وألفاف السيوف، إنهم العجم، وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر، فاصبروا لهم فداكم أبي وأمي، وجعل يمرّ على رايةٍ راية، فيقول: اصبروا، إنما صبرنا ساعة، هذا أول الصبر والظفر. وقاتل بيديه قتالاً شديداً، وحمل حملاتٍ منكرةً ما منها حملة إلا وهو يكثر في أصحاب طاهر القتل، فلا يزول أحد ولا يتزحزح. ثم إن رجلاً من أصحاب طاهر حمل على

صاحب عَلَم عبد الرحمٰن فقتله، وزحمهم أصحاب طاهر زحمةً شديدةً، فولّوهم أكتافهم، فوضعوا فيهم السيوف، فلم يزالوا يقاتلونهم حتى انتهوا بهم إلى باب مدينة همذان، فأقام طاهر على باب المدينة محاصراً لهم، فكان عبد الرحمٰن يخرج في كل يومٍ فيقاتل على أبواب المدينة، ويرمي أصحابه بالحجارة من فوق السور على خصومهم، واشتدّ بهم الحصار، وتأذّى بهم أهل همذان، وتبرّموا بالقتال والحرب، وقطع طاهر عنهم المادة من كل وجهٍ، فلما رأى عبد الرحمٰن، ورأى أصحابه أنهم قد هلكوا وجهدوا، وتخوّف أن يثب به أهل مدينة همذان أرسل إلى طاهر فسأله الأمان له ولمن معه، فآمنه طاهر ووفّى له، واعتزل عبد الرحمٰن فيمن كان استأمن معه من أصحابه وأصحاب يحيى بن عليّ.

طرد عمال الأمين من منطقة الجبال وقزوين:

لما توجّه طاهر بن الحسين إلى عبد الرحمٰن بن جبلة الأبناوي في مدينة همذان تخوّف أن يثب عليه عامل الأمين بقزوين وهو كثير بن قادرة ويأتي من خلفه بجيشٍ كثيفٍ، فلما اقترب طاهر من همذان أمر أصحابه بالنزول فنزلوا، ثم ركب في ألف فارسٍ وألف

راجلٍ، وقصد كثير بن قادرة، فلما اقترب منه هرب كثير وأصحابه، وأخلى قزوين، فجعل طاهر فيها جنداً من أتباعه، وولّاها رجلاً من أصحابه، وأمره أن يحارب من أراد دخولها من أصحاب عبد الرحمٰن الأبناوي أو غيرهم، وكذا فعل بكور الجبال بعد أن دخلها وانتصر على عبد الرحمٰن الأبناوي.

مقتل عبد الرحمٰن الأبناوي:

لما وجّه الخليفة محمد الأمين عبد الرحمٰن بن جبلة الأبناوي إلى همذان، أتبعه بابنيْ الحرشي: عبد الله، وأحمد، في خيلٍ عظيمةٍ من أهل بغداد، وأمرهما أن يسمعا ويطيعا لعبد الرحمٰن، ويكونا مدداً له إن احتاج إلى عونهما، فلما خرج عبد الرحمٰن إلى طاهر بالأمان أقام عبد الرحمٰن يُري طاهراً وأصحابه أنه له مسالم، راضٍ بعهودهم وأمانهم، ثم اغترّهم وهم آمنون، فركب في أصحابه وسار إليهم، فلم يشعر طاهر وأصحابه حتى هجموا عليهم، ووضعوا فيهم السيوف، فثبت لهم رجّالة طاهر ورُماته، وجثوا على الركب، فقاتلوه كأشدّ ما يكون من القتال، ودافعهم الرجّالة إلى أن أخذت الفرسان عدّتها وأهبتها، وصدقوهم القتال، فاقتتلوا قتالاً منكراً حتى تقطّعت السيوف، وتقصّفت

الرماح ثم إن أصحاب عبد الرحمٰن هربوا، وترجّل هو في ناسٍ من أصحابه، فقاتل حتى قُتل، فكان أصحابه يقولون له: قد أمكنك الهرب فاهرب، فإن القوم قد ملّوا من القتال، وأتعبتهم الحرب، وليس بهم حراك ولا قوة على الطلب، فيقول: لا أرجع أبداً، ولا يرى أمير المؤمنين وجهي منهزماً، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة، واستبيح عسكره، وانتهى من أفلت من أصحابه إلى عسكر عبد الله وأحمد ابنيْ الحرشي فدخلهم الوهن والفشل، وامتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً فولّوا منهزمين لا يلوون على شيءٍ من غير أن يلقاهم أحد، حتى صاروا إلى بغداد، وأقبل طاهر، وقد خلت له البلاد، فصار يحوز بلدةً بلدةً، وكورةً كورةً حتى نزل بقريةٍ من قرى حلوان يقال لها شلاشان، فخندق بها، وحصّن عسكره، وجمع إليه أصحابه.

وقال رجل الأبناء يرثي عبد الرحمٰن بن جبلة الأبناوي:

ألا إنما تبكي العيون لفارسٍ
نفى العار عنه بالمناصل والقنا
تجلّى غبار الموت عن صحن وجهه
وقد أحرز العَليا من المجد واقتنا

فتىً لا يبالي إن دنا من مروءةٍ

أصاب مصون النفس أو ضيّع الغنى

يُقيم لأطراف الذوابل سوقَها

ولا يرهب الموت المتاح إذا دنا

بعث الجيوش لقتال طاهر بن الحسين:

أخذ الخليفة محمد الأمين يُجهّز الجيوش لقتال طاهر بن الحسين قائد عبد الله المأمون. وقد وقع الاختيار على أسد بن يزيد بن مزيد، فسار إليه الفضل بن الربيع، فقال له: يا أبا الحارث أنت فارس العرب وابن فارسها، وقد فزع إليك الخليفة في لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قِبَلك أمران، أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك، والثاني يُمْنُ نقيبتك وشدّة بأسك، وقد أمرني إزاحة علّتك وبسط يدك فيما أحببت، غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ومفتاح اليمن والبركة، فأنجز حوائجك، وعجّل المبادرة إلى عدوّك، فأرجو أن يوليك الله شرف هذا الفتح، ويلمّ بك شعث هذه الخلافة والدولة، فقال أسد: أنا لطاعة أمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ وطاعتك مقدم، ولكل ما أدخل الوهن والذل على عدوّه وعدوّك حريص، غير أن المحارب لا يعمل بالغرور، ولا يفتتح أمره بالتقصير والخلل، وإنما ملاك

المحارب الجنود، وملاك الجنود المال، وقد ملأ أمير المؤمنين ـ أعزّه الله ـ أيدي من شهد العسكر من جنوده، وتابع لهم الأرزاق الدارّة والصلات والفوائد الجزيلة، فإن سرت بأصحابي وقلوبهم متطلعة إلى من خلفهم من إخوانهم لم أنتفع بهم في لقاء من أمامي، وقد فُضّل أهل السلم على أهل الحرب، وجاز بأهل الدعة منازل أهل النصب والمشقة، والذي أسأل أن يؤمر لأصحابي برزق سنةٍ، ويحمل معهم أرزاق سنةٍ، ويخصّ من لا خاصّة له منهم من أهل الغَناء والبلاء، وأُبْدِل من فيهم من الزمنى والضعفاء، وأحمل ألف رجلٍ ممن معي على الخيل، ولا أُسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدن والكور. فقال: قد اشتططت، ولا بُدّ من مناظرة أمير المؤمنين، ثم ركب الفضل وركب أسد معه، ودخل الفضل على الخليفة ثم أُذِن لأسدٍ فدخل، فما كان بين الخليفة وأسد سوى كلمتين حتى غضب الخليفة وأمر بسجن أسدٍ.

وذُكر أن أسداً قال للخليفة الأمين: ادفع إليّ ولديْ عبد الله المأمون حتى يكونا أسيرين في يدي، فإن أعطاني الطاعة، وألقى إليَّ بيده، وإلا عملت فيهما بحكمي، وأنفذت فيهما أمري. فقال الأمين: أنت

أعرابي مجنون، أدعوك إلى ولاء أعنّة العرب والعجم، وأطعمك خراج كور الجبال إلى خراسان، وأرفع منزلتك عن نظرائك من أبناء القادة والملوك، وتدعونني إلى قتل ولدي، وسفك دماء أهل بيتي! إن هذا للْخُرق والتخليط، وكان ببغداد ابنان لعبد الله المأمون، وهما مع أمهما أم موسى ابنة عمه موسى الهادي، نزولاً في قصر المأمون ببغداد، فلما ظفر المأمون ببغداد خرجا إليه مع أمهما إلى خراسان، فلم يزالا بها حتى قدموا بغداد، وهما أكبر ولده.

لما غضب الخليفة الأمين على أسد بن يزيد، وأمر بحبسه، قال: هل في أهل بيت هذا من يقوم مقامه، فإني أكره أن أستفسدهم مع سابقتهم، وما تقدّم من طاعتهم ونصيحتهم؟ قالوا: نعم، فيهم أحمد بن مزيد، وهو أحسنهم طريقةً، وأصحّهم نيّةً في الطاعة، وله مع هذا بأس ونجدة، وبصر بسياسة الجنود ولقاء الحروب، فأنفذ إليه الخليفة الأمين بريداً يأمره بالقدوم عليه. قيل: كان أحمد متوجّهاً إلى قرية تُدعى «إسحاقية»، ومعه نفر من أهل بيته ومواليه وحشمه، فلما جاوز نهر «أبان» سمع صوت بريدٍ في جوف الليل، فقال: إن هذا لعجيب، بريد في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا

الموضع، إن هذا الأمر لعجيب. ثم لم يلبث البريد أن وقف، ونادى الملّاح: هل معك أحمد بن مزيد؟ قال: نعم، فنزل فدفع إليه كتاب الأمين، فقرأه ثم قال: إني قد بلغت ضيعتي، وإنما بيني وبينها ميل، فدعني أقعها وقعة فآمر فيها بما أريد، ثم أغدو معك، فقال: لا، إن أمير المؤمنين أمرني ألا أُنظرك ولا أُرفّهك، وأن أشخصك أي ساعةٍ صادفتك فيها، من ليلٍ أو نهارٍ. فانصرف معه حتى أتى الكوفة، فأقام بها يوماً حتى تجمّل وأخذ أهبة السفر، ثم مضى إلى الأمين.

قال أحمد بن مزيد: لما دخلت بغداد، بدأت بالفضل بن الربيع، فقلت: أُسلّم عليه، وأستعين بمنزلته ومحضره عند الأمين، فلما أذن لي دخلت عليه، إذا عنده عبد الله بن حميد بن قحطبة، وهو يريده على الخروج إلى طاهر بن الحسين، وعبد الله يشتطّ عليه في طلب المال والإكثار من الرجال، فلما رآني رحّب بي وأخذ بيدي، ورفعني حتى صيّرني معه على صدر المجلس، وأقبل على عبد الله يُداعبه ويُمازحه، فتبسّم في وجهه ثم قال:

إنا وجدنا إن رثّ حبلكم
من آل شيبان أمّاً دونكم وأبا

الأكثرون إذا عُدّ الحصى عدداً

والأقربون إلينا منكم نسبا

فقال عبد الله: إنهم لكذلك، وإن منهم لسدّ الخلل ونكأ العدو، ودفع معرّة أهل المعصية عن أهل الطاعة. ثم أقبل عليّ الفضل، فقال: إن أمير المؤمنين أجرى ذكرك، فوصفتك له بحسن الطاعة، وفضل النصيحة، والشدّة على أهل المعصية، والتقدّم بالرأي، فأحبّ اصطناعك والتنويه باسمك، وأن يرفعك إلى منزلةٍ لم يبلغها أحد من أهل بيتك. والتفت إلى خادمه فقال: يا سرّاج، مُر دوابي، فلم يلبث أن أسرج له، فمضى ومضيت معه، حتى دخلنا على محمد الأمين وهو في صحن داره، له ساج، فلم يزل يأمرني بالدنو حتى كدت ألاصقه، فقال: إنه قد كثر عليّ تخليط ابن أخيك (أسد بن يزيد) وتنكّره، وطال خلافه عليّ حتى أوحشني ذلك منه، وولّد في قلبي التهمة له، وصيّرني لسوء المذهب وخبث الطاعة إلى أن تناولتُه من الأدب والحبس بما لم أحبّ أن أكون أتناوله به، وقد وُصفتَ لي بخيرٍ، ونُسبت إلى جميلٍ، فأحببت أن أرفع قدرك، وأعلي منزلتك، وأقدّمك على أهل بيتك، وأن أولّيك جهاد هذه الفئة الباغية الناكثة، وأعرّضك للأجر

والثواب في قتالهم ولقائهم، فانظر كيف تكون، وصحّح نيّتك، وأعِن أمير المؤمنين على اصطناعك، وسُرّه في عدوّه ينعم سرورك وتشريفك. فقلت: سأبذل في طاعة أمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ مهجتي، وأبلغ في جهاد عدوّه أفضل ما أمّله عندي، ورجاه من غَنائي وكفايتي ـ إن شاء الله ـ فقال: يا فضل، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: ادفع إليه دفاتر أصحاب أسد، واضمم إليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والأعراب، وقال: اكمش على أمرك، وعجّل المسير إليه. فخرجت فانتخبت الرجال، واعترضت الدفاتر، فبلغت عدّة من صححت اسمه عشرين ألف رجلٍ، ثم توجّهت بهم إلى حلوان.

وذُكر أن أحمد بن مزيد لما أراد الشخوص دخل على الخليفة محمد الأمين، فقال: أوصني ـ أكرم الله أمير المؤمنين ـ، فقال: أوصيك بخصالٍ عدةٍ: إياك والبغي فإنه عقال النصر، ولا تُقدّم رجلاً إلا باستخارةٍ، ولا تُشهر سيفاً إلا بعد إعذارٍ، ومهما قَدَرت باللين فلا تتعداه إلى الخُرْق والشدّة، وأحسن صحابة من معك من الجند، وطالعني بأخبارك في كل يومٍ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندي، ولا تستبقها فيما تتخوّف رجوعه عليّ، وكن لعبد الله أخاً مصافياً، وقريناً برّاً،

وأحسن مجامعته وصحبته ومعاشرته، ولا تخذله إن استنصرك، ولا تُبطئ عنه إذا استصرخك، ولتكن أيديكما واحدةً، وكلمتكما متفقةً، ثم قال: سل حوائجك، وعجّل السراح إلى عدوّك. فدعا له أحمد، وقال: يا أمير المؤمنين، كثّر لي الدعاء، ولا تقبل فيّ قول باغٍ، ولا ترفضني قبل المعرفة، بموضع قدمي لك، ولا تنقض عليّ ما استجمع من رأيٍ، ومُن عليّ بالصفح عن ابن أخي، قال: ذلك لك. ثم بعث إلى أسد بن يزيد فحلّ قيوده، وخلّى سبيله. فقال أبو الأسد الشيباني في ذلك يمدح أحمد ويذكر حاله ومنزلته:

ليَهْنِ أبا العباس رأيُ إمامه
وما عنده منه القضا بمزيد
دعاة أمير المؤمنين إلى التي
يُقصِّر عنها ظلُّ كلِّ عميد
فبادرها بالرأي والحزم والحجى
ورأي أبي العباس رأي سديد
نهضت بما أعيا الرجال بحمله
وأنت بسعدٍ حاضرٍ وسعيد
رددت بها للرائدين أعزّهم
ومثلك والى طريفاً بتليد

كفى أسداً ضيقَ الكبول وكربَها

وكـان عـليـه عـاطـفـاً كـيـزيـد

وحصّله فيها كليثٍ غضنفرٍ

أبي أشبُلٍ عبْلِ الذراع مديد

وجّه الخليفة الأمين للقتال أحمد بن مزيد في عشرين ألف رجلٍ من الأعراب، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألف رجلٍ من الأبناء، وأمرهما أن ينزلا حُلوان، ويدفعا طاهراً وأصحابه عنها، وإن أقام طاهر بـ(شلاشان) أن يتوجّها إليه في أصحابهما حتى يرفعاه، وينصبا له الحرب، وتقدّم إليهما في اجتماع الكلمة والتوادّ والتحابّ على الطاعة، فتوجّها حتى نزلا قريباً من حلوان بموضع يقال له «خانقين»، وأقام طاهر بموضعه، وخندق عليه وعلى أصحابه، ودسّ الجواسيس والعيون إلى عسكريهما، فكانوا يأتونهم بالأراجيف، ويخبرونهم أن الأمين قد وضع العطاء لأصحابه، وقد أمر لهم من الأرزاق بكذا وكذا، ولم يزل يحتال في وقوع الاختلاف والشغب بينهم حتى اختلفوا، وانتقض أمرهم، وقاتل بعضهم بعضاً، فأخلوا «خانقين»، ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهراً، ويكون بينهم وبينه قتال، وتقدّم طاهر حتى نزل «حُلوان». فلما دخل طاهر حلوان

لم يلبث إلا يسيراً حتى أتاه هرثمة بن أعين بكتاب المأمون والفضل بن سهل، يأمرانه بتسليم ما حوى من المدن والكور إليه، والتوجّه إلى الأهواز، فسلّم ذلك إليه، وأقام هرثمة بـ«حُلوان» فحصّنها ووضع مسالحه ومراصده في طرقها وجبالها وتوجّه طاهر إلى الأهواز.

عبد الملك بن صالح:

ولّى الخليفة الأمين على الشام سنة ١٩٦هـ عبد الملك بن صالح بن علي[1]، وأمره بالخروج إليها، وفرض له من رجالها جنوداً يقاتل بهم طاهراً وهرثمة، وذلك أن عبد الملك بن صالح كان مسجوناً في حبس هارون الرشيد، فلما توفي الرشيد، وأفضى الأمر إلى ابنه محمد الأمين أمر بتخلية سبيل عبد الملك وذلك في شهر ذي القعدة سنة ١٩٣هـ. فكان عبد الملك يشكر ذلك

(١) عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس: أمير من بني العباس، ولّاه موسى الهادي إمرة الموصل سنة ١٦٩هـ. وعزله الرشيد سنة ١٧١هـ، ثم ولّاه المدينة والصوائف، وولّاه مصر مدةً قصيرةً، فلم يذهب إليها، وولّاه دمشق فأقام فيها أقلّ من سنة، وبلغه أنه يطلب الخلافة، فحبسه ببغداد سنة ١٨٧هـ، ولما مات الرشيد أطلقه الأمين، وولّاه الشام والجزيرة، فأقام بالرقة أميراً إلى أن توفي سنة ١٩٦هـ.

لمحمد الأمين، ويوجب به على نفسه طاعته ونصيحته، فدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إني أرى الناس قد طمعوا فيك وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك، وقد بذلت سماحتك، فإن أتممت على أمرك أفسدتم وأبطرتهم، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم، وليس تملك الجنود بالإمساك، ولا يبقى ثبوت الأموال على الإنفاق والسرف، ومع هذا فإن جندك قد رعبتهم الهزائم، وأنهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع، وامتلأت قلوبهم هيبةً لعدوّهم، ونكولاً عن لقائهم ومناهضتهم، فإن سيّرتهم إلى طاهر غلب بقليل من معه كثيرَهم، وهزم بقوة نيّته ضعف نصائحهم ونيّاتهم، وأهل الشام ضرّستهم الحروب، وأدّبتهم الشدائد، وجلّهم منقاد إليَّ، مسارع إلى طاعتي، فإن وجّهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً تعظم نكايتهم في عدوّه، ويُؤيّد الله بهم أولياءه وأهل طاعته. فقال الأمين: إني مولّيك أمرهم، ومقوّيك بما سألت من مالٍ وعُدَّةٍ، فعجّل الشخوص إلى ما هنالك، فاعمل عملاً يظهر أثره، وتُحمد بركته برأيك ونظرك فيه ـ إن شاء الله ـ. فولّاه الشام والجزيرة، واستحثّه بالخروج استحثاثاً شديداً، ووجّه معه كنَفاً من الجند والأبناء.

سار عبد الملك بن صالح إلى الشام، فلما بلغ الرقة أقام بها، وأنفذ رسله، وكتب إلى رؤساء أجناد

الشام ووجوه الجزيرة، فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعدّه، وبسط له في أمله وأمنيته، فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس، وجماعةً بعد جماعةٍ، فكان لا يدخل عليه أحد إلا أجازه، وخلع عليه وحمله، فأتاه أهل الشام: الزواقيل[1] والأعراب من كل فجٍ، واجتمعوا عنده حتى كثروا، ثم إنهم اختلفوا فيما بينهم وقاتل بعضهم بعضاً بضراوةٍ، ثم افترقوا، ومات عبد الملك بن صالح في هذه المدة.

خلع الأمين واعتقاله:

بعد أن افترقت الجموع من الجزيرة، وسارت كل جماعةٍ إلى جهةٍ كان الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ممن سار إلى بغداد مع بعض أتباعه وأكثرهم من خراسان وذلك في شهر رجب من سنة ١٩٦هـ، فاستقبل في بغداد استقبالاً كبيراً من القادة والأعيان، ودخل منزله في كرامةٍ وأحسن هيئةٍ.

أرسل الخليفة الأمين إلى الحسين بن علي بن عيسى يأمره بالركوب إليه في جوف الليل فقال للرسول: لأيّ شيءٍ يريدني في هذه الساعة، انصرف، فإذا

---

(١) الزواقيل: قوم يقيمون في ناحية من الجزيرة الفراتية.

أصبحت غدوت إليه ـ إن شاء الله ـ. فانصرف الرسول.

وأصبح الحسين فسار نحو قصر الخلد، فاجتمع حوله فقال: يا معشر الأبناء، إن خلافة الله لا تجاور بالبطر، ونِعَمَهُ لا تُستصحَب بالتجبّر والتكبّر، وإن محمد الأمين يريد أن يوتغ[1] دينكم، وينكث بيعتكم، ويفرّق جمعكم، وينقل عزّكم إلى غيركم، وهو صاحب الزواقيل بالأمس، وبالله إن طالت به مدة وراجعه في أمره قوة، ليرجعن وبال ذلك عليكم، وليعرَفَنّ ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم، وضعوا عزّه قبل أن يضع عزّكم، فوالله لا ينصره منكم ناصر إلا خُذل، ولا يمنعه مانع إلا قُتل، وما عند الله لأحدٍ هوادة، ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه.

أسرعت خيول من خيول الخليفة من الأعراب وغيرهم إلى الحسين بن علي بن عيسى فاقتتلوا قتالاً شديداً مليّاً من النهار، وأمر الحسين من كان معه من قواده وخاصةً أصحابه بالنزول فنزلوا إليهم بالسيوف والرماح، وصدقوهم القتال، وكشفوهم حتى تفرّقوا عن باب قصر الخلد.

خلع الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان الخليفة الأمين يوم الأحد لإحدى عشرة ليلةً خلت من شهر

(١) يوتغ: يُفسد.

رجب سنة ١٩٦هـ، وأخذ البيعة للمأمون من غد يوم الاثنين إلى الليل، ودخل العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي على قصر الخلد، وأخرج منه الأمين، وأُخذ إلى قصر أبي جعفر حيث سجنه فيه.

طلب الناس من الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان الأرزاق وعمّت الفوضى، وساد الهرج، وكل يدلي بالكلام الذي يراه. فقام أسد الحربي، فقال: يا معشر الحربية، هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نمتم وطال نومكم، وتأخّرتم فقُدِّم عليكم غيركم، وقد ذهب أقوام بذكر خلع الأمين وأسره فاذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه.

فأقبل شيخ كبير من الأبناء على فرس، فصاح بالناس: اسكتوا، فسكتوا، فقال: أيها الناس، هل تعتدون على الأمين بقطع منه لأرزاقكم؟ قالوا: لا، قال: فهل قصّر بأحدٍ منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم؟ قالوا: ما علمنا، قال: فهل عزل أحداً من قوادكم؟ قالوا: معاذ الله أن يكون فعل ذلك، قال: فما بالكم خذلتموه وأعنتم عدوّه على اضطهاده وأسره، أما والله ما قتل قوم خليفتهم قطّ إلا سلّط الله عليهم السيف القاتل، والحتف الجارف، انهضوا إلى خليفتكم وادفعوا عنه، وقاتلوا من أراد خلعه والفتك به. ونهضت

الحربية، ونهض معهم عامة أهل الأرباض فقاتلوا الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان وأصحابه قتالاً شديداً منذ ارتفاع النهار إلى انكسار الشمس، وأكثروا في أصحابه الجراح، وأُسر صاحبهم ابن ماهان، ودخل أسد الحربي على سجن الأمين، فكسر قيوده، وأقعده في مجلس الخلافة، ونظر الأمين إلى قوم ليس عليهم لباس الحرب والجند، ولا عليهم سلاح، فأمرهم فأخذوا من السلاح الذي في الخزائن حاجتهم ووعدهم ومنّاهم، فانتهب الغوغاء بذلك سلاحاً كثيراً ومتاعاً من خزٍّ وغير ذلك، وأُتي بالحسين بن علي بن عيسى بن ماهان فلامه الأمين على خلافه، وقال له: ألم أقدّم أباك على الناس، وأولّه أعنّة الخيل، وأملأ يده من الأموال، وأُشرّف أقداركم في أهل خراسان، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد، قال: بلى، قال: فما الذي استحققت به منك أن تخلع طاعتي، وتُؤلّب الناس عليّ، وتندبهم إلى قتالي، قال: الثقة بعفو أمير المؤمنين، وحسن الظنّ بصفحه وتفضّله[1]. قال: فإن

---

(١) كان ما فعله أبوه علي بن عيسى بإظهار التأييد للأمين، وما فعله هو من خلافٍ، وخلع الطاعة ضمن سياسةٍ مخططٍ لها بعيدة الأهداف، خطيرة الأبعاد.

أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك، وولّاك الطلب بثأرك، ومن قُتل من أهل بيتك. ثم دعا بخِلعةٍ فخلعها عليه، وحمله على مراكب، وأمره بالمسير إلى حُلوان، وولّاه ما وراء بابه.

سار ابن ماهان نحو حُلوان فلما وصل إلى الجسر ترك من معه وهرب في نفرٍ من خدمه ومواليه، فنادى الخليفة بالناس، فركبوا في طلبه، فأدركوه بمسجد «كوثر» فلما بصر بالخيل نزل وقيّد فرسه، وأظهر التقى وبدأ بالصلاة، ثم لقيهم فحمل عليهم، وأبدى شجاعةً فكان يقتل منهم ويهزمهم، ثم عثر به فرسه فسقط، وابتدره الناس طعناً وضرباً حتى قُتل، وكان ذلك في يوم الخميس منتصف رجب سنة ١٩٦هـ، على فرسخ من بغداد. جدّدت البيعة للأمين يوم الجمعة ١٦ رجب سنة ١٩٦هـ. وكان سجنه في قصر أبي جعفر مدة يومين اثنين.

وهرب الفضل بن الربيع من بغداد في الليلة التي قتل فيها ابن ماهان.

سيطرة طاهر بن الحسين على الأهواز:

لمّا أُمر طاهر بن الحسين بالمسير إلى الأهواز، وجّه أمامه الحسين بن عمر الرستميّ، وأمره أن يسير

سيراً مقتصداً، ولا يسير إلا بطلائع، ولا ينزل إلا في موضعٍ يأمن فيه على أصحابه. وما أن انطلق حتى أتت الأخبار إلى طاهر عن طريق عيونه أن عامل الأمين على الأهواز محمد بن يزيد المهلبي قد توجّه في جمعٍ عظيمٍ يريد نزول مدينة «جنديسابور» على أطراف الأهواز بينها وبين كور الجبال، وذلك ليحمي الأهواز، ويمنع من أراد دخولها من أصحاب طاهر، وإنه في عدّةٍ وقوّةٍ، فدعا طاهر عدداً من أصحابه وأمرهم أن يغذّوا السير حتى يتصل أولهم بآخر أصحاب الحسين بن عمر الرستميّ، فإن احتاج إلى مددٍ أمدّوه، أو لقيه جيش كانوا ظهراً له، فتوجّهوا، فلم يلقهم أحد حتى شارفوا الأهواز.

وبلغ محمد بن يزيد المهلبي خبرهم، فعرض أصحابه وقوّى ضعفاءهم، وحمل الرجّالة على البغال، وصيّر العمران والماء وراء ظهره. وتخوّف طاهر على أصحابه فأمدّهم بقوةٍ، وسار هو بنفسه حتى كان قريباً منهم. واقترب الطرفان بعضهما من بعضٍ، فجمع محمد بن يزيد المهلبي أصحابه فقال: ما ترون؟ أطاول القوم القتال وأماطلهم اللقاء، أم أناجزهم كانت لي أم عليّ؟ فقالوا له: الرأي أن ترجع إلى الأهواز فتتحصّن

بها وتغادي طاهراً القتال، وتبعث إلى البصرة فتفرض بها الفروض، وتستجيش من قدرت عليه وتابعك من قومك. فقبل ما أشاروا عليه، وتابعه قومه، فرجع حتى صار بسوق الأهواز. فأمر طاهر أن يتبعه قريش بن شبل، ومضى قريش بن شبل يقفو محمد بن يزيد كلما ارتحل محمد بن يزيد من قريةٍ نزلها قريش حتى صاروا إلى سوق الأهواز.

وسبق محمد بن يزيد إلى المدينة فدخلها، واستند إلى العمران، فصيّره وراء ظهره، وعبأ أصحابه، وعزم على القتال، واشتبك الفريقان بقتالٍ شديدٍ ثم تباعدا بعضهما عن بعضٍ، وقال محمد بن يزيد لمواليه: إني أرى من معي قد انهزم، ولست آمن من خذلانهم، ولا آمل رجعتهم، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسي، حتى يقضي الله ما أحب، فمن أراد منكم الانصراف فلينصرف، فوالله لأن تبقوا أحبّ إليّ من أن تهلكوا. فقالوا: والله ما أنصفناك، إذن تكون أعتقتنا من الرق، ورفعتنا من الضعة، ثم أغنيتنا بعد القلّة، ثم نخذلك على هذه الحال، بل نتقدّم أمامك ونموت تحت ركابك، فلعن الله الدنيا والعيش بعدك، ثم نزلوا وحملوا على أصحاب قريش حملةً منكرةً، فأكثروا فيهم

القتل، وشدوخهم بالحجارة، وانتهى بعض أصحاب طاهر إلى محمد بن يزيد بن حاتم المهلبيّ فطعنه بالرمح فصرعه، وتبادروا إليه بالطعن والضرب حتى قتلوه.

أقام طاهر بن الحسين بالأهواز بعد قتله محمد بن يزيد بن حاتم المهلبي، وأنفذ عماله في كورها، وولّى على اليمامة والبحرين وعُمان مما يلي الأهواز، ومما يلي عمل البصرة، ثم أخذ طريق البر متوجهاً إلى واسط فجعلت المسالح والعمال تتقوّض، مسلحةً مسلحةً، وعاملاً عاملاً، كلما اقترب طاهر منهم تركوا أعمالهم وهربوا عنها، حتى اقترب من واسط، فهرب عمالها منها، ودخلها طاهر.

بعث طاهر بن الحسين إلى الكوفة أحمد بن المهلب وعليها من قبل الخليفة يومئذٍ العباس بن موسى الهادي، فلما بلغ العباس خبر أحمد بن المهلب خلع الأمين، وكتب بطاعته إلى طاهر وببيعته للمأمون، وغلب طاهر على ما بين واسط والكوفة، وكتب عامل الأمين على البصرة المنصور بن المهدي إلى طاهر بطاعته، ورحل طاهر حتى نزل طرفايا، فأقام بها يومين فلم يرها موضعاً للعسكر، فأمر بجسرٍ فعُقد، وخندق له، وأنفذ كتبه بالتولية إلى العمال.

أقرّ طاهر بن الحسين العمّال الذين كتبوا إليه بخلعهم الأمين وبيعتهم للمأمون أقرهم على ولاياتهم، فأقرّ داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس على مكة والمدينة، وولّى يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القسريّ على اليمن.

وجّه طاهر بن الحسين إلى قصر ابن هبيرة الحارث بن هشام وداود بن موسى فلما بلغ الأمين خبر ذلك بعث خلفهما القائد محمد بن سليمان، ومحمد بن حماد البربريّ، وبعث طاهر بن الحسين مدداً لقائديه الحارث وداود فالتقى الفريقان فاقتتلا قتالاً شديداً، وانهزمت قوات الأمين، وهرب محمد بن سليمان واتجه نحو الأنبار، ورجع محمد بن حماد البربري إلى بغداد.

لما رجع محمد بن حماد البربري إلى بغداد وجّه الأمين إلى الكوفة الفضل بن موسى بن عيسى الهاشمي، وولّاه عليها، وضمّ إليه بعض القادة، وأمره بسرعة السير، غير أن فرسه قد عثر به فتشاءم، وبعث طاهر إليه محمد بن العلاء، فبعث الفضل إلى محمد بن العلاء: إني سامع مطيع لطاهر، ولكن لم تكن النية صافيةً، لذا فقد نشب القتال وكان عنيفاً، وكبا بالفضل فرسه فقاتل عنه أصحابه حتى ركب، وعاد القتال فاشتدّ

وحمل أصحاب محمد بن العلاء على أصحاب الفضل فهزموهم، وتبعوهم يقتلون فيهم.

استيلاء طاهر بن الحسين على المدائن:

توجّه طاهر بن الحسين إلى المدائن، وفيها جند كثير للخليفة الأمين وعليهم البرمكي قد تحصّن بها، والمدد يأتيه في كل يومٍ من قبل الخليفة وكذا تأتي الصلات والخِلع، فلما اقترب من المدائن وكان على فرسخين منها وجّه إليها الحسن بن علي المأموني وقريش بن شبل، ووجّه على مقدمته الهادي بن حفص وسار، فلما سمع أصحاب البرمكي الخبر، أسرجوا الدواب، وأخذوا في التعبئة، ولكن لم يستقم لهم الأمر إذ دبّت الفوضى بين الصفوف، فطلب البرمكي من صاحب ساقته أن يخلي سبيل الناس فتسارعوا نحو بغداد، ونزل طاهر المدائن.

بيعة أهل مكة والمدينة للمأمون:

لما أفضت الخلافة إلى الأمين بعث إلى مكة والمدينة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وعزل والي الرشيد على مكة محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد المخزومي وأبقاه على

القضاء فقط. فأقام داود والياً على مكة والمدينة للخليفة الأمين، وأقام للناس الحج ثلاث سنواتٍ: ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥هـ. فلما دخلت سنة ١٩٦هـ بلغ داود خبر خلع المأمون أخاه الأمين، وما فعله قائد المأمون طاهر بن الحسين بقادة الأمين. وكان الأمين قد كتب إلى داود بن عيسى يأمره بخلع المأمون والبيعة لابنه موسى، وبعث الأمين إلى مكة من أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما وعلّقهما في الكعبة، عند ذلك جمع داود بن عيسى حجبة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد على ما في الكتابين من الشهود ـ وكان داود أحدهم ـ فقال داود: قد علمتم ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق عند بيت الله الحرام حين بايعنا لابنيه، لنكونن مع المظلوم منهما على الظالم، ومع المبغي عليه على الباغي، ومع المغدور به على الغادر، فقد رأينا ورأيتم أن الأمين قد بدأ بالظلم والبغي والغدر على أخويه عبد الله المأمون والقاسم المؤتمن، وخلعهما وبايع لابنه الطفل، رضيع صغير لم يفطم، واستخرج الشرطين من الكعبة عاصياً ظالماً، فحرّقهما بالنار. وقد رأيت خلعه، وأن أبايع لعبد الله المأمون بالخلافة، إذ كان مظلوماً مبغياً عليه. فقال له أهل مكة: رأينا تبع لرأيك، ونحن خالعوه معك،

فوعدهم صلاة الظهيرة، وأرسل في فجاج مكة صائحاً يصيح الصلاة جامعة، فلما جاء وقت صلاة الظهر ـ وكان ذلك يوم الخميس لسبعٍ وعشرين ليلةً خلت من رجب سنة ستٍ وتسعين ومائة ـ خرج داود بن عيسى، فصلى بالناس صلاة الظهر، وقد وُضع له المنبر بين الركن والمقام، فصعد فجلس عليه، وأمر بوجوه الناس وأشرافهم فقربوا من المنبر، وكان داود خطيباً فصيحاً جهير الصوت، فلما اجتمع الناس قام خطيباً فقال:

الحمد لله مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين، وختم به النبيين، وجعله رحمةً للعالمين، صلى الله عليه في الأولين والآخرين، أما بعد يا أهل مكة، فأنتم الأصل والفرع، والعشيرة والأسرة، والشركاء في النعمة، إلى بلدكم نفذ وفد الله، وإلى قبلتكم يأتمّ المسلمون، وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هارون ـ رحمة الله عليه ـ حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق لتنصرنّ

المظلوم منهما على الظالم، والمبغي عليه من الباغي، والمغدور به على الغادر، ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغي والغدر، وخالف الشروط التي أعطاها من نفسه في بطن البيت الحرام، وقد حلّ لكم ولنا خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغي عليه المغدور به، ألا وإني أشهدكم أني قد خلعت محمد بن هارون من الخلافة كما خلعت قلنسوتي هذه عن رأسي ـ وخلع قلنسوته عن رأسه فرمى بها إلى بعض الخدم ـ ثم قال: وقد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم.

فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر، رجل فرجل، فبايعه لعبد الله المأمون بالخلافة، وخلع الأمين، ثم نزل عن المنبر، وحانت صلاة العصر، فصلّى بالناس، ثم جلس في ناحية المسجد، وجعل الناس يُبايعونه جماعةً بعد جماعةٍ، يقرأ عليهم كتاب البيعة، ويصافحونه، ففعل ذلك أياماً.

وكتب إلى ابنه سليمان بن داود بن عيسى وهو خليفته على المدينة، يأمره أن يفعل بأهل المدينة مثل ما فعل هو بأهل مكة من خلع محمد الأمين والبيعة لعبد الله

المأمون. فلما رجع جواب البيعة من المدينة إلى داود وهو بمكة رحل من فوره بنفسه وجماعة من ولده يريد المأمون بمرو، ارتحل عن طريق البصرة ـ فارس ـ كرمان حتى صار إلى المأمون بمرو فأعلمه ببيعته وخلعه محمد الأمين ومسارعة أهل مكة وأهل المدينة إلى ذلك، فسُرّ بذلك المأمون، وتيمّن ببركة مكة والمدينة، إذ كانوا أول من بايعه، وكتب إليهم كتاباً ليناً لطيفاً يعدهم فيه الخير، ويبسط أملهم. وأمر أن يُكتب لداود عهد على مكة والمدينة وأعمالها.

وخرج داود بن عيسى مسرعاً مُغذّا مبادراً لإدراك الحج، ومعه ابن أخيه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وقد عقد المأمون للعباس بن موسى بن عيسى على ولاية الموسم، فسار هو وعمه داود حتى نزلا على طاهر بن الحسين في معسكره قرب بغداد، فأكرمهما وقرّبهما، وأحسن معونتهما ووجّه معهما يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القسريّ، وقد عقد له طاهر على ولاية اليمن، وبعث معه خيلاً، وضمن لهم يزيد بن جرير أن يستميل قومه وعشيرته من ملوك اليمن وأشرافهم، ليخلعوا محمد الأمين ويبايعوا لعبد الله المأمون.

فساروا جميعاً حتى دخلوا مكة، وحضر الحج، فحجّ بأهل الموسم العباس بن موسى بن عيسى، فلما صدروا عن الحج انصرف العباس إلى طاهر بن الحسين وهو يحاصر بغداد، وأقام داود بن عيسى على عمله بمكة والمدينة، ومضى يزيد بن جرير إلى اليمن، فدعا أهلها إلى خلع محمد الأمين وبيعة عبد الله المأمون، وقرأ عليهم كتاباً من طاهر بن الحسين يعدهم العدل والإنصاف، ويرغّبهم في طاعة المأمون، ويعلّمهم ما بسط المأمون من العدل في رعيته، فأجاب أهل اليمن إلى بيعة المأمون، واستبشروا بذلك، وبايعوا للمأمون، وخلعوا الأمين، وكتب بإجابتهم وبيعتهم إلى المأمون وإلى طاهر بن الحسين.

توسعة الحرب بين الأخوين:

عقد الأمين أربعمائة لواء للقادة، وأمّر على جميعهم علي بن محمد بن عيسى بن نَهيك، وأمرهم بالمسير إلى هرثمة بن أعين، فساروا إليه فالتقوا به في شهر رمضان على أميالٍ من (النهروان) فهزمهم هرثمة وأسر علي بن محمد بن عيسى بن نَهيك، فبعث به هرثمة إلى المأمون، وزحف هرثمة فنزل (النهروان).

الحرب المعنوية:

أقام طاهر بن الحسين على نهر (صرصر)[1]، وشمّر في محاربة الأمين وأهل بغداد، فكان ما يأتيه جيش إلا هزمه. فاشتدّ على أصحابه ما كان يعطيه محمد الأمين من الأموال والكُسا، وذلك أن الأمين قد دسّ عيونه في أصحاب طاهر، ودسّ إلى رؤساء الجند الكتب بالإطماع والترغيب، فشغبوا على طاهر، واستأمن كثير منهم إلى الأمين، وتقدّم رجال الأمين نحو نهر صرصر حتى أشرفوا عليه والتقوا مع أصحاب طاهر، ولكن لم يلبث أن ولّى الأدبار جماعة الأمين وأخلوا موضع عسكرهم، فأخذ أصحاب طاهر كل ما كان فيه من سلاحٍ وعتادٍ، ولما وصل الخبر إلى الأمين فأمر بالأعطيات وفرّق الصلات، وأتت الأخبار إلى طاهر بذلك فراسل وكاتب جند الأمين وأغراهم واستمالهم ووعدهم فشغبوا على الأمين يوم الأربعاء لستٍّ خلون من ذي الحجة سنة ١٩٦هـ. فاستشار الأمين

---

(١) صرصر: قريتان من سواد بغداد، صرصر العليا وصرصر السفلى، وهما على ضفة نهر عيسى، وربما قيل: نهر صرصر فنسب النهر إليهما، وبين صرصر السفلى وبغداد نحو فرسخين.

قادته، فقيل له: تدارك القوم، وتَلافَ أمرك، فأمر بقتالهم، وراسلهم طاهر وراسلوه، وأخذ منهم رهائن على بذل الطاعة له، وكتب إليهم، فأعطاهم الأمان وبذل لهم الأموال، ثم قدم فصار إلى البستان الذي على باب الأنبار يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلةً خلت من ذي الحجة سنة ١٩٦هـ، فنزل طاهر البستان بقواده وأجناده وأصحابه، كما نزل من لحق بطاهر من المستأمنة من قادة الأمين، وضاعف طاهر العطاء للقادة وأبناء الخواص، وأجرى عليهم وعلى كثيرٍ من رجالهم الأموال، ونقب أهل السجون السجون وخرجوا منها، وفُتن الناس، وعمّت الفوضى، غير أن معسكر طاهر بقي أفضل حالاً لتفقّد أمرهم، وأخذه على أيدي من يحاول الفوضى أو الشغب.

حصار بغداد:

لحق القاسم بن هارون الرشيد ومنصور بن المهدي بالمأمون من العراق، فوجّه المأمون إلى جرجان القاسم. وحاصر طاهر بن الحسين، وهرثمة بن أعين، وزهير بن المسيّب الضبيّ بغداد، وملّ أهل بغداد القتال، فاستأمن محمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين إلى طاهر بن الحسين، بل بدأ أصحاب الأمين في

الضعف والتواني فكان يُقتل بعضهم، ويستأمن بعضهم. وبثّ طاهر بن الحسين رسله، وكتب إلى القادة والهاشميين وغيرهم بعد أن حاز ضياعهم وغلّاتهم يدعوهم إلى الأمان والدخول في خلع الأمين والبيعة للمأمون، فلحق به جماعة منهم: عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي وإخوته، وولد الحسن بن قحطبة، ويحيى بن علي بن ماهان، ومحمد بن أبي العاص، وكاتبه قوم من القادة الهاشميين في السرّ، وصارت قلوبهم وأهواؤهم معه. وضاقت بغداد بأهلها، وأشرف الأمين على الهلاك، كما منع طاهر بن الحسين التجار من دخول بغداد مما جعل وضع البلد يزداد سوءاً لفقدان بعض المواد الغذائية.

وجرى القتال بين أهل بغداد والمحاصرين لهم، وصبر الفريقان، وكانت بينهما وقعة الكُناسة، وقد باشر طاهر بن الحسين فيها القتال بنفسه، وقُتل فيها عدد كبير من أصحاب الأمين، وكانت بينهما أيضاً وقعة درب الحجارة، وقد انتصر فيها أهل بغداد على أصحاب طاهر بن الحسين، وقُتل فيها عدد كبير، وكانت بين الطرفين وقعة باب الشماسية، وكان هرثمة بن أعين ينزل منطقةً خلف نهر، وخندق على أصحابه وأقام خلف

حائط، وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية الذي فاجأه قائد الأمين حاتم بن الصقر فأوقع به وقعةً أزاله عن موضعه وولّى منهزماً، وأصاب له خيلاً وسلاحاً ومتاعاً كثيراً وغلب على الشماسية، وبلغ الخبر هرثمة بن أعين فأقبل في أصحابه لنصرته، وليردّ عسكر الأمين عنه، فالتقى بقوات الأمين، ونشب القتال بينهما، وتمكن رجل من أصحاب الأمين أسر هرثمة وهو لا يعرفه، فحمل بعض أصحاب هرثمة على الرجل، فقطع يده، وأنقذ هرثمة.

بلغ خبر ما دار من قتالٍ بين الفريقين إلى طاهر بن الحسين فاشتدّ ذلك عليه، وبلغ منه مبلغاً، فأمر أن يعقد جسر على دجلة فوق الشماسية، وعبّأ أصحابه ووجّههم وخرج معهم إلى الجسر، فعبروا إليهم وقاتلوهم أشدّ قتالٍ، وكان طاهر يمدّ أصحابه ساعةً بعد ساعةٍ حتى ردّوا قوات الأمين، وأزالوهم عن الشماسية، وأعاد هرثمة، وعبيد الله الوضاح إلى موضعهما.

ضعف أمر الأمين، وأيقن بالهلاك، وهرب عبد الله بن خازم بن خزيمة من بغداد إلى المدائن، وراسل تجار (الكرخ) طاهر بن الحسين. وتوزّع جند بغداد، ودبّ الرعب في النفوس في سائر بغداد.

استئمان خزيمة بن خازم:

كتب طاهر بن الحسين إلى خزيمة بن خازم، أنه إن ترك نصرة الأمين لم يقصّر طاهر ولا المأمون في أمره، وشاور خزيمة أهل بيته وثقات أصحابه، فقالوا له: نرى والله أن هذا الرجل أخذ بقفا صاحبنا[(١)]، فاحتل لنفسك ولنا. فكتب إلى طاهر بطاعته، وأخبره أنه لو كان هو النازل في الجانب الشرقي مكان هرثمة لكان يحمل نفسه له على كل هول، وأعلمه قلّة ثقته بهرثمة، ويناشده ألا يحمله على مكروهٍ من أمره إلا أن يضمن له القيام دونه. فكتب طاهر بن الحسين لهرثمة يلومه ويعجزه.

وقيل: إن طاهراً عندما كاتب خزيمة كتب أيضاً إلى محمد بن علي بن عيسى بن ماهان بمثل ذلك. فلما كانت ليلة الأربعاء لثمانٍ بقين من شهر المحرم سنة ١٩٨هـ، وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى بن ماهان على جسر دجلة فقطعاه، وخلعا الأمين ودعوا للمأمون.

دخول طاهر بن الحسين بغداد:

غدا طاهر بن الحسين يوم الخميس لسبعٍ بقين

---

(١) يقصد: أن طاهر بن الحسين قد تمكّن من خناق الأمين.

من شهر المحرم سنة ١٩٨هـ على شرقي بغداد وأرباضها وعلى الكرخ وأسواقها، واشتدّ هناك القتال، وقسا طاهر على أصحابه، وباشر القتال بنفسه، وهزم من كان هناك بدار الرقيق حتى ألحقهم بالكرخ، وقاتل طاهر بباب الكرخ وقصر الوضاح، فهزم قوات الأمين، ودخل قسراً بالسيف، وأمر مناديه فنادى بالأمان لمن ألقى السلاح ولزم بيته. ووضع طاهر بقصر الوضاح وسوق الكرخ والأطراف قادةً وجنداً في كل موضعٍ على قدر حاجته منهم، وقصد إلى مدينة أبي جعفر فأحاط بها وبقصر زبيدة وقصر الخلد. وثبت على قتال طاهر من قادة الأمين حاتم بن الصقر، والهِرْش، فنصب طاهر المجانيق خلف السور على المدينة وبإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد، ورمى، وخرج الأمين بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر، وتفرّق عنه عامة جنده ومواليه في الطرق لا يلوي أحد منهم على أحدٍ. وتحصّن الأمين بمدينة أبي جعفر هو ومن يقاتل معه، وحصره طاهر وأخذ عليه الأبواب، ومنع عنه وعن أهل المدينة الدقيق والماء وغيرهما من المواد.

مقتل الأمين:

لما استقرّ الأمين في مدينة أبي جعفر، ورأى

قادته أنه ليس لديهم عدّة للحصار، فخافوا أن يُغلب على أمرهم ويصيروا بأيدي خصمهم، فدخل على الأمين حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الإفريقي وقادته، فقالوا: قد آلت حالك وحالنا إلى ما ترى، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك، فانظر فيه واعتزم عليه، فإنا نرجو أن يكون صواباً، ويجعل الله فيه الخير ـ إن شاء الله ـ. قال: وما هو؟ قالوا: قد تفرّق عنك الناس، وأحاط بك عدوّك من كل جانبٍ، وقد بقي من خيلك معك ألف فرسٍ من خيارها وجيادها، فنرى أن نختار من قد عرفنا بمحبتك من الأبناء سبعمائة رجل، فنحملهم على هذه الخيل ونخرج ليلاً على باب من هذه الأبواب فإن الليل لأهله، ولن يثبت لنا أحد ـ إن شاء الله ـ فنخرج حتى نلحق بالجزيرة والشام فتفرض الفروض، وتجبي الخراج، وتصير إلى مملكةٍ واسعةٍ، وملكٍ جديدٍ، فيسارع إليك الناس، وينقطع عن طلبك الجنود، وإلى ذلك ما قد أحدث الله عزّ وجلّ في مكر الليل والنهار أموراً، فقال لهم: نِعم ما رأيتم، واعتزم على ذلك.

ووصل الخبر إلى طاهر بن الحسين، فكتب إلى سليمان بن أبي جعفر، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك

وإلى السندي بن شاهك: والله لئن لم تردّوه عن هذا الرأي لن أترك لكم ضيعةً إلا قبضتها، ولا تكون لي همّة إلا أنفسكم. فدخلوا على الأمين فقالوا له: قد بلغنا الذي عزمت عليه، فنحن نُذكّرك في نفسك، إن هؤلاء صعاليك، وهم يرون أن لا أمان لهم على أنفسهم وأموالهم عند أخيك وعند طاهر وهرثمة لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها، ولسنا نأمن إذا برزوا بك، وحصلت في أيديهم أن يأخذوك أسيراً، ويأخذوا رأسك فيتقرّبوا بك، ويجعلوك سبب أمانهم، وضربوا له فيه الأمثال.

فلما وقع في نفس الأمين ما وقع منه أضرب عما كان عزم عليه، ورجع إلى قبول ما كانوا بذلوا له من الأمان والخروج، فأجاب سليمان بن أبي جعفر، ومحمد بن عيسى بن نَهيك، وإلى السندي بن شاهك، وأجابهم إلى الخروج إلى هرثمة بن أعين، فقالوا له: الخروج إلى طاهر خير لك من الخروج إلى هرثمة، فقال لهم: ويحكم أنا أكره طاهراً، وهمّ بالخروج إلى هرثمة وأجابه إلى ما أراد، ولكن طاهراً أبى ذلك، وقال: هو في الجانب الذي أنا فيه، وأنا أخرجته بالحرب والحصار حتى صار إلى طلب الأمان، ولا

أرضى أن يخرج إلى هرثمة دوني، فيكون الفتح له.

اجتمع القادة وأخبروا طاهراً أن الأمين مستوحش منك فلا تُفسد الأمر فليخرج إلى هرثمة وليدفع إليك الخاتم والقضيب والبردة ـ وذلك الخلافة ـ فوافق ورضي بما قالوا، غير أن أحدهم أشار إليه أن هذا مكر، فاغتاظ طاهر وجعل حول قصر أم جعفر وقصر الخلد رجالاً مُسلّحين في كمائن، وذلك ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨هـ (٢٥ أيلول ٨١٣م).

ولما خرج الأمين إلى هرثمة كان طاهر قد كمن له في قصر الخلد، فوثب على الأمين وهو في الحراقة مع هرثمة، ورمى طاهر وأصحابه الذين كانوا في الكمائن الحراقة فمالت فوقع الأمين وهرثمة في الماء، وسبح الأمين حتى عبر وصار إلى بستان موسى، فصاح محمد بن حميد المعروف بالطاهريّ، صاح بأصحابه فنزلوا فأخذوا الأمين كالأسير، وساروا به إلى منزل إبراهيم بن جعفر البلخي، وكان ينزل بباب الكوفة. ومشى طاهر بن الحسين إلى بستان مؤنسة قرب باب الأنبار موضع معسكره فلحقه محمد بن حميد، فترجل ودنا من طاهر، فأخبره أنه قد أسر محمد الأمين، وأنه في منزل إبراهيم بن جعفر البلخي، فدعا طاهر بمولىً له

يقال له: (قريش الدنداني)، فأمره بقتل محمد الأمين، واتبعه طاهر إلى باب الكوفة.

ضرب خمارويه مولى قريش الدنداني بالسيف الأمين على مقدمة رأسه، وضرب الأمين وجه خمارويه بوسادةٍ كانت بيده واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده، فصاح خمارويه: قتلني قتلني بالفارسيّة، فدخلت جماعة، ونخس أحدهم الأمين في خاصرته بالسيف، واتكؤوا عليه وقتلوه وذلك يوم الأحد الرابع من شهر صفر سنة ٩١٨هـ (٣ تشرين الأول ٨١٣م).

فكانت خلافة محمد الأمين أربع سنواتٍ وثمانية أشهرٍ تماماً، من وفاة الرشيد يوم السبت ٣ جمادى الآخرة ١٩٣هـ، إلى مقتل محمد الأمين في ٤ صفر ١٩٨هـ.

دخل طاهر بن الحسين بغداد يوم الجمعة في ٩ صفر سنة ١٩٨هـ، وخطب الجمعة بالناس، وصلّى بهم، ولكن الجند شعروا بشيء من الفوضى فأخذوا يُطالبون طاهراً ببعض الأعطيات، ولم يكن لديه مال، فاضطر أن يتغيّب عنهم أياماً حتى أصلح أمرهم.

أمر طاهر بحفظ أبواب المدينة، وباب القصر على أم جعفر (زبيدة) أم الأمين، وموسى وعبد الله ابني

محمد الأمين، ثم أمر بتحويل زبيدة وموسى وعبد الله من قصر أبي جعفر إلى قصر الخلد، فحوّلوا ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ١٩٨هـ، ثم أمر بحمل موسى وعبد الله إلى عمهما بخراسان عن طريق الأهواز وفارس، وقد فعل بذلك خيراً بإبعادهما عن مواطن الشغب التي تقع إثر الأحداث.

وذُكر أن طاهر بن الحسين قال حين قتل الأمين:

قتلت الخليفة في داره
وأنهبت بالسيف أمواله

وقال أيضاً:

ملكت الناس قسراً واقتداراً
وقتّلت الجبابرة الكبارا
ووجّهت الخلافة نحو مروٍ
إلى المأمون تبتدر ابتدارا

ووصل خبر مقتل محمد الأمين إلى أخيه عبد الله المأمون، فأظهر الخبر وأذِن للقادة فدخلوا عليه. وقام الفضل بن سهل فقرأ الكتاب بالخبر، فهنأ الحضور المأمون ودعوا الله له. وبعث المأمون بكتابٍ إلى

طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بخلع القاسم بن هارون، فأظهرا ذلك، ووجّها كتبهما به[1].

الولايات:

طغت أحداث الخلاف بين الخليفة محمد الأمين وبين أخيه عبد الله المأمون أمير المشرق على أحداث الولايات كلها، فكان الناس في كل إقليمٍ يتلقّون أخبار الخلاف، وتختلف آثارها بين مصرٍ وآخر، وإن كانت خراسان وفارس تميل بشكلٍ عام إلى جانب المأمون، وتسرّ المجتمعات هناك لانتصاراته، وتُحاك الشائعات ضد الأمين على حين كانت المجتمعات في بقية المناطق تتألّم لما يجري، وترى فيما يحدث ضعفاً للمسلمين وتفرقةً وأملاً للأعداء وتقويةً.

١ ـ الحجاز:

كان داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن

---

(١) أخذت أكثر مادة هذا الفصل من تاريخ الطبري بتصرفٍ إذ أهملت الروايات التي يظهر فيها التجنّي واضحاً، وتبدو منها الأهداف السيئة التي صيغت من أجلها ويقصد منها الطعن بالخلفاء ممثلي الإسلام ورؤساء المسلمين، وإعطاء صورةٍ بشعةٍ عن المجتمع الإسلامي.

علي بن عبد الله بن عباس أمير مكة والمدينة وما يتبعهما من قبل الخليفة محمد الأمين، لكن داود خلع طاعة الخليفة سنة ١٩٦هـ، وأعلن البيعة لعبد الله المأمون، وبقي والياً على الحجاز باسم المأمون، وأقام داود في مكة، وبعث ابنه سليمان بن داود إلى المدينة، واستمرّ ذلك مدة أيام محمد الأمين.

وحج داود بن عيسى بالناس في سنوات ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥هـ. وحجّ العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أي ابن أخي داود في سنة ١٩٦هـ من قبل طاهر بن الحسين، ودعا للمأمون بالخلافة، وهو أول موسمٍ دُعي له فيه بالخلافة في مكة والمدينة.

وحجّ العباس بن موسى بالناس كذلك في موسم ١٩٧هـ.

٢ ـ الشام:

ولّى محمد الأمين على حمص إسحاق بن سليمان غير أن أهل حمص قد خالفوه، وأعلنوا عصيانهم، فما كان منه إلا أن انتقل إلى بلدة «سلمية» فصرفه الخليفة عنهم، وولّى مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي ومعه عافية بن سلميان، فحبس عدداً من أعيانهم، وأشعل

النار في بعض نواحي المدينة، فسألوه الأمان فأجابهم، وسكنوا، ثم هاجوا فضرب أعناق عددٍ منهم فاستكانوا، وكانت حركة أهل حمص سنة ١٩٤هـ.

وظهر بالشام سنة ١٩٥هـ علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي عُرف بالسفياني، ودعا إلى نفسه في شهر ذي الحجة من السنة نفسها، وطرد عامل الخليفة على دمشق وهو سليمان بن أبي جعفر، فلم يفلت منه إلا بعد اليأس، فوجّه الخليفة إليه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، فلم ينفذ إليه، ولكنه لما صار إلى الرقة أقام بها. وبويع السفياني بالخلافة وهو ابن تسعين سنة، وناصره بنو كلب وبعض الأمويين، وخذله بنو مروان، وقاتله أنصار بني العباس، وكان أصحابه يجولون في أسواق دمشق بعد أن امتلكها سنة ١٩٥هـ، ويقولون للناس: قوموا فبايعوا مهدي الله، وتعصّب له اليمانية وقاومه القيسية فاشتدّ عليهم وعلى من لم يبايعه، وامتد سلطانه حتى صيدا على سواحل بحر الشام. ثم انتهى أمر السفياني على يد مسلمة بن يعقوب بن علي بن محمد بن سعيد بن مسلمة بن عبد الملك الذي دعا لنفسه أيضاً، وبويع في حوران وأطراف دمشق، فقبض على السفياني وقيّده، وبايعه

رؤساء بني أمية، فهاجمهم محمد بن صالح بن بيهس الكلابي[1] زعيم القيسية، فهرب السفياني ومسلمة إلى المِزّة من ضواحي دمشق وكان هربهما بلباس النساء في أوائل عام ١٩٨هـ. فاجتمع أهل المِزّة وأهل داريا وقاتلوا ابن بيهس الكلابي، فانتصر ابن بيهس فاستولى على دمشق وقام بالدعوة للمأمون، وتوفي على الأثر السفياني سنة ١٩٨هـ.

وولّى الخليفة محمد الأمين على الشام سنة ١٩٦هـ عبد الملك بن صالح بن علي وأمره بالخروج إليها، وجمع الرجال لقتال طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين، وسار عبد الملك إلى الشام فلما وصل إلى الرقة أقام بها، وأنفذ رسله وكتبه إلى رؤساء أجناد أهل الشام بجمع الرجال، وإمداد الخليفة بهم لقتال طاهر وهرثمة.

٣ ـ الجزيرة الفراتية:

عزل الأمين أخاه القاسم المؤتمن عن جميع ما كان أبوه هارون ولّاه من عمل الشام والجزيرة وقنسرين

---

(١) محمد بن صالح بن بيهس القيسي الكلابي: أمير عرب الشام، وسيد قيس وفارسها وشاعرها في عصره، كان نائب الشام للمأمون، قاوم السفياني، واستمر في الإمارة إلى أن توفي سنة ٢١٠هـ.

والعواصم والثغور، وولّى مكانه خزيمة بن خازم، وأمره بالإقامة في بغداد.

٤ ـ الكوفة:

ولي أمر الكوفة للأمين ابن عمه العباس بن موسى الهادي.

٥ ـ البصرة:

كان على البصرة منصور بن المهدي.

٦ ـ إفريقية:

كان الرشيد قد ولّى على إفريقية إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ[1]، وبدأ إبراهيم منذ تسلّم الإمارة

(١) إبراهيم بن الأغلب: كان الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي من دعاة بني العباس مع أبي مسلم الخراساني، وكان مع أبي جعفر المنصور في حصار يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط أثناء احتدام القتال بين العباسيين والأمويين، وشارك أبا مسلم الخراساني في القضاء على حركة عبد الله بن عليّ عمّ المنصور، ثم أرسله أبو جعفر المنصور مع قائده محمد بن الأشعث إلى إفريقية، ثم عهد إليه المنصور بولاية إفريقية، فوصل إلى القيروان ودخلها، وتمكّن من دحر الحسن بن حرب الكندي، والاستيلاء على القيروان وتخليصها منه، إلا أن الحسن بن حرب قد عاد إلى تونس، وجهّز حملةً ثانيةً استطاعت أن تقتل الأغلب بن سالم سنة ١٥٠هـ، وكان =

....

= عمر ولده إبراهيم يومذاك عشر سنوات فغادر تونس، ورحل إلى مصر، ودرس فيها الفقه، ثم رحل إلى المغرب، وأقام في إقليم الزاب بالمغرب الأوسط.

أرسل أبو جعفر المنصور والياً على إفريقية عمرو بن حفص المهلبي سنة ١٥١هـ، فقامت الثورات ضده، وقُتل فتولّى أمر إفريقية بعده ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبي فاستطاع أن يقمع حركات الخوارج، واستمرت إمرته حتى توفي سنة ١٧٠هـ، فخلفه ابنه داود بن يزيد، ثم أخوه روح بن حاتم، فالفضل بن روح، وفي سنة ١٧٨هـ ثار في إفريقية عبدويه الأبناوي وقتل الفضل بن روح بن حاتم المهلّبي، وأخرج آل المهلب من إفريقية.

استطاع العلاء بن سعيد والي الزاب أن يسير إلى القيروان وأن يستردّها من عبدويه، وأن يسلّمها إلى هرثمة بن أعين الذي أرسله هارون الرشيد والياً على إفريقية سنة ١٧٩هـ، وكان إبراهيم بن الأغلب مع العلاء، وتقرّب إبراهيم بن الأغلب من هرثمة بن أعين فولّاه الزاب.

أرسل الرشيد أخاه من الرضاعة محمد بن مقاتل بن حكيم العكي والياً على إفريقية سنة ١٨١هـ، فقدم إليها وأقام بالقيروان، ولم يكن محمود السيرة، فثار الشعب والجند ضدّه، كما ثار عليه عامله بتونس تمام بن تميم التميمي، فانخذل العكي، واعتقله تمام، وأرسله إلى طرابلس الغرب، فانتصر والي الزاب إبراهيم بن الأغلب لمحمد بن مقاتل، واتجه إلى تونس، وقضى على فتنة تمام، وأعاد محمد بن مقاتل إلى القيروان سنة ١٨٤هـ، وأحب الناس إبراهيم بن الأغلب. =

يعمل على تأسيس دولةٍ يستقلّ فيها هو وأبناؤه من بعده، وثار عليه أيام محمد الأمين عمران بن مخالد التميمي سنة ١٩٥هـ، ولكن قضي على هذه الحركة، وتوفي إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦هـ، وخلفه ابنه عبد الله[1] الذي استمرت إمرته إلى ما بعد أيام الأمين،

= عزل الرشيد عن إفريقية أخاه محمد بن مقاتل، وولّى مكانه إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ، وذلك أنه كانت لإفريقية كل سنةٍ مائة ألف دينارٍ تأتيها من مصر، فعرض إبراهيم على الرشيد أن يترك المائة ألف، ويرسل هو من إفريقية أربعين ألف دينارٍ، فورد أمر الرشيد بولاية إبراهيم وعزل محمد بن مقاتل. فنهض إبراهيم بها، وضبط أمورها، وابتنى مدينة العباسية على مقربة من القيروان، وانتقل إليها، ونشبت ثورات في أواخر أيامه فأطفأها، وكان على علمٍ بالأدب والفقه، كما كان شاعراً خطيباً شجاعاً، واستمرت إمرته على إفريقية اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهرٍ، وله وقائع مع الأدارسة، مات بالعباسية سنة ١٩٦هـ، وهو أول من اتخذ العبيد لحمل سلاحه، واستغنى بهم عن الرعية في بعض أموره، قال ابن عذارى: لم يلِ إفريقية أحسن منه سيرةً، ولا أحسن سياسةً، ولا أرأف برعيةٍ، ولا أوفى بعهدٍ، ولا أرعى لحرمةٍ منه.

ثار على إبراهيم بن الأغلب في المغرب الأدنى حمديس الكندي غير أنه هُزم أمام ابن الأغلب، وثار أهل طرابلس على سفيان بن المهاجر عامل إبراهيم على مدينتهم سنة ١٨٩هـ، ولكن ابن الأغلب تمكّن من إخضاعهم.

(١) عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب: ثاني الأغالبة من أمراء =

وكانت أيامه في القيروان وأطرافها أيام دعةٍ وسكونٍ فعمرت البلاد.

٧ ـ المغرب الأقصى:

قامت عدة إمارات في بلاد المغرب الأقصى والأوسط وانفصلت عن إفريقية، والإمارات هي: إمارة للخوارج الصفرية في «سجلماسة» وأمراؤها من بني مدرار، وإمارة للخوارج الأباضية في «تياهرت» وأمراؤها من بني رستم، ثم إمارة الأدارسة في مدينة «فاس».

أما إمارة بني مدرار فقد أسسها أبو القاسم سمكو بن واسول بن نزول المكناسي البربري من قبيلة مكناسة. كان أبوه «سمكو» من المتفقهين في الدين، رحل إلى المدينة، وأخذ عن بعض التابعين، وكان قد نشأ في بيت وجاهةٍ وثروةٍ في قبيلته، وكانت له ماشية كثيرة، وكان كثيراً ما يتردّد بماشيته إلى سوقٍ كانت

= إفريقية، أبو العباس، كان حسن الصورة، قبيح السيرة، كان شديداً، جماعاً للأموال، اشتكى الناس من جوره إلى أن مات. جعل زكاة الزروع مالاً بدل الإنتاج، ومن غير فرقٍ سواء أكان العام عام خصبٍ أم سنة قحط.

تُقام في البقعة التي بُنيت عليها مدينة «سجلماسة» بعد ذلك. وكثر ارتياد البربر من مكناس إلى تلك السوق، ونصب بعضهم خياماً فيها للإقامة، وكان مذهب الخوارج الصفرية قد أخذ ينتشر في قبائل مكناسة، فاتفق جماعة من معتنقيه، ومعهم أبو القاسم على تأمير فقيهٍ منهم يُدعى «عيسى بن مزيد الأسود» فأمّروه، واستقروا في تلك الأرض، فبدأ عمران سجلماسة سنة ١٤٠هـ، ثم أنكروا على أميرهم أشياء من أمرهم، فعزلوه وقتلوه سنة ١٥٥هـ، وبايعوا أبا القاسم بالإمارة، فقام بها إلى أن مات سنة ١٦٨هـ فجأةً في آخر ركعةٍ من صلاة العشاء، وخطب في إمارته لأبي جعفر المنصور ومحمد المهدي، وكان صفرياً أباضياً.

خلف أبا القاسم ابنه الياس، وعُرف بـ«أبو الوزير»، واستمرّت أيامه إلى سنة ١٧٤هـ حيث خُلع، وبويع من بعده أخوه «اليسع»، وكان قد شارك في الانتفاضة على أخيه، وولي الإمارة بعده، وتلقّب بالمنتصر، وكنيته أبو المنصور، وكان جباراً عنيداً، ظفر بمن عانده من قبائل البربر، وأذلّهم، وأظهر الصفرية، وقد أتمّ بناء سجلماسة وتشييدها، وبنى سوراً حولها، واختطّ فيها المصانع والقصور، وثارت الأباضية في

أيامه في وادي «درعة» فقضى على ثورتهم، وبطش بهم، وهادن ولاة العباسيين في القيروان، واتجه نحو حلّ المشكلات الداخلية والاقتصادية، وأخذت تجارة الخوارج الصفرية تعبر الصحراء بين الشمال والجنوب. واستمرت إمرته من سنة ١٧٤ حتى سنة ٢٠٨هـ، أي كانت خلافة محمد الأمين أيام إمرته، وخلفه ابنه مدرار، وغدا الحكم وراثياً، وانتهى أمر بني مدرار سنة ٣٦٦هـ.

أما إمارة بني رستم في «تياهرت» فقد أسسها عبد الرحمٰن بن رستم[1] الذي توفي سنة ١٧١هـ، وخلفه

---

(١) عبد الرحمٰن بن رستم بن بهرام: فارسي الأصل، كان جده بهرام من موالي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان عبد الرحمٰن من رجال أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني الذي استولى أول أمره على طرابلس الغرب سنة ١٤٠هـ، وحكم إفريقية كلها في بداية عام ١٤١هـ، فوجّه إليه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور خمسين ألف مقاتل بقيادة أمير مصر محمد بن الأشعث، فكاد يؤوب بالخيبة لولا أمورٍ وقعت بين أصحاب أبي الخطاب فارقه بعضهم من أجلها، وفاجأه محمد بن الأشعث في (سرت) على حين غِرّة فقتله ومن بقي معه من أصحابه، وكانوا اثني عشر ألفاً وذلك سنة ١٤٤هـ. وكان عبد الرحمٰن خليفة أبي الخطاب على القيروان، فلما قُتل أبو الخطاب هرب =

ابنه عبد الوهاب الذي هادن والي إفريقية روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الذي ولي إفريقية بعد وفاة أخيه يزيد بن حاتم في نهاية سنة ١٧٠هـ وبعد وفاة ابن أخيه داود بن يزيد سنة ١٧١هـ، وتوفي روح بن حاتم سنة ١٧٤هـ، وخلفه في الولاية ابنه الفضل بن روح غير أن ثورةً اندلعت في إفريقية واقتلعت جذور آل المهلب من المنطقة، وقتلت الفضل بن روح وذلك سنة ١٧٨هـ. وتولّى أمر إفريقية بعدئذٍ هرثمة بن أعين الذي أرسله هارون الرشيد سنة ١٧٩هـ. ثم محمد بن مقاتل العكي، ثم إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ، وقد هادن عبد الوهاب بن عبد الرحمٰن بن رستم ولاة بني العباس في القيروان سواء أكان هؤلاء الولاة من بني الأغلب أم ممن كان قبلهم. وقامت في وجه عبد الوهاب حركات من الخوارج الأباضيين

= عبد الرحمٰن بأهله وما خفّ من ماله إلى الغرب، ودخل ابن الأشعث القيروان، ولحقت بعبد الرحمٰن جماعة من الأباضية، فنزل بموضع «تياهرت»، وكان غيضةً بين ثلاثة أنهارٍ، وفيها آثار عمرانٍ قديمٍ، فبنى فيها أصحابه مسجداً، واختطّوا مساكنهم، وبايعوه بالإمامة، فأقام إلى أن توفي سنة ١٧١هـ، فهو أول من ملك من الرستميين، ومن فقهاء الأباضية بإفريقية، عُرف بالزهد والتواضع، وله كتاب بالتفسير.

أنفسهم لقبوله بالحكم الوراثي، فقد قامت حركة قادها يزيد بن فندين، وعُرفت باسم «النكّار» أي الذين ينكرون على ولي الأمر الأخذ بوراثة الحكم، وجرى قتال بين الطرفين كان في صالح يزيد بن فندين، فدعا عبد الوهاب إلى الهدنة لأخذ رأي أهل العلم في هذا الموضوع، فتمّ ذلك، وأفتى بعض أهل العلم لمصلحة جانبٍ، وأفتى بعضهم لمصلحة الجانب الآخر، وتجدّد القتال، وانتصر عبد الوهاب وقُتل يزيد بن فندين، ولاذ جماعته بالفرار، منهم من خرج بعيداً عن المنطقة، ومنهم من اعتصم في محلّتهم التي عُرفت باسم «كدية النكّار»، واستمرّ الخلاف طويلاً، وتوفي عبد الوهاب سنة ١٩٠هـ، وخلفه ابنه أفلح الذي يكنى أبا سعيد، واستمرت إمرته إلى أن توفي سنة ٢٠٥هـ، فكان قسم من هذه الإمرة في أيام خلافة محمد الأمين، وبعد أفلح خلفه ابنه أبو بكر، وقد اضطرب أمره فأخرجه أهل «تياهرت» ثم أعادوه. واستمرت إمارة بني رستم حتى عام ٢٩٧هـ، حيث قضى عليهم العبيديون.

أما إمارة الأدارسة فقد أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد اشترك مع ابن عمه الحسين بن

علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، في ثورته أيام الخليفة العباسي موسى الهادي، وقُتل الحسين في معركة فخّ سنة ١٦٩هـ، وانهزم إدريس إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ، ونزل بمدينة «وليلى» على مقربةٍ من مدينة مكناس، وهي المعروفة اليوم بقصر فرعون، وكان كبيرها يومئذٍ إسحاق بن محمد فعرّفه إدريس بنفسه، فأجاره وأكرمه، ثم جمع البربر للقيام بدعوته، وخلع طاعة بني العباس، فتمّ له الأمر يوم الجمعة ٤ رمضان ١٧٢هـ. فجمع جيشاً كبيراً وغزا بلاد (تادلة) ففتح معاقلها، ورجع إلى (وليلى)، ثم غزا تلمسان وأخذ بيعة أميرها، وارتفع شأن إدريس بن عبد الله حتى توفي سنة ١٧٧هـ. وقام بشؤون البربر بعده مولاه راشد باسم إدريس الثاني بن إدريس بن عبد الله والذي كان لا يزال جنيناً في بطن أمه عندما توفي أبوه.

قُتل راشد، فكفل إدريس الثاني أبو خالد العبدي، وباشر إدريس الثاني سلطته سنة ١٨٨هـ، وقد بلغ من العمر أحد عشر عاماً، وبنى مدينة «العالية» في المكان المعروف باسم «دار القيطون»، وهي مقابل مدينة «فاس» يفصل بينهما وادٍ صغير، وهو رافد من روافد نهر «سبو»

الذي تقع مدينة «فاس» قريبةً من ضفته اليسرى. وقد سكن في هاتين المدينتين الذين فرّوا من الأندلس بعد معركة «الرَّبَض» سنة ١٨١هـ، وبقي إدريس الثاني في الحكم حتى سنة ٢١٣هـ حيث توفي بمدينة «فاس». وانتهت دولة الأدارسة سنة ٣١٢هـ.



الأندلس

أسس عبد الرحمٰن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إمارةً في الأندلس منفصلةً عن ديار الخلافة في المشرق، وحكم الأندلس مدة أربعٍ وثلاثين سنة ١٣٨ ـ ١٧٢هـ، وخلفه ابنه هشام الذي حكم مدة ثمان سنواتٍ ١٧٢ ـ ١٨٠هـ، ونازعه على الإمرة أخوه سليمان الذي هو أكبر منه، وقد أخذ البيعة لنفسه في مدينة «طليطلة» غير أنه قد هُزم أمام أخيه هشام سنة ١٧٤هـ، ونُفي إلى المغرب.

وخلف هشام ابنه الحكم[1] الذي عُرف بـ«الربضي» نسبةً إلى حيّ الربض بقرطبة الذي هدّمه،

---

(١) الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أبو العاص: ولد في قرطبة سنة ١٥٤هـ، من فحول ملوك بني أمية بالأندلس، وأول من جعل للملك أبهةً، وهو الذي مهّد الملك لمن جاء بعده، يباشر الأمور بنفسه، يتخذ الحيل للوصول إلى أغراضه، شديداً جباراً، هابه الناس، كثير العناية بالعلم والأدب، خطيباً، له شعر، توفي بقرطبة سنة ٢٠٦هـ.

وأمر أن يُحرث ويُزرع مكانه، فاضطر عدد من أهله إلى النزوح عنه ومغادرة الأندلس، فاتجه بعضهم إلى المغرب، واستقرّوا هناك عند الأدارسة، وبين قبائل البربر، وركب بعضهم الآخر البحر، ووصلوا إلى مصر، ونزلوا بالاسكندرية، وذلك أن أهل حيّ الربض كانوا قد اختلفوا مع جنديٍ لأمرٍ بسيطٍ فأخذتهم الحمية فاجتمعوا وساروا إلى قصر الحكم فحاصروه، فأرسل الأمير (الحكم) سرّاً من أشعل النار بحيّ الربض، فاضطر المحاصرون إلى أن يتركوا مواقعهم ويتجهوا إلى حيّهم لإطفاء الحريق، فأرسل الحكم لهم قوةً جعلتهم يخنعون، وأمر بهدم الحيّ، فنُسب بعدها إلى ذلك الحيّ بسبب هذه العملية، وكذا تحرّك أهل طليطلة ضدّه فبدت عليهم علائم الفتنة، ولكن قضى عليها بالحيلة قبل أن تقع، ذلك أنه ولّى على مدينتهم عمروس بن يوسف الذي أظهر كرهاً للأمير (الحكم) فركن أهل المدينة إليه فدعا كبارهم إلى وليمةٍ بالقلعة، وتخلّص منهم وذلك سنة ١٨١هـ. ونازعه الحكم عمّاه سليمان وعبد الله، أما سليمان فكان في طنجة، فعبر إلى الأندلس بقوةٍ من المرتزقة، ولكنه هُزم وقُتل سنة ١٨٤هـ. وأما عمه الآخر عبد الله فقد كان عند الخوارج الأباضيين في «تياهرت» بالمغرب الأوسط فانتقل إلى

الأندلس غير أنه هُزم، وعفا عنه ابن أخيه الذي هو الأمير الحكم، وأجبره على الإقامة في مدينة «بلنسية» ويدفع له راتباً سنوياً ضخماً.

استمرت إمرة الحكم الربضي ستاً وعشرين سنة ١٨٠ ـ ٢٠٦هـ.



الخلاصة

كانت خلافة محمد الأمين بن هارون الرشيد التي دامت أربع سنواتٍ وثمانية أشهرٍ من وفاة والده هارون الرشيد ليلة السبت لثلاثٍ خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ إلى مقتل محمد الأمين يوم الأحد ٤ صفر سنة ١٩٨هـ، كانت هذه المدة كلها صراعاً بين محمد الأمين في بغداد وأخيه عبد الله المأمون في خراسان. وكان أصحاب كل طرفٍ يُحرّضون صاحبهم ضدّ الطرف الثاني يمنّونه بالنجاح ويعدونه بالنصر.

في خراسان كان الحاقدون المتلوّنون يُذكّرون المأمون دائماً أنه واحد منهم وهو سيّدهم، وهم عَصبة له، فأمّه منهم، وهم فداء له، يعدونه ويُمنّونه، ويفترون الكذب على أخيه، ويُصدرون الشائعات ضده ـ ومن المؤسف أن التاريخ قد حفظ لنا أكثر هذه الشائعات وتلك الافتراءات حيث دوّنوها وعملوا على نقلها إلى أن اهتمّ بتدوين التاريخ فنقلوها له رواية وقد أوجدوا لها سنداً زوراً.

وفي بغداد كان المحرّضون فريقين: أحدهما من المتلوّنين الحاقدين كي تُبعد شبهة العصبية، وحتى تُحكَم

الخطة إذ هما في الطرفين يُثيرون الفتنة ويُشعلون النار من جديدٍ كلما خفتّ أوارها قليلاً كي تبقى متأججةً باستمرارٍ تأتي على من أشعلت له ليكون وقودها. والفريق الآخر ممن هم بجانب محمد الأمين ما دام الخليفة وإن كانوا لا يحملون حقداً ولا يعرفون تلوّناً غير أنهم يخشون من انتصار خصمه فتقع الكارثة فوق رؤوسهم ما داموا في الجانب المقابل والطرف المواجه لذا كانوا يُشجّعون صاحبهم، ويدعونه إلى التمسّك بحقه والمحافظة على مكانه.

استمر التحريض من أصحاب كلا الطرفين مدة سنتين؛ أي منذ بدء خلافة الأمين حتى منتصف جمادى الآخرة من عام ١٩٥هـ، وكان نتيجة ذلك أن اشتدّ الخلاف، وصدرت تعليمات، وجرت أحداث تُؤدّي كلها إلى صراعٍ، ولا يحسمها إلا القتال. وبدأ الصدام بين الجانبين، وتم النزال في عدة جهاتٍ، وكان الأمر ينتهي في كل مرةٍ لمصلحة التخطيط وإلى الجانب الأكثر مكراً، وإلى الطرف الأشدّ دهاءً؛ فكان أصحاب المأمون يُحقّقون النصر بعد النصر والفوز إثر الفوز.

وتتابع تقدّم أعوان عبد الله المأمون حتى حوصر محمد الأمين في بغداد مع بداية عام ١٩٧هـ، واستمرّ ذلك ثلاثة عشر شهراً، ومع الحصار يتخلّى الأصحاب

شيئاً فشيئاً وتضعف النفوس تدريجياً، وأخيراً قُتل محمد الأمين في بداية الشهر الثاني في سنة ١٩٨هـ.

ومع زوال راعٍ عن الساحة بعد قتالٍ، وغياب مسؤولٍ من الميدان بعد نزالٍ تكثر الأخبار الكاذبة وتزيد الروايات المفتراة، وهذا أمر عادي فكيف إن كان هناك من يُشيعها، وكانت هناك جماعات تُروّجها، وكانت أحقاد تُغذّيها، ومصادر تشحنها، وقد احتفظت الكتب ـ مع الأسف ـ بتلك الأخبار والروايات، وقبلها الناس غفلةً وجهلاً، وهذا أكثر ما يُشوّه تاريخنا ويُسيء له.

ومما يجب الانتباه إليه أن المتلوّنين كانوا يسمّون أبناءهم عليّ، والحسين كثيراً، وذلك زيادةً في التمويه وإظهار محبة صحابة رسول الله ﷺ، دلالةً على حسن الإسلام، غير أنهم بالواقع لا يقصدون علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بل يقصدون عليّ الأصغر بن الحسين «زين العابدين»[1] لأن أمه أم ولد، وهي ابنة ملك الفرس

---

(١) علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، أبو الحسين، ويقال: أبو عبد الله، ويقال: أبو محمد: ولد سنة ثمانٍ وثلاثين، وكان يوم كربلاء مع أبيه الحسين، رضي الله عنه، وكان عمره يومذاك ثلاثاً وعشرين سنة، ولم يقاتل يومها إذ كان موعوكاً، ولا تعرّض له أحد، =

«يزدجرد»، والتي عُرفت باسم «سلافة» أو «سلّامة». وكان علي زين العابدين هذا رحمه الله، رجلاً ذا دينٍ وفقهٍ وعلمٍ وفضلٍ غير أن المحبة ـ المزعومة ـ لم تكن لهذا فهذا لا يتفق والأهداف البعيدة بل كانت عصبيةً للأم، وتغطيةً لواقع النفوس، وتعميةً للمرمى، ودريئةً يُتّقى بها، وتأكيداً فإنهم لا يُسمّون الحسن بل لا يُحبّون صاحب هذا الاسم الأساسي الحسن بن عليّ رغم أنه أخو الحسين بن علي الذي يزعمون محبته رضي الله عنهم جميعاً. وهناك فرق بين متلوّنين حاقدين عقيدةً وعصبيةً وبين تابعين ومقلّدين ومردّدين عاطفةً وغفلةً، وإن كان الزمن والوراثة يلوثان ويُلحقان بعض العصبية ويشحنان شيئاً من الحقد والضغينة دون تخطيطٍ مرسومٍ ولا تصميمٍ مقصودٍ.

= بل أخذوه مع آله إلى دمشق، فأكرمه يزيد، وردّه مع آله إلى المدينة، حدّث عن أبيه، وعن عمه الحسن، وعن أمهات المؤمنين عائشة، وأم سلمة، وصفية، وعن أبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وسعيد بن المسيّب، وعمرو بن عثمان بن عفان، ومروان بن الحكم، وذلك في الصحيحين، ولم يكن مكثراً من الرواية. وحدّث عنه عدد. وهو علي الأصغر، أما أخوه علي الأكبر فقد قتل مع أبيه بكربلاء.

لم يكن للحسين نسل إلا من علي زين العابدين. وتزوج علي زين العابدين، من ابنة عمه أم عبد الله بنت الحسن. وتوفي سنة أربعٍ وتسعين، وقبره بالبقيع.

الفصل الثالث

الجهاد في عهد محمد الأمين

إن دراسة المرويات، والنظر في الأخبار، والخبرة في النفوس كلها تُشير إلى أن روح الجهاد قد خبت، والهمّة قد فترت، والرغبة قد خفّت، وبعض الينابيع قد جفّت، والفكرة قد قلّت، والدعوة له قد نقُصت وذلك لـ:

١ ـ الإخلاد إلى الأرض بعد أن ورث الناس ما جاء إلى أسلافهم المجاهدين من مغانم مما قاموا به من فتوحاتٍ ودعوةٍ، إذ جاءتهم المغانم أحمالاً، وأتاهم السبي أرتالاً، وقدمت إليهم الخيرات أثقالاً، ووفدت عليهم جماعات من الشعوب إخوةً مؤمنين أو خاضعين معاهدين، فأغرت الحياة الدنيا الخلف فاتّخذوا الخدم والجواري والعبيد والموالي والتفتوا هم إلى الدنيا فنهلوا من معين الأرض، وأخذوا من مناهل الطيّبات، ونسوا ما قدّم أسلافهم، وغابت عنهم مهمتهم في الحياة من دعوة الناس إلى الدين الحق، والعمل لإخراجهم من

عبادة العبيد إلى عبادة خالق العبيد وخالق الناس جميعاً، وفاطر السموات والأرض، وإنقاذهم من ضيق الدنيا إلى سماحة الإسلام وسعة الآخرة، ومن الظلمات إلى النور، فأذهب هؤلاء الخلف بعض طيّباتهم في الحياة الدنيا واستمتعوا بها.

٢ ـ الخلافات التي وقعت بينهم نتيجة السعي إلى الدنيا فشغلتهم عما سواها إذ انصرفوا إليها، وكان بأسهم بينهم شديداً، وإذا كانت الخلافات على الدنيا قد تبدأ بالرأس إلا أنها قد تعدّت ذلك وأصبحت تقع بين الجماعات لأتفه الأسباب، وتكون العصبيات للإقليم وللمدينة، للرأي وللتجمّع، للأعيان وللأتباع، للقبيلة ولبطونها، ولا يؤدّي المرء دوره ولا يقوم بمهمته بالنصح والدعوة للإصلاح فزادت الخلافات. وقد أوقد المتلوّنون نارها، وزادوا أوارها، ونثروا شرارها لتلتهب الأرض حيث وقع، فقد أثاروا أحقاد الجاهلية بين بطني عبد مناف، بني هاشم وبني أمية وسحبوا ذلك على مرحلة الإسلام، وأوقدوا النار فسلّطوا الأضواء على تاريخ الهاشميين في الإسلام وركّزوا على السابقين منهم، وعتّموا على المحجمين على حين وجّهوا كامل العناية على تاريخ بني أمية والمقاومين منهم والمتخلفين

وتناسوا السابقين المتقدّمين الباذلين المهاجرين. كما أشعل المتلوّنون الفتيل في مرحلة الإسلام بين فخذي بني هاشم من آل أبي طالب وآل العباس، وكانوا تارةً إلى هذا الجانب وأخرى إلى ذاك، وبعد مدةٍ يُبدّلون الموقف ويُغيّرون التيار، وعندما رجحت كفّة بني العباس أخذوا بإثارة الفتن بين أفرادهم: بين المنصور وبين عمّه عبدالله بن عليّ، بين المنصور وبين ابن أخيه عيسى بن موسى، بين المهدي وبين ابن عمه عيسى بن موسى، بين المأمون وأخيه الأمين و.... ثم يعودون لضرب بني العباس بآل أبي طالب، وتستمر الفتن...

هذه الخلافات أضعفت الأمة، وحطّت من كيانها، وصرفتها عن مهمتها، فشعر الأعداء بالنشاط، وتنفّسوا الصعداء، وكان أول المتنفّسين المتلوّنون الذين يعملون على الهدم من الداخل، ثم الروم الذين يعملون على الضرب من الخارج، وهما جناحا العداوة للإسلام الفرس والروم.

٣ ـ المال: لما كان المال أحد جوانب زينة الحياة الدنيا، وكان كثير من الناس قد انصرفوا إلى الدنيا يسعون وراء زينتها، ويحرصون على مباهجها، ويتسابقون إلى مفاتنها لذا هرع كثير منهم إلى المال،

وسلكوا طرق الوصول إليه، وكان الانتظام في القتال مجالاً للنيل منه وخاصةً أن الغنائم قد قلّت فأراد بعضهم التعويض عن ذلك، فتمّ لهم، فالعصر وقت سعيٍ للنيل من مزيد، فانتظم كثيرون في القتال للحصول على ذلك، فكان سيرهم وراء ما يبغون، وابتغاؤهم غير ما كان يبغيه أسلافهم من جهادٍ لنيل الشهادة في سبيل الله، كما أن الرعاة والقادة يريدون تحقيق ظفرٍ على أعدائهم يرفعون به مكانتهم، ويبنون شيئاً من مجدهم، ويُسكتون به خصومهم فيحترمهم الأعوان، ويهابهم المنافسون وأصحاب الأطماع، وفي الوقت نفسه يخافهم الأعداء في الخارج فلا يتجرّؤون بالاعتداء على الثغور، ولا يُفكّرون بالهجوم على الحدود، ولا يُشجّعون أنفسهم بالغارات على الحصون، كما أن الهزيمة أمام العدو تُضعف الهيبة، وتوجد المنافسة على السلطان، وتُشجّع أصحاب الأطماع، وتُشير إلى نهاية العزّ، لذا غدا الرعاة يبذلون الأموال من أجل زيادة المقاتلين لتحقيق النصر ـ حسب زعمهم ـ أو على الأقلّ لتأمين الحدود وإرهاب الأعداء، ومن كان هدفه المال كان قتاله متراخياً، يُظهر الشجاعة وهي مفقودة، ويُبدي الحماسة وهي غير موجودة، يسير للحرب وهو يُفكّر بالمال، يبتعد عن أهله وقلبه عندهم، يخرج من دياره

وأمله بالعودة، وينأى عن وطنه وهمّه الرجوع، فمن أين يأتي الفوز؟ ومن أين يكون النصر؟ من يذهب إلى القتال من أجل المال لا يحصل إلا على المحال، ومن يسير إلى الحرب بالأجرة لا ينال إلا الخسران، وبذا غدا الجهاد في سبيل الله قتالاً في سبيل تعزيز الموقع، وصدّ العدوّ، وردّ قواته.

٤ ـ القيادة: قاد صحابة رسول الله ﷺ الجيوش فكان القادة والجند يعرفون معنى الجهاد ويُدركون مراميه، فهم ينطلقون لنيل إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة، فالنصر فوز للإسلام، وانتشار لدعوته، واتساع لرقعته، وتأدية لواجبهم، وتحقيق لمهمتهم، وعزّ للمسلمين جميعاً، والشهادة نيل للفوز العظيم وذلك هو الجنة لذا كانوا يخوضون غبار الحرب مبتهجين بالأمل لنيل الشهادة وما يعقبها من جنةٍ عرضها السماوات والأرض، ويُلقون بأنفسهم أمام الأعداء الذين يبغون الحياة، فيفرّ طالب الحياة في الدنيا، الراغب بالنجاة بنفسه، ويظفر من يُقدّم نفسه للحياة في الآخرة، فأي طالبٍ للحياة في الدنيا يقف أمام من يسعى إلى نيل الشهادة، فهو يحصد برؤوس الأعداء يمنةً ويسرةً، ويرمي بنفسه بمواطن الخطر ـ حسب اصطلاح أولئك ـ

عسى أن يحصل على ما يسعى إليه، فهو قد باع نفسه لله مقابل الجنة وعداً من الله، وودّع أهله على أمل أن يلقاهم بالجنة، وفارق وطنه الموقت رجاء أن يُبدله الله بدار النعيم المقيم في جنة الخلد، فهذا المجاهد لا يُقهر ـ بإذن الله ـ وهذه انتصارات المسلمين تشهد بذلك، وهذا سبب انتشار الإسلام، واتساع رقعة دياره، وقد عرف الأعداء هذا من خلال تاريخهم مع المسلمين، ومن خلال معاركهم مع المجاهدين، فكان دويّ عبارة «الله أكبر» يهزّ كيانهم، ويُلقي الرعب في نفوسهم، فلا تثبت أقدامهم، ولا تقف أجسامهم بل ترتعد فرائصهم، ويُولّون الأدبار، تاركين جثث جبنائهم ملقاةً على الأرض، وقد نجا من كان أقلّ جبناً.

ثم كان الخلفاء يتقدّمون أمام المجاهدين أو يبعثون أبناءهم أو إخوانهم، فإضافةً إلى ما في نفوسهم من روح الجهاد فإن النصر يحمل اسمهم، والفتوحات تُسجّل ذكرهم، كما أنهم يُحبّون أن يظهروا أمام رعيتهم من الجند أسوداً فيقتحمون صفوف الأعداء، ويخوضون غمار القتال، ويُلقون أنفسهم وسط كل معمعةٍ، يُبدون البطولة وتظهر منهم ضروب من الشجاعة وفنون الحرب، ويندفع جندهم كذلك يحمون قائدهم ويدفعون

عنه، ويحاولون السير على منواله بالقتال والاندفاع مثله نحو الأعداء واقتحام صفوفهم، ويكون النصر ـ بإذن الله ـ وهذه الانتصارات التي أحرزها المسلمون في أكثر معاركهم جعلت مخططات الأعداء الأساسية هي إماتة فكرة الجهاد لدى المسلمين، وإثارة الفتن بينهم، وإيقاع الخلاف بين صفوفهم، وهذا ما حدث من خلافاتٍ أيام محمد الأمين.

ثم أصبح الخلفاء يُكلّفون أحد المقاتلين بالقيادة ممن عُرفوا بالشجاعة والإقدام أو سبقت لهم الإمرة فأبلوا البلاء الحسن، وهذا عامةً دون ما قد سبق فلربما كان همّه نجاة نفسه أو حماية جنده ما دامت قد خفت فكرة الجهاد، وهذا ما زاد بالضعف إذ غدا الجهاد قتالاً عادياً أو غزواً موقتاً أو غاراتٍ انتقاميةً فيها معنى التأديب والإخافة معاً.

لم يبق من دولٍ ذات شأنٍ تشنّ الحرب على المسلمين وتجاور دار الخلافة سوى دولة الروم البيزنطيين، وهي تحرّك الأرمن والسلاف وبقية الإمارات التي تدين بالنصرانية الأرثوذكسية. أما شرقي ديار الخلافة فتتناثر إمارات وثنية قد يتحالف بعضها مع بعضٍ، وقد تختلف فيشنّ بعضها على بعضٍ القتال،

وربما هادنت إحداها المسلمين، وقد يُغير بعضها على ديار الإسلام، إن أحسّت بنفسها القوة، أو وجدت فِرقةً بين المسلمين أو شعرت بضعفٍ لديهم، ولكن غالباً ما كانت تقهر، فالجهاد إنما يتمثّل إلى حدٍ ما بالقتال مع الروم الذين تُشجّعهم الكنيسة، ويُغريهم اتساع مناطق نفوذهم، ويحلمون بعودة مكانتهم إلى ما كانت عليه قبل الإسلام.

شعر الروم بالسعادة لما يجري في ديار الإسلام من خلافٍ بين الأمين وأخيه المأمون، وطافت الآمال بالخيال، وأمنوا من جهاد المسلمين بهم في هذه المرحلة إذ ضعف شأنه، ووقع الخلاف بين المسلمين.

قُتل ملك الروم «نقفور» في حرب «بُرجان» سنة ١٩٣هـ بعد أن ملك سبع سنواتٍ، وخلفه ابنه «استبراق» فملك شهرين ومات. وحكم بعده زوج أخت نقفور، وهو ميخائيل بن جرجس، ثم ثار الروم على ميخائيل بعد أن حكمهم سنتين ففرّ منهم، وترهّب، وتملّك القائد ليون الروم، فساعد ضعف المسلمين التفات الروم بعضهم إلى بعضٍ.

أما في شرقي ديار الخلافة فكانت حركة رافع بن الليث لا تزال قائمةً منذ سنة ١٩٢هـ أيام هارون

الرشيد، وكان قد وجّه إليه هرثمة بن أعين.

كان هرثمة بن أعين يحاصر رافع بن الليث بن نصر بن سيّار في سمرقند سنة ١٩٣هـ، وقد تمكّن هرثمة من دخول حائط سمرقند، فلما شعر رافع بالخطر لجأ إلى المدينة الداخلة وراسل الترك فوافوه فصار هرثمة بين رافع والترك، ولكن لم يلبث أن انصرف الترك فضعف أمر رافعٍ فبعث في طلب الأمان لنفسه من المأمون، فسارع إلى ذلك هرثمة، وخرج رافع ولحق بالمأمون، وهرثمة بعد مقيم بسمرقند فأكرم المأمون رافعاً، وقد دخل بالأمان. ولما رأى رافع الخلاف بين الأمين والمأمون قد اشتدّ فرّ ولحق بالترك، فهدّدهم المأمون فتخلّوا عن رافعٍ، فدخل ديار الإسلام فقُتل عاصياً سنة ١٩٥هـ.



الفصل الرابع

شخصية محمد الأمين

• كان من أحسن الشباب صورةً، أبيض، طويلاً، جميلاً، ذا قوةٍ مفرطةٍ، وبطشٍ وشجاعةٍ معروفةٍ، يقال: إنه قتل مرةً أسداً بيده، وله فصاحة، وبلاغة، وأدب، وفضل. لكنه كان سيء التدبير، كثير التبذير، ضعيف الرأي، وكان مع سخائه بالمال بخيلاً بالطعام جداً.

• وقال أبو الحسن الأحمر[1]: كنت ربما أنسيت

---

(١) علي بن الحسن المبارك المعروف بالأحمر: شيخ النحاة في عصره. كان في صباه جندياً من رجال النوبة على باب الرشيد، وأخذ العربية عن الكسائي فنبغ، وأوصله الكسائي إلى الرشيد، فعهد إليه بتأديب أولاده، وتوفي بطريق الحج سنة ١٩٤هـ. وكان قوي الذاكرة يحفظ أربعين ألف بيتٍ من شواهد النحو. ناظر سيبويه في مجلس يحيى بن خالد البرمكي. صنّف من الكتب: «تفنن البلغاء» و«التصريف».

البيت الذي يُستشهد به في النحو، فينشدنيه الأمين، وما رأيت في أولاد الملوك أذكى منه ومن المأمون.

• ومن شعر الأمين يخاطب أخاه المأمون، ويُعيّره بأمّه «مُراجل» لما بلغه عنه أنه يُعدّد مثالبه، ويُفضّل نفسه عليه:

لا تفخرنّ عليك بعد بقية
والفخر يكمل للفتى المتكامل
وإذا تطاولت الرجال بفضلها
فارْبَعْ فإنك لست بالمتطاول
أعطاك ربك ما هويت وإنما
تلقى خلاف هواك عند مُراجل
تعلو المنابر كل يومٍ آملاً
ما لست من بعدي إليه بواصل
فنعيب من يعلو عليك بفضله
وتُعيد في حقي مقال الباطل

• ولما يئس من المُلك وعلا عليه طاهر بن الحسين قال:

يا نفس قد حقّ الحذر
أين المفرّ من القدر؟

كــل امــرئٍ مــمــا يــخــا
ف ويـرتـجـيـه عـلـى خـطـر
مــن يـرتـشـف صـفـو الـزمـا
ن يــغــصّ يــومــاً بــالــكــدر

• ويُذكر أن الأمين قال لكاتبه: اكتب «من عبد الله محمد أمير المؤمنين إلى طاهر بن الحسين، سلام عليك. أما بعد، فإن الأمر قد خرج بيني وبين أخي إلى هتك الستور، وكشف الحرم، ولست آمن أن يطمع في هذا الأمر السحيقُ البعدُ لشتات أُلفتنا واختلاف كلمتنا، وقد رضيت أن تكتب لي أماناً لأخرج إلى أخي، فإن تفضّل عليّ فأهل لذلك، وإن قتلني فمروة كسرت مروةً، وصمصامة قطعت صمصامةً، ولأن يفترسني السبع أحبّ إليّ من أن ينبحني الكلب». فأبى طاهر عليه.

• قال الصولي: ولا نعرف للأمين روايةً في الحديث إلا هذا الحديث الواحد: حدثنا المغيرة بن محمد المهلبي قال: رأيت عند الحسن بن الضحاك جماعة من بني هاشم فيهم بعض أولاد المتوكل، فسألوه عن الأمين وأدبه، فوصف الحسين أدباً كثيراً، قيل: فالفقه، قال: كان المأمون أفقه منه، قيل: فالحديث، قال: ما سمعت منه حديثاً إلا مرةً، فإنه نُعي إليه غلام له مات بمكة،

فقال: حدثني أبي، عن أبيه، عن المنصور، عن أبيه، عن علي بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أبيه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (من مات محرماً حُشِر مُلبّياً)[1].

• بلغ الرشيد بعض شعر أبي نواس يهجو مضر، فأمر بحبسه، فلم يزل محبوساً حتى ولي محمد الأمين، فقال يمدحه:

تذكّر أمينَ الله والعهدُ يذكرُ
مُقامي وإنشاديك والناس حضّرُ
ونثري عليك الدرَّ يا درَّ هاشمٍ
فيا من رأى درّاً على الدرّ يُنثرُ
أبوك الذي لم يملك الأرض مثلُه
وعمُّك موسى عدلُه المتخيّرُ
وجدّك مهدي الهدى وشقيقه
أبو أمّك الأدنى أبو الفضل جعفرُ
وما مثلُ منصوريْك: منصور هاشمٍ
ومنصور قحطانٍ إذا عُدّ مفخرُ
فمن ذا الذي يرمي بسهميْك في العُلا
وعبد منافٍ والداك وحِمْيَرُ

(١) تاريخ الخلفاء.

فتعنّت جارية بهذه الأبيات، فقال الأمين: لمن الأبيات؟ فقيل له: لأبي نواس، فقال: وما فعل؟ فقيل له: محبوس، فقال: ليس عليه بأس، قال: فبعث إليه إسحاق بن فراشه وسعيد بن جابر أخا محمد الأمين من الرضاعة، فقالا: إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة، فقال: ليس عليه بأس، فقال له أبياتاً، وبعث بها إليه، وهذه الأبيات هي:

أرقت وطار عن عيني النعاس
ونام السامرون ولم يواسوا
أمينَ الله قد مُلّكت مُلكاً
عليك من التقى فيه لباس
ووجهك يستهلّ ندىً فيحيا
به في كل ناحيةٍ أُناس
كأنّ الخلق في تمثال روحٍ
له جسد وأنت عليه راس
أمينَ الله إن السجن بأس
وقد أرسلت: ليس عليك باس

فلما أنشده قال: صدق، عليّ به، فجيء به في الليل، فكُسرت قيوده، وأخرج حتى أُدخل عليه، فأنشأ يقول:

مرحباً مرحباً بخير إمامٍ
صيغ من جوهر الخلافة نحتا
يا أمين الإله يكلؤك اللـ
ـه مقيماً وظاعناً حيث سرتا
إنما الأرض كلها لك دار
فلك الله صاحب حيث كنتا
يا شبيه المهديّ جوداً وبذلاً
وشبيه المنصور هدياً وسمتا

قال: فخلع عليه، وخلّى سبيله، وجعله من ندمائه.

وذُكر عن عبد الله بن عمرو التميمي، قال: حدّثني أحمد بن إبراهيم الفارسي، قال: شرب أبو نواس الخمر، فرُفع ذلك إلى محمد الأمين في أيامه، فأمر بحبسه، فحبسه الفضل بن الربيع ثلاثة أشهرٍ، ثم ذكره محمد الأمين، فدعا به وعنده بنو هاشم وغيرهم، ودعا له بالسيف والنطعُ يُهدّده بالقتل، فأنشده أبو نواس:

تذكّر أمين الله والعهد يذكر
مُقامي وإنشاديك والناس حُضّر

. . . .

. . . .

القصيدة السابقة وزاد فيها:

تحسّنت الدنيا بحسن خليفةٍ
هو البدر إلا أنه الدهر مقمر
إمام يسوس الناس سبعين حجّة
عليه له منها لباس ومئزر
يُشير إليه الجود من وجناته
وينظر من أعطافه حين ينظر
أيا خير مأمولٍ يُرجّى، أنا امرؤ
رهين أسير في سجونك مُقفر
مضى أشهر لي مذ حبست ثلاثة
كأني أذنبت ما ليس يُغفر
فإن كنت لم أذنب ففيمَ تَعَقُّبي
وإن كنت ذا ذنبٍ فعفوك أكثر

فقال له محمد الأمين: فإن شربتها؟ قال: دمي لك حلال يا أمير المؤمنين، فأطلقه، قال: فكان أبو نواس يشمّها ولا يشربها وهو قوله:

أيها الريحان باللوم لوما
لا أذوق المُدام إلا شميما
نالني بالملام فيها إمام
لا أرى في خلافه مستقيما

• كان الأمين سبطاً أنزعَ أبيض، صغير العينين، أقنى، جميلاً، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، وكان مولده بالرصافة.

• يكنى أبا موسى، وقيل: أبو عبد الله.

• كان عمره يوم قُتل ثماني وعشرين سنة[1].

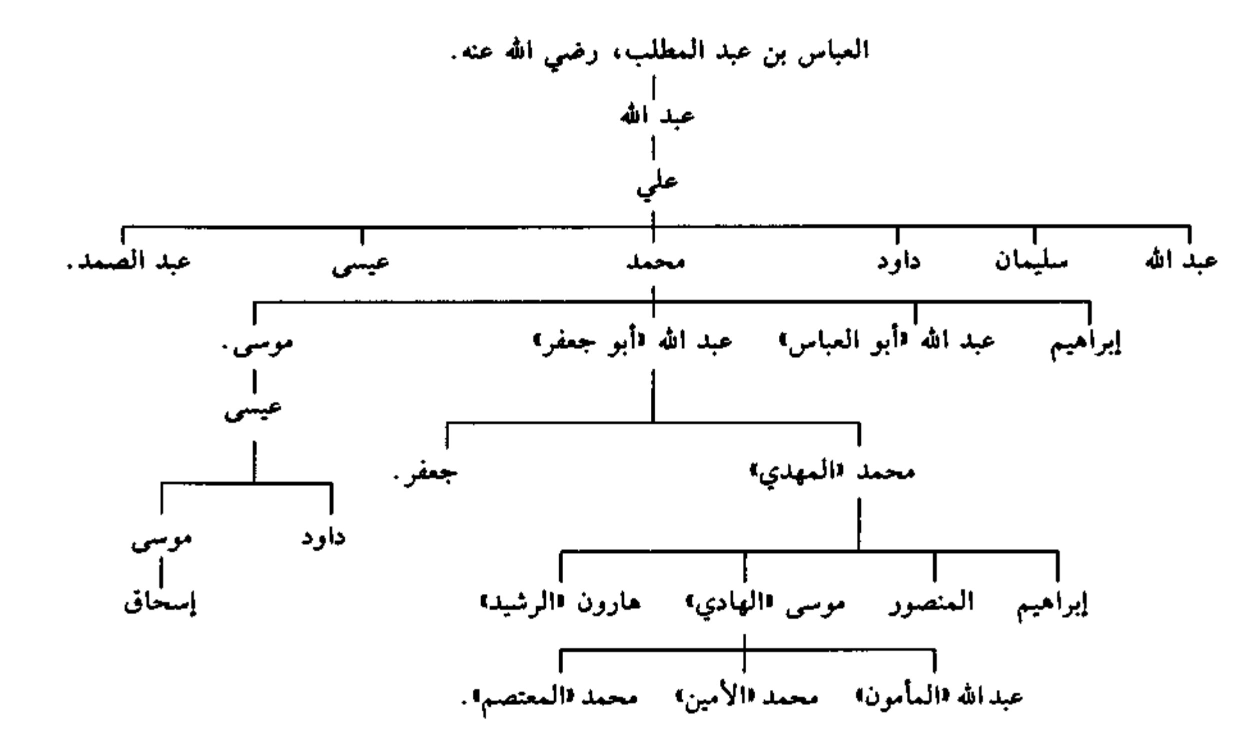


(١) تاريخ الطبري.

الباب الثاني

٢٤ـ عبدالله المأمون

١٩٨ - ٢١٨هـ


العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه.
عبد الله
علي
عبد الله
سليمان
داود
محمد
عيسى
عبد الصمد.
إبراهيم
عبد الله «أبو العباس»
عبد الله «أبو جعفر»
موسى.
عيسى
محمد «المهدي»
جعفر.
داود
موسى
إسحاق
إبراهيم
المنصور
موسى «الهادي»
هارون «الرشيد»
عبد الله «المأمون»
محمد «الأمين»
محمد «المعتصم».

الفصل الأول

المأمون قبل الخلافة

ولد عبد الله المأمون ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠هـ، وهي الليلة التي مات فيها عمّه موسى الهادي، واستُخلف فيها أبوه هارون الرشيد.

وأمّه أم ولدٍ من أصلٍ فارسيٍّ تُدعى «مُراجل» وتُنسب إلى بلدةٍ من بلدان «هراة» تُسمّى «باذغيس»، فيُقال «مُراجل الباذغيسية»، وقد ماتت في نفاسها بالمأمون.

لما لم يكن لهارون الرشيد أبناء عندما آلت إليه الخلافة ورُزق بولده الأول يومها، وهو المأمون، ورُزق بولده الثاني وهو الأمين لثلاث عشرة ليلةً خلت من شهر شوال في السنة نفسها، فكان أبناؤه أطفالاً في أول عهده بالخلافة، لذا امتدت أعناق بعض بني العباس إلى ولاية العهد، ولكن الرشيد يريدها لأولاده، وكان يرغب

في تقدمة ولده عبد الله المأمون بصفته أكبر أبنائه ولما لاحظ عليه من نجابةٍ وذكاءٍ، وحزم ورفعةٍ، إضافةً إلى العاطفة الخاصة له نتيجة وفاة أمه. غير أن هناك قوىً ضاغطة أخرى فأم محمد الأمين زبيدة بنت جعفر ابنة عمّ الرشيد لها مكانتها ولها ضغطها، وترغب بالخلافة لابنها وإن كان أصغر من أخيه المأمون بسبعة أشهر، فهي عباسية وجدّها أبو جعفر المنصور، كما أن بني العباس يريدون أن يكون الخليفة عباسياً أماً وأباً، ويعملون لذلك، ويضغطون على الرشيد بذلك.

بايع الرشيد سنة ١٧٥هـ لابنه محمد الأمين بولاية العهد، وعمره لم يتجاوز السنة الخامسة بعد، وهذا ما جعل بعض بني العباس الذين يحلمون بالخلافة ينكرون فعل الرشيد، ويقولون: ولي العهد الطفل. غير أن الرشيد بقي يميل إلى جانب المأمون لما يرى فيه من اتزانٍ، ولِيُتمه، ولسنّه التي هي أكبر من سنّ الأمين ولو بأشهرٍ قليلةٍ، لذا بايع للمأمون من بعد الأمين في مطلع سنة ١٨٢هـ بعد أن رجع من حجّ سنة ١٨١هـ، وكانت البيعة بالرقة، ثم أرسله إلى بغداد حيث أُخذت له البيعة هناك أيضاً، وكان المأمون قد بلغ الثانية عشرة من العمر، فشعر بالمكانة فازداد اتزاناً، وأصبح إلى العلم

أكثر التفاتاً، ثم بايع الرشيد لولده الثالث القاسم بعد المأمون وسمّاه المؤتمن، وهو أصغر من أخويه المأمون والأمين بثلاث سنواتٍ حيث ولد سنة ١٧٣هـ، وأمه أم ولد تُدعى «قصِف».

ولّى الرشيد ابنه عبد الله المأمون على المنطقة الممتدة من «همذان» إلى مشرق ديار الإسلام، وولّى ابنه محمد الأمين على العراق والشام إلى المغرب، وولّى ابنه القاسم المؤتمن الجزيرة الفراتية والثغور والعواصم، ولما كان صغيراً كان المأمون ينظر بأمر هذه الأمصار باسم أخيه المؤتمن.

وبعد أداء الرشيد للحجّ سنة ١٨٦هـ، كتب يوم السبت لسبع ليالٍ بقين من شهر المحرم سنة ١٨٧هـ العهود لولديه وليي عهده الأمين والمأمون وأشهد الشهود، كما أخذ الشروط على ولديه كلٌّ تجاه الآخر.

وفي سنة ١٨٩هـ أشهد هارون الرشيد القضاة وغيرهم من الرجال أن جميع ما له في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكُراع وما سواه أجمع لولده عبد الله المأمون وأنه ليس له فيه قليل ولا كثير بوجه ولا بسبب. وجدّد له البيعة على ما كان معه. وأرسل صاحب حرسه هرثمة بن أعين إلى بغداد، فأعاد

أخذ البيعة على ولده محمد بن هارون لعبد الله المأمون والقاسم المؤتمن.

جعل هارون الرشيد أمر خلع القاسم وإقراره إلى ولده عبد الله المأمون إذا آلت إليه الخلافة.

هذه الأمور التي قدّمها هارون الرشيد لولده عبد الله المأمون جعلت شيئاً في نفس محمد الأمين الذي هو ولي العهد، وفي الوقت نفسه أحسّ بها المأمون فأصبح يخشى عاقبتها.

وغزا الرشيد سنة ١٩٠هـ أرض الروم، وكان على رأس الصائفة، واستخلف ابنه المأمون بالرقّة، وفوّض إليه الأمور، وكتب إلى الأمصار بالسمع والطاعة.

وخرج الرشيد من بغداد سنة ١٩٢هـ، وتوجّه إلى خراسان لقتال رافع بن الليث بن نصر بن سيّار، واستخلف على بغداد ابنه محمد الأمين، فسأل المأمون أباه الرشيد أن يخرج معه خوفاً من غدر أخيه الأمين، إذ غدت النفوس تحذر بعضها من بعضٍ، فأبى الرشيد خروج المأمون معه. فقال المأمون: يا أبتِ أنت عليل، وأريد أن أخدمك، ولست أكلّفك شيئاً، فأذن له بالخروج، وسار معه. ووصل الرشيد مع ركبه إلى

«طوس»، واتّهم الرشيد قائد مقاتلي رافع بن الليث، وهو هرثمة بن أعين لذا فقد وجّه الرشيد ابنه المأمون إلى مرو، ومعه كبار القادة.

المأمون في خلافة الأمين:

توفي الرشيد بمدينة «طوس» في منتصف ليلة السبت لثلاثٍ خلون من جمادى الآخرة من سنة ١٩٣هـ، والمأمون بمرو، والأمين ببغداد، وكان مع الرشيد ابنه صالح، فأرسل صالح إلى بغداد الخادم رجاء ومعه الخاتم والقضيب والبردة، وأعلم الأمين بوفاة الرشيد، وعزّاه به، وأعطاه البيعة، فبايع الناس في بغداد للأمين، وانتظم له أمر الخلافة.

كان محمد الأمين قد أقرّ لأخويه عبد الله المأمون والقاسم المؤتمن ما قلّدهما أبوهما الرشيد. ولما شعر محمد الأمين بمرض أبيه واشتداد عِلّته أرسل كتباً سرّيةً إلى أخويه المأمون وصالح وإلى كبار القادة والأعيان، يُفهم منها الأمر بالسمع والطاعة والعمل بما يرى.

ووصل خبر وفاة الرشيد بطوس إلى ولي عهده محمد الأمين في بغداد، فعزّى نفسه الناس وأخذ البيعة، وانتظمت له الخلافة، وأخذ ما تضمره النفوس

يظهر للعلن، فالمنافسة بدت، والأطماع ظهرت، وأذكى ذلك كله الأعوان في الجانبين، وخاصة المتلوّنين الذين وُجدوا في الطرفين ليثيروهما دائماً فلا يتمّ تفاهم، ولا يصفو الجوّ بين الأخوين، كما أن الذين وقفوا بجانب محمد الأمين وتركوا عبد الله المأمون كانوا يخشون غلبة المأمون فينالهم منه أذى لذلك كانوا يُضرمون النار ويُذكونها بالعيدان كي لا تنطفئ شعلتها ولا تخمد جذوتها، وكان رؤوس المتلوّنين عند المأمون يُشجّعونه بأنه يعيش بين أخواله، والجميع يفدونه بأرواحهم، ويُقدّمون أبناءهم من أجل سلطانه، ويُثيرونه على أخيه، ويُظهرون القوة وانتظار المعركة الحاسمة.

وبرزت قرون الفتنة، وأُغري محمد الأمين بخلع أخيه عبد الله المأمون من ولاية العهد، وصرفها إلى ولده موسى بن محمد الأمين، وهذا يقتضي قطع الخطبة للمأمون والمؤتمن، وهذا ما تمّ، وفي الوقت نفسه أُغري المأمون بالعمل مستقلاً عن أخيه، فضُربت نقود خاصة به، وكذلك طُرّزت ثياب وكلاهما لا يحمل اسم الخليفة محمد الأمين. وكان كل تصرّفٍ من جانبٍ يُثير ضجّةً وردّ فعل في الطرف الثاني حتى اشتدّ الأمر، وإن كان كلا الأخوين إذا انفرد أحدهما لنفسه غلبت

عليه عاطفة الأخوة، وبدا عليه الحنو على الآخر، وظهرت عليه الرغبة في التنازل لأخيه وإنهاء الخلاف، وظهر هذا جليّاً في الكتب التي يتبادلانها، غير أن مكر الليل والنهار، وتخطيط شياطين الإنس والجنّ لم تترك مجالاً للتفاهم بل كانت تعمل لإشعال الحريق وإحراق المجتمع الإسلامي، وإن كانت لم تستطع الوصول إلى أهدافها وتحقيق مبتغاها لكنها ألهبت الفتنة وأوجدت ثغرةً في المجتمع، وأبقت صورةً سيئةً عن التاريخ الإسلامي بما دوّنت من أكاذيب، وما أشاعت من افتراءاتٍ، وما أضافت من أباطيل، وكل هذا ـ مع الأسف ـ نقله الرواة فسجّله مؤرخو الأحداث فبقي وصمةً لم نستطع التخلّص منها أو التبرؤ منها لأنه ثبت في المدوّنات، ورسخ في عقول من تناقلوه.

أخذت القادة من الطرفين يتجه بعضها نحو بعضٍ، وكان النصر يتحقّق لأصحاب المأمون إذ وراءهم من يعمل لأهدافٍ فيُخطّط ويمكُر، ويتحرّك بخطىً مرسومةٍ، أما قادة الأمين فمن كان منهم من المتلوّنين فهو يتحرّك وفق ما هو مرسوم له من الجانب الثاني فهم على الأمين وليس معه إلا بالكلام والإثارة والتحريض لإبقاء جذوة النار مشتعلةً، وأما من كان من

غير المتلوّنين فليس عنده الحماسة الكافية لما يعمل له إذ ليس هناك تباين واضح بين الأخوين المتنازعين سوى ما يُثيره أعوانهما بينهما بل كان همّ القائد منهم حماية نفسه عند سيطرة الطرف الآخر ما دام معدوداً خصماً، لذا كان هذا الجانب يتراجع باستمرارٍ.

بدأت الأمصار تنحاز إلى جانب المأمون وتُعطيه البيعة، وقادته تتفوق على جند أخيه وتتقدّم في الأقاليم التي تتبعه حتى ضاقت مساحة الأرض التي يخضع أهلها له، وحُصر في بغداد، وأخذ قادته يطلبون الأمان لأنفسهم وأهليهم من الطرف الثاني، وأصبح أعوانه يتخلون عنه حتى اضطر إلى تسليم نفسه.

غير أن المتلوّنين لا يعملون لانتصار طرفٍ على طرفٍ وإنهاء الموضوع بل لا بدّ عندهم من البقاء على الخلاف، واستمرار الفتنة، ووجود الحقد، وإحداث الانقسام في المجتمع الإسلامي، لذا أرسل طاهر بن الحسين مولىً له يقال له «قريش الدنداني» وأمره بقتل الخليفة محمد الأمين، فأرسل «قريش» مولاه خمارويه فقتله يوم الأحد لأربعٍ خلون من شهر صفر سنة ١٩٨هـ، وقيل: بل لخمسٍ بقين من المحرم.



الفصل الثاني

خلافة عبد الله المأمون

هدأت الأمور في بغداد بعد مقتل الخليفة محمد الأمين، وانتظمت الأمور لعبد الله المأمون، ودخل قائد المأمون طاهر بن الحسين بغداد، وصلّى الجمعة بالناس، وخطب خطبةً بليغة، وهدأ الناس بمدينة السلام غير أن الجند قد شغبوا على طاهر لأنه قتل الخليفة محمد الأمين وقد سلّم نفسه، كما أن القتل لم يكن برأي عبد الله المأمون الخليفة الجديد، بل هو من تصرّف طاهر بن الحسين الشخصي لما يهدف من وراء ذلك، على حين ما دُوِّن أن الجند قد شغبوا يطلبون الأرزاق.

وقد أدرك بعض العقلاء شيئاً من أهداف هذا الخلاف الذي أثاره المتلوّنون لذا تجاوز عن كل ما حدث، ودعوا إلى ذلك، وكانت استجابةً مقبولةً، ولم يحدث شيء.

ودخل المأمون على زوجة أبيه هارون الرشيد زبيدة بنت جعفر أم أخيه محمد الأمين بعد مقتل ابنها يعتذر إليها، ويُعزّيها فيه، ويُخفّف عنها ما ألمّ بها من الألم والحزن، إذ كاد قلبها ينفطر لهذه الحادثة، فقال لها: يا ستّاه، لا تيأسي عليه، فإني عوضه لك. فقالت: يا أمير المؤمنين، كيف لا آسف على ولدٍ خلّف أخاً مثلك؟ ثم بكت وأبكت المأمون حتى غشي عليه. وإن صبر زبيدة على ولدها، وإظهار تقديرها للمأمون، وعدم سخطها عليه قد جعله يحترمها ويُوقّرها، ويبالغ في خدمتها حتى قالت له يوماً: لئن فقدت ابناً خليفةً، لقد عُوّضت ابناً خليفةً، لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أمٌّ ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ، وإمتاعا بما عوّض[1]. ويبدو أن كلمات زبيدة قد أسرت مجامع قلب المأمون، وأُعجب بها وبصبرها الذي يُعدّ مضرب المثل. فقد ورد أنها دخلت على المأمون بعد قتل ابنها، وقالت له: الحمد الله الذي ادّخرك لي لما أثكلني ولدي، ما ثكلت ولداً كنت لي عوضاً منه. فلما خرجت قال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما ظننت أن

---

(١) سير أعلام النبلاء.

نساءً جُبِلن على مثل هذا الصبر. لقد أدركت زبيدة شيئاً من المكر، ورأت أنها قد فقدت ولدها، ولا رادّ له، وفقد ولدها خير من فقده وضياع خلافة المسلمين بعده فتجلّدت وصبرت.

كما أن المأمون لم يكن راضياً من طاهر بن الحسين لقتله الأمين دون علمه بل حمل في نفسه شيئاً وتصبّر حتى يجد الفرصة.

وهدأت الأوضاع وتسلّم المأمون أمر الخلافة، وأطاعه الناس بالعراق والمشرق والحجاز وبقية الأمصار.

أول الإجراءات:

١" ـ بعث المأمون كتاباً إلى طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بخلع القاسم بن هارون الرشيد من ولاية العهد، فأظهرا ذلك، ووجّها كُتبهما به، وقُرئ الكتاب بخلعه يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة ١٩٨هـ.

٢" ـ كتب المأمون إلى طاهر بن الحسين وهو مقيم ببغداد بتسليم جميع ما بيده من الأعمال في البلدان من كور الجبال، وفارس، والأهواز، والبصرة،

والكوفة، والحجاز، واليمن إلى خلفاء الحسن بن سهل أخي الفضل بن سهل. فقدم عليّ بن أبي سعيد العراق نائباً للحسن بن سهل على خراجها، فدافع طاهر عليّاً بتسليم الخراج إليه، حتى وفّى الجند أرزاقهم، فلما وفّاهم سلّم إليه العمل.

٣" ـ كتب المأمون إلى طاهر بن الحسين أن يترك كل ما كان يتولّى أمره، وأن يسير إلى الرقة، وجعل إليه حرب نصر بن شبث، وولّى طاهراً الموصل، والجزيرة الفراتية، والشام، والمغرب (رغبة من المأمون في إبعاد طاهر عن مناطق نفوذه).

٤" ـ كتب المأمون إلى هرثمة بن أعين يأمره بالسير إلى خراسان.

الحركات:

بعد أن تسلّم المأمون الخلافة واستقام الأمر، وعادت للدولة هيبتها شعر المتلوّنون بخيبة الأمل إذ ضاعت جهودهم، وفشلت مخططاتهم، وفقدوا عدداً من رجالاتهم، ورجعت الخلافة أقوى مما كانت. فالمأمون أكثر اتزاناً من أخيه الأمين، وأصوب رأياً، وأحكم تدبيراً، فالعمل لإيقاع الفتنة بين بني العباس محاولة

فاشلة إذ ينتصر جناح على جناحٍ، وتعود للدولة الهيبة، ويكتسب أفرادها خبرةً حيث يلتفّون ثانيةً حول من انتصر ويلتقون على الخليفة الجديدة ويعرفون أعداءهم، ويطّلعون على بعض أهداف المختبئين بغطاء الإسلام، إذن فالعمل الأفضل، والأكثر أملاً، والأضمن نجاحاً، وأحسن استمراريةً، وأبعد اتفاقاً هو العودة إلى إثارة الفتنة بين جناحي بني هاشم من طالبيين وعباسيين، والطالبيون لا يزالون بعيدين عن أبناء عمومتهم من بني العباس، وفيهم أصحاب أهداف، كما فيهم من يمكن إثارته وتحريكه، والأمر لا يحتاج إلى كبير جهدٍ، فبدأت الأصابع تتحرّك، والمكر يعمل وخاصةً أن هناك أعداداً من المتلوّنين أهل نفوذٍ ومكانةٍ في العهد الجديد، ولدى الخليفة المأمون وحوله.

بدأت الشائعات تُطلق أن الخليفة المأمون رجل ضعيف، قد حجبه الفضل بن سهل في قصرٍ له، فهو بعيد عن قادته وخاصته، على حين يتصرّف الفضل وأخوه الحسن ابنيْ سهل بأمور الدولة ولن يُؤدّي هذا إلا إلى زوال عهد بني هاشمٍ من عباسيين وغيرهم بل إلى انتهاء دور العرب عامةً، وأخذت هذه الشائعات تردد على الألسن، وتلوكها الأفواه، وينقلها المتلوّنون

أنفسهم وخاصةً أعوان رجال المأمون ذاتهم من المتلوّنين، فشُحنت نفوس، وتهيّأت أخرى، وتحرّك أصحاب الأطماع.

ومن جانبٍ ثانٍ فقد تحرّك آخرون أطمعهم ما وقع بين الأخوين من خلافٍ، فظنّوا أن سلطان الدولة قد ضعُف، والفرقة قد وقعت، وأغراهم ما يسمعون من شائعاتٍ فسال لعابهم إلى ما يهوون فإن نفوسهم مريضة، فتحرّكوا يطلبون العلاج لمداواة ما بهم من مرضٍ، غير أنهم لم يجدوا سوى الكيّ.

ومن جانبٍ ثالثٍ كان الخوارج قد أسكتهم السيف في المشرق فسكنوا إلا أن نفوسهم لم تهدأ، ولم يزل ما في نفوسهم يتحرّك، عاطفة لا ترتكز على قاعدةٍ ثابتةٍ، ومنطلقات هوجاء لا تثبت على عقيدةٍ راسخةٍ، ورأى هؤلاء في المشرق ما أحرزه إخوانهم في المغرب إذ رفعوا شراعاً يتفيّأون به من ضوء القمر، فاشرأبت أعناق كانت منحنيةً في المشرق خاضعةً منذ مدةٍ فتحرّكت فطأطأت تحت شدّة الضربات.

ومن جانبٍ رابعٍ لاحظ بعضهم أن الأعناق تتطاول من مشرق الخلافة وكأن الهدف ليس بني هاشم من عباسيين وطالبيين وإنما هم أحجار من الصوان

يكسر بعضها بعضاً بل الهدف العرب، وإن لم يدرك هذا الجانبُ الهدفَ البعيد للمتلوّنين وهو الإسلام بل أدرك جزءاً من هذا الهدف وهم العرب بصفتهم قاعدة الإسلام وحملة لوائه الأول. فالعرب هم شعب من الشعوب ليسوا عقيدةً ولا مبدأ، والهدف البعيد لكل عدوٌ حاقدٍ هو الإسلام كعقيدةٍ ومنهج حياةٍ.

وقامت الحركات في عهد المأمون من هذه الفئات كلها.

١" ـ تحرّك الحسن الهِرْش في سواد الكوفة في شهر ذي الحجة من عام ١٩٨هـ، وأخذ يدعو إلى الرضى من آل محمدٍ فتبعه عدد من الغوغائيين وسفلة الناس وكثير من الأعراب، ووصل إلى النهر، فجبى الأموال، وأغار على التجار، وانتهب القرى، واستاق المواشي، فخرج إليه أزهر بن زهير بن المسيب في شهر المحرم من عام ١٩٩هـ، فقتله، وقضى على جماعته، وانتهت حركته.

٢" ـ خرج محمد بن إبراهيم[1] بالكوفة يوم

---

(١) محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب: ولد بالمدينة المنورة سنة ١٧٣هـ، وعاش فيها، وحجّ عام ١٩٦هـ والخلاف قائم بين =

الخميس لعشرٍ خلون من جمادى الآخرة ١٩٩هـ، ودعا إلى الرضى من آل محمد، وإلى العمل بالكتاب والسنة، وكان قائدَ جيوشه أبو السرايا[١]، وأطاع أهل الكوفة

= الأمين والمأمون، واجتمع أثناء الموسم بأحد المتلوّنين ويُدعى نصر بن شبيب، ويُقيم بالجزيرة الفراتية، فحرّض نصر محمداً على الخروج على بني العباس للانتهاء من هذه الخلافات، وشجّعه، ووعده بالدعم والتأييد، ونقل له أن أهل الكوفة معه، وعلى رأي زيد بن علي زين العابدين، وبعد الموسم انصرف نصر إلى الجزيرة، وعاد محمد إلى المدينة، ثم ارتحل محمد إلى الجزيرة فتلقّاه نصر، وتداولا في موضوع الخروج فاعتذر نصر ـ كعادة المتلوّنين ـ ورحل محمد يريد المدينة فالتقى بأبي السرايا بالطريق، فبايعه أبو السرايا، فرجع إلى الكوفة، ودعا لنفسه سنة ١٩٩هـ، غير أنه لم يلبث أن مرض ومات بعد شهرين من خروجه، وعمره ست وعشرون سنة، وأوصى من بعده إلى علي بن عبيد الله بن الحسين، ودفن بالكوفة، ويُعدّ من أئمة الزيدية، ويقال له: «ابن طباطبا».

(١) أبو السرايا: السريّ بن منصور، ويُذكر أنه من ولد هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان: كان في أول أمره يكري الحمير، وقويت حاله، فجمع عصابةً كان يقطع بها الطريق، ثم لحق بيزيد بن مزيد الشيباني بأرمينية، ومعه ثلاثون فارساً، فجعله قائداً، فاشتهر بشجاعته، ثم انتقل إلى عسكر هرثمة بن أعين، وصار معه نحو ألفي مقاتلٍ، وخوطب بالأمير، ولما قُتل الأمين أنقص هرثمة من أرزاقه وأرزاق أصحابه، فخرج في مائتي =

محمد بن إبراهيم، وأتاه الناس من نواحي الكوفة والأعراب وغيرهم، وبايعوه.

كان عامل الكوفة حين دخلها محمد بن إبراهيم سليمان بن أبي جعفر المنصور نائباً عن الحسن بن سهل، فأرسل الحسن بن سهل نجدةً لأهل الكوفة عشرة آلاف فارسٍ وراجلٍ بإمرة زهير بن المسيّب، وكانت موقعة بين الطرفين هُزم فيها زهير بن المسيّب ومن معه، وأخذ أبو السرايا ما في معسكر زهير من مالٍ وسلاحٍ ودوابّ وغيرها وذلك في غرة شهر رجب من سنة ١٩٩هـ. ومنع محمد بن إبراهيم أبا السرايا من أن يتصرف بما حازه من معسكر زهير، وحظره عليه، وكان الناس له مطيعين، فعلم أبو السرايا أنه لا أمر له معه، فأثّر ذلك في نفسه، ومات محمد بن إبراهيم فجأةً، فأقام أبو السرايا مكانه غلاماً حدثاً يقال له: محمد بن محمد بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان أبو السرايا هو الذي ينفّذ

= فارسٍ، وحصر عامل (عين التمر)، وأخذ ما معه من المال، ووزّعه على أصحابه، ثم استولى على الأنبار، ثم ذهب إلى الرقة، وكثر جمعه، والتقى مع ابن طباطبا فبايعه، وسار معه إلى الكوفة، وقاد جيوشه.

الأمور، ويولّي من رأى، ويعزل من أحبّ، وإليه الأمور كلها، ورجع زهير بن المسيّب من يومه الذي هُزم فيه إلى قصر ابن هبيرة فأقام به.

وجّه الحسن بن سهل إلى الكوفة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروزي فالتقى به أبو السرايا فقتله وأسر أخاه هارون بن محمد بن أبي خالد، واستباح عسكره وذلك يوم الأحد لثلاث عشرة بقيت من شهر رجب سنة ١٩٩هـ. وكان عبدوس في أربعة آلاف مقاتلٍ فلم ينجُ منهم أحد، فكانوا بين قتيلٍ وأسيرٍ.

وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة، ونقش عليها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾[1].

وجّه أبو السرايا جيشاً إلى البصرة فدخلها، ووجّه جيشاً إلى واسط وعليها عبد الله بن سعيد الحَرشيّ من قبل الحسن بن سهل، فجرت معركة بين الطرفين انسحب إثرها الحَرشيّ من واسط، واتجه إلى بغداد بعد أن فقد جماعةً من أصحابه قتلى ومثلها أسرى، ودخل جيش أبي السرايا واسطاً.

---

(١) سورة الصف: الآية ٤.

اضطر الحسن بن سهل أن يُكلّف هرثمة بن أعين بقتال أبي السرايا فاسترضاه قبل ارتحاله إلى خراسان، ذلك أن هرثمة كان بالعراق فقدم عليه الحسن بن سهل والياً على العراق من قبل المأمون، فسلّم هرثمة ما كان بيده من الأعمال وتوجّه نحو خراسان مغاضباً للحسن، فسار حتى بلغ حلوان فبعث إليه الحسن مسترضياً فرجع إلى بغداد في شعبان سنة ١٩٩هـ، وتهيّأ للخروج إلى الكوفة لملاقاة أبي السرايا.

أمر الحسن بن سهل عليّ بن أبي سعيد أن يخرج إلى ناحية المدائن وواسط والبصرة. فكان الاستعداد.

بلغ أبا السرايا خبر ما يجري فبعث إلى المدائن من دخلها في شهر رمضان، وتقدّم هو نحو منصور بن المهدي الذي بعثه إليه الحسن بن سهل قبل قدوم هرثمة بن أعين عليه.

تقدّم عليّ بن أبي سعيد نحو المدائن، وأخذها من أيدي أصحاب أبي السرايا في الثالث من شوال سنة ١٩٩هـ، ولما وصل الخبر إلى أبي السرايا رجع إلى قصر ابن هبيرة ونزل به ليلة السبت لخمس خلون من شوال.

جدّ هرثمة بن أعين في طلب أبي السرايا، فوجد جماعةً كثيرةً من أصحابه فقتلهم، وتابع سيره إلى قصر ابن هبيرة، وكانت معركة بينه وبين أبي السرايا قُتل فيها عدد كبير من أصحاب أبي السرايا، وانحاز أبو السرايا إلى الكوفة. ووثب خليفة محمد بن إبراهيم ومن معه من الطالبيين على دور بني العباس ومواليهم وأتباعهم فانتهبوها وخرّبوها، وأخرجوا أهلها من الكوفة وفعلوا أعمالاً سيئةً.

وجّه أبو السرايا إلى مكة والمدينة من يأخذهما، ويُقيم الحج للناس، واختار إلى هذه المهمة حسين بن حسن الأفطس بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب فبعثه إلى مكة، أما إلى المدينة فقد بعث محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

كان والي مكة والمدينة من قبل المأمون هو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فلما علم ما فعله أبو السرايا من إرسال واليين إلى مكة والمدينة من قبله، ولإقامة الحج للناس، جمع داود بن عيسى موالي بني العباس وعبيد حوائطهم وأخبرهم بما يجري. وكان مسرور الكبير الخادم قد

جاء حاجّاً في تلك السنة في مائتي فارس، فتعبأ لحرب من يريد أخذ مكة من الطالبيين. فقال له داود: لا أستحلّ القتال في الحرم، والله لئن دخلوا من هذا الفجّ لأخرجنّ من الفجّ الآخر، فقال له مسرور: أتُسلّم ما أنت عليه لعدوّك.

انحاز داود إلى ناحية «المُشاش»[1]، وأشاع أن الخليفة قد كلّف ابنه محمد بن داود بإقامة الحج للناس، فأمر داود ابنه أن يُصلّي بالناس الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ثم يلحقه إلى «المُشاش» وسيجده في بستان ابن عامر، وتمّ ذلك، ففتّ ما حدث في عضد مسرور فخرج في أثر داود راجعاً إلى العراق.

وبقي الناس بعرفة، فلما زالت الشمس وحضرت الصلاة، تدافعها قوم من أهل مكة، فقال أحمد بن محمد بن الوليد الردميّ ـ وهو المؤذن وقاضي الجماعة والإمام بأهل المسجد الحرام: إذا لم تحضر الولاة ـ لقاضي مكة محمد بن عبد الرحمن المخزومي: تقدّم فاخطب بالناس، وصلِّ بهم الصلاتين، فإنك قاضي

(١) المشاش: ويتصل بجبال الطائف وجبل عرفة، وفيه أقنية ومياه ومنها ما يجري من جبل عرفة ويصل إلى مكة.

البلد. قال: فلمن أخطب وقد هرب الإمام، وأطلّ هؤلاء القوم على الدخول، قال: لا تدعُ لأحدٍ، قال له محمد: بل أنت فتقدّم واخطب، وصلّ بالناس، فأبى، حتى قدّموا رجلاً من عُرْض أهل مكة، فصلّى بالناس الظهر والعصر من غير خطبة، ثم مضوا فوقفوا جميعاً بالموقف من عرفة حتى غربت الشمس، فدفع الناس لأنفسهم من عرفة بغير إمامٍ، حتى أتوا مزدلفة، فصلّى بهم المغرب والعشاء رجل أيضاً من عُرْض الناس، وحسين بن حسن يقف بـ«سَرَف» يرهب أن يدخل مكة فيُدافع عنها، ويُقاتل دونها، حتى خرج إليه قوم من أهل مكة، يريدون أن تكون لهم يد عنده، فأخبروه أن مكّة ومِنى وعرفة قد خلت ممن فيها من السلطان، وأنهم قد خرجوا متوجّهين إلى العراق، فدخل حسين بن حسن مكة قبل المغرب من يوم عرفة سنة ١٩٩هـ، وجميع من معه لا يبلغون عشرة، فطافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، ومضوا إلى عرفة في الليل، فوقفوا بها ساعةً من الليل، ثم رجع إلى مزدلفة فصلى بالناس الفجر، ووقف على قُزَح[١]، ودفع الناس منه.

---

(١) قزح: هو القرن الذي يقف عنده الإمام بالمزدلفة، عن يمين الإمام، وهو موقف قريش بالجاهلية، إذ لم تكن تقف بعرفة.

وأقام بمِنى أيام الحج، فلم يزل مقيماً حتى انقضت سنة ١٩٩هـ، وأقام محمد بن سليمان بن داود الطالبي بالمدينة السنة أيضًا، فانصرف الحاج ومن كان شهد مكة والموسم، على أن أهل الموسم قد أفاضوا من عرفة بغير إمامٍ.

ولما خاف هرثمةِ بن أعين أن يفوته الحج، وقد نزل قرية «شاهي»[١] وقد نازل أبا السرايا وأصحابه في المكان الذي نازله فيه زهير بن المسيّب، فكانت الهزيمة في أول النهار على هرثمة، فلما كان آخر النهار لحقت الهزيمة بأبي السرايا وأصحابه. ولما رأى هرثمة أنه لم يصل إلى ما يريد أقام بقرية وغيّر فكرة الحج، وبعث إلى المنصور بن المهدي فأتاه بقرية شاهي، وصار يكاتب رؤساء الكوفة. وكان علي بن أبي سعيد قد دخل المدائن وأخذها، وتوجّه إلى واسط وأخذها، ثم إنه توجه إلى البصرة غير أنه لم يستطع دخولها حتى انقضت سنة ١٩٩هـ.

هرب أبو السرايا ومن معه من أتباعه من الكوفة ليلة الأحد لأربع عشرة ليلةً بقيت من المحرم سنة

---

(١) شاهي: موقع قرب القادسية.

٢٠٠هـ، حتى أتى القادسية، ودخل المنصور بن المهدي وهرثمة الكوفة صبيحة تلك الليلة، وآمنوا أهلها، فأقاموا بها يومهم إلى العصر ثم رجعوا إلى معسكرهم، وخلّفوا بها رجلاً منهم يقال له غسان بن أبي الفرج، فنزل في الدار التي كان يقيم محمد بن محمد وأبو السرايا.

خرج أبو السرايا ومن معه من القادسية والتقوا مع الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالمأموني في معركةٍ هُزم فيها أبو السرايا، وجُرح، وهرب، واستباح المأموني معسكرهم. واجتمع أبو السرايا ومحمد بن محمد وأبو الشوك، وقد تفرّق أصحابه عنهم، فأخذوا ناحية طريق الجزيرة يريدون منزل أبي السرايا برأس العين، فلما انتهوا إلى جلولاء عُثر بهم، فأتاهم جند الحسن بن سهل فأخذوهم إليه وكان مقيم بالنهروان، فقدم بأبي السرايا، فضرب عنقه يوم الخميس لعشرٍ خلون من ربيع الأول سنة ٢٠٠هـ. وذُكر أن الذي تولّى ضرب عنقه هارون بن محمد بن أبي خالد، وكان أسيراً بيد أبي السرايا، وبعث الحسن بن سهل بمحمد بن محمد إلى المأمون بخراسان.

وكان علي بن أبي سعيد قد توجّه إلى أبي السرايا حين عبر أبو السرايا نهر دجلة، فلما فاته سار عليّ إلى

البصرة فدخلها، وكان بالبصرة من الطالبيين زيد[1] بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ومعه جماعة من أهل بيته فأخذه علي بن أبي سعيد أسيراً، فاستأمنه، فآمنه، وأرسله إلى بغداد.

أما في مكة فإن حسين بن حسن الأفطس قد جلس خلف المقام في أول يوم من شهر المحرم من سنة ٢٠٠هـ فأمر بثياب الكعبة فجردت منها حتى لم يبق عليها من كسوتها شيء، وبقيت حجارةً مجرّدةً، ثم كساها بالكسوة التي بعث بها أبو السرايا. وقسّم حسين الكسوة التي كانت على الكعبة بين أتباعه. ثم أخذ ما في خزانة الكعبة من مالٍ، واشتدّ على بني العباس وأتباعهم ظلماً وقتلاً، حتى تغيّر عليهم الناس، وبلغه

---

(١) زيد بن موسى: ثائر، خرج بالعراق مع أبي السرايا، وولي له إمارة الأهواز، ولم يكتفِ بها فضمّ إليها البصرة، وكان عليها عاملاً لأبي السرايا. وعُرف بزيد النار لكثرة ما أحرق في البصرة من دور العباسيين وأتباعهم، وكان إذا أُتي برجلٍ من المسودة أحرقه بالنار، وأخذ أموالاً كثيرةً من التجار، فلما ظفر الحسن بن سهل بأبي السرايا حاصر علي بن أبي سعيد في البصرة زيداً، ثم أخذه أسيراً، واستأمنه فأمنه، وأرسله إلى بغداد، فبقي حتى توفي سنة ٢٥٠هـ في خلافة المستعين.

أن أبا السرايا قد قُتل، وأنه قد طُرد من كان من الطالبيين في الكوفة والبصرة وكور العراق كافةً، عندها اجتمع الطالبيون في مكة إلى محمد بن جعفر[1] بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان شيخاً طيباً محبباً في الناس، مفارقاً لما عليه كثير من أهل بيته، وكان يروي العلم عن أبيه جعفر بن محمد، وكان الناس يكتبون عنه، فقالوا له: تعلم حالك في الناس فقم نبايع لك بالخلافة، فإنك إن فعلت ذلك لم يختلف عليك رجلان، فأبى ذلك عليهم، فلم يزل به

(١) محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر: من علماء الطالبيين وأعيانهم وشجعانهم، كانت إقامته بمكة، ويظهر عليه الزهد، فلما قامت حركات ضد المأمون أقبل بعض الطالبيين عليه، وبايعوه بالخلافة، كما بايعه أهل الحجاز، فقاتلهم إسحاق بن موسى العباسي وهزمهم، فانصرف محمد بن جعفر إلى الجحفة ومنها إلى بلاد جهينة فجمع رجالاً وهاجم المدينة، ففُقئت عينه، وقُتل كثير من أصحابه، فارتحل إلى مكة، وطلب الأمان فأمن، فخلع نفسه، وخطب معتذراً بأنه ما رضي البيعة إلا بعد أن قيل له: إن المأمون توفي، وأرسل إلى المأمون، وكان بمرو، فأكرمه واستبقاه معه إلى أن توفي بـ«جرجان» سنة ٢٠٣هـ، فكان المأمون أحد الذين صلوا عليه.

ابنه علي بن محمد بن جعفر وحسين بن حسن الأفطس حتى غلبا الشيخ على رأيه، فأجابهم. فأقاموه يوم صلاة الجمعة بعد الصلاة لستٍ خلون من شهر ربيع الثاني، فبايعوه بالخلافة، وحشروا إليه الناس من أهل مكة والمجاورين، فبايعوه طوعاً وكرهاً، وسمّوه بأمير المؤمنين، فأقام بذلك أشهراً، وليس له من الأمر إلا اسمه، وكان ابنه عليّ وحسين بن حسن الأفطس وآخرون يتصرّفون تصرّفات غير حسنةٍ، حتى أقبل إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي من اليمن، وجرى القتال بين الطرفين فكانت الهزيمة على محمد بن جعفر وصحبه، وكان القتال عند بئر ميمون. فطلب محمد بن جعفر وخرج من مكة بعد ثلاثة أيامٍ، واتجه نحو جُدّة، وأخذ طريق الساحل حتى وصل إلى بلاد جهينة، وجاء بجموعٍ إلى المدينة وجرى بينه وبين والي المدينة هارون بن المسيب عدة وقائع هُزم فيها محمد بن جعفر، وقُتل من أصحابه عدد كبير، فرجع حتى أقام بموضعه الذي كان فيه ينتظر ما يكون من أمر الموسم، فلم يأته من كان وعده. فلما رأى ذلك وانقضى الموسم طلب الأمان من عيسى بن يزيد الجُلودي[1] ومن

---

(١) عيسى بن يزيد الجُلودي: من ولاة الدولة العباسية، ناب في =

رجاء بن أبي الضحّاك[1] ابن عمّ الفضل بن سهل، فأُعطي الأمان ودخل مكة يوم الأحد بعد النفر الأخير بثمانية أيامٍ لعشر بقين من شهر ذي الحجة سنة ٢٠٠هـ.

أمر عيسى بن يزيد الجُلودي ورجاء بن أبي الضحاك بالمنبر فوضع بين الركن والمقام حيث كان محمد بن جعفر بويع له فيه، وقد جمع الناس من القريشيين وغيرهم، فصعد الجُلودي أعلى المنبر، وقام محمد بن جعفر تحته بدرجة، وعليه قباء أسود وقلنسوة سوداء، وليس عليه سيف ليخلع نفسه، ثم قام محمد فقال:

أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني

= إمرة مصر عن عبد الله بن طاهر أيام ولايته لها سنة ٢١٢هـ، وأقره المأمون على الإمارة، فاستمر سنةً وسبعة أشهرٍ وأياماً، وعُزل مدة شهرين، ثم أُعيد فأقام ثمانية أشهر إلّا أياماً، واتسعت ثورة أهل الحوف في أيامه حتى فتك بهم المعتصم وهو ولي عهد أخيه المأمون، وأصلح أحوال مصر، وعُزل عيسى في أواخر سنة ٢١٤هـ.

(١) رجاء بن أبي الضحاك الجرجرائي: من عمال الدولة العباسية، ولي ديوان الخراج في أيام المأمون، ثم ولي خراج دمشق في أيام المعتصم، فخراج جُنديْ دمشق والأردن في أيام الواثق، وقتله في دمشق علي بن إسحاق عام الواثق سنة ٢٢٦هـ.

فأنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب، فإن كان لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين في رقبتي بيعة بالسمع والطاعة، طائعاً غير مُكره، وكنت أحد الشهود الذين شهدوا في الكعبة في الشرطين لهارون الرشيد على ابنيه: محمد المخلوع وعبد الله المأمون أمير المؤمنين. ألا وقد كانت فتنة غشيت عامة الأرض منا ومن غيرنا. وكان نُمي إليّ خبر، أن عبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين كان توفي، فدعاني ذلك إلى أن بايعوا لي بإمرة المؤمنين، واستحللت قبول ذلك لما كان عليّ من العهود والمواثيق في بيعتي لعبد الله عبد الله الإمام المأمون، فبايعتموني - أو من فعل منكم - ألا وقد بلغني وصحّ عندي أنه حيّ سويّ، ألا وإني أستغفر الله مما دعوتكم إليه من البيعة، وقد خلعت نفسي من بيعتي التي بايعتموني عليها، كما خلعت خاتمي هذا من أصبعي، وقد صرت كرجلٍ من المسلمين فلا بيعة لي في رقابهم، وقد أخرجت نفسي من ذلك، وقد ردّ الله الحق إلى الخليفة المأمون عبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين، والحمد لله رب العالمين، والصلاة على محمد خاتم النبيين، والسلام عليكم أيها المسلمون.

ثم نزل. فخرج به عيسى بن يزيد الجُلودي إلى العراق، واستخلف على مكة ابنه محمد بن عيسى في سنة إحدى ومائتين، وخرج عيسى بن يزيد ومحمد بن جعفر حتى سلّمه إلى الحسن بن سهل، فبعث به الحسن بن سهل إلى المأمون بمرو مع رجاء بن أبي الضحاك.

٣" ـ خرج إبراهيم(١) بن موسى بن جعفر الصادق باليمن سنة ٢٠٠هـ، بعد أن قدم إليها من مكة فكره واليها إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس قتاله فتركها له وخرج إلى مكة، وذلك كما كره عمه داود بن عيسى قتال حسين بن حسن الأفطس.

---

(١) إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: كان يقيم بمكة، فلما بلغته حركة ابن طباطبا بالعراق، خرج إلى اليمن فدخل صعدة سنة ٢٠٠هـ داعية لابن طباطبا، وكان والي اليمن إسحاق بن موسى من أمراء بني العباس، فترك له صنعاء، وقصد مكة، واستولى إبراهيم على اليمن فقسا كثيراً على السكان وقتل كثيراً حتى عرف بالجزّار، ثم عاد إلى مكة، ودخلها عنوةً وقتل أميرها من قبل المأمون وهو يزيد بن حنظلة المخزومي، ثم ولّاه المأمون بعد أن جعل أخاه علي الرضا ولياً للعهد، وحجّ إبراهيم بالناس سنة ٢٢٢هـ، وهو جد الشريف الرضي، والشريف المرتضى.

وجّه إبراهيم بن موسى بعض ولد عقيل بن أبي طالب من اليمن في جندٍ كثيفٍ إلى مكة ليحجّ بالناس، ولكنه لم يستطع دخولها فأقام في بستان ابن عامر، وذلك أنه قبل أن يصل إلى مكة بلغه أن أبا إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد قد ولي الموسم وأن معه من القادة والجنود ما لا قبل له بهم.

مرت قافلة من الحجاج والتجار بالعقيلي وهو في بستان ابن عامر، وفي القافلة كسوة الكعبة وطيبها، فاعترض العقيلي سبيلها، وأغار عليها، وأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها، وقدم الحجاج والتجار إلى مكة عراةً مسلوبين، فبلغ ذلك المعتصم بن الرشيد، وهو نازل بمكة في دار القوارير، فجمع إليه القادة فشاورهم، فقال له عيسى بن يزيد الجُلودي ـ وذلك قبل يوم التروية بيومين أو ثلاثة ـ أصلح الله الأمير، أنا أكفيكهم، أخرج إليهم في خمسين من نخبة أصحابي، وخمسين أنتخبهم من سائر القادة، فأجابوه إلى ذلك، فخرج الجُلودي في مائةٍ حتى صبّح العقيلي وأصحابه في بستان ابن عامر، فأحدق بهم، فأسر أكثرهم، وهرب من هرب منهم يسعى على

قدميه، فأخذ كسوة الكعبة إلا شيئاً كان هرب به من هرب قبل ذلك بيومٍ واحدٍ، وأخذ الطيب وأموال التجار والحجاج، فوجّه به إلى مكة، ودعا بمن أُسر من أصحاب العقيلي، فأمر بهم فضُرب كل رجلٍ منهم عشرة أسواطٍ، ثم قال: اعربوا يا كلاب النار، فوالله ما قتلكم وعر، ولا في أسركم جمال، وخلّى سبيلهم، فرجعوا إلى اليمن يستطعمون في الطريق حتى هلك أكثرهم جوعاً وعرياً.

٤" ـ خرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب في بلاد عكّ من اليمن سنة ٢٠٧هـ، وذلك أن العمّال باليمن قد أساءوا السيرة، فبايع الناس عبد الرحمٰن فخرج يدعو إلى الرضا من آل محمدٍ ﷺ، فلما بلغ ذلك المأمون وجّه إليه دينار بن عبد الله في عسكرٍ كثيفٍ، وكتب معه بأمانه، فحضر دينار بن عبد الله الموسم وحجّ، فلما فرغ من حجّه سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمٰن، فبعث إليه بأمانه من المأمون فقبل ذلك، ودخل ووضع يده في يد دينارٍ، فخرج به إلى المأمون، فمنع المأمون عند ذلك من دخول الطالبيين عليه، وبأمرٍ بأخذهم بلبس السواد.

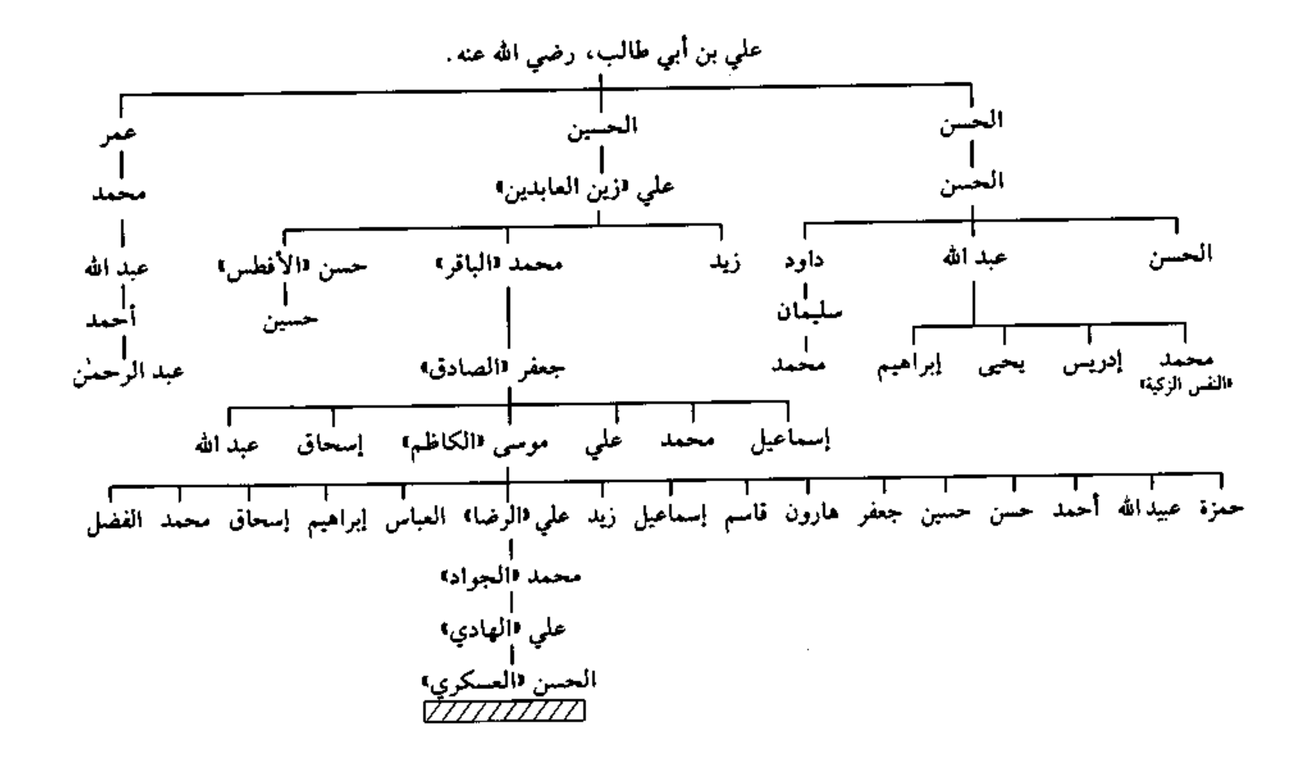
٥" ـ خرج نصر بن شبث[1] في شمالي الشام، وكلّف المأمون بقتاله عبد الله بن طاهر فحاربه،

(١) نصر بن شبث العقيلي من بني عقيل بن كعب بن ربيعة، كان أسلافه من رجال بني أمية، وكانت إقامته في «كيسوم» بشمال حلب، وفي أيامه مات هارون الرشيد، وحدثت الفتنة بين الأمين والمأمون، وقُتل الأمين، فامتنع نصر عن البيعة للمأمون، وثار في «كيسوم»، وتغلّب على ما جاورها من البلاد، وملك «سميساط»، واجتمع حوله كثير من الأعراب، وقوي أمره، فعبر نهر الفرات إلى الجانب الشرقي سنة ١٩٨هـ، وحاصر «حرَّان»، فأتاه بعض أعوان الطالبيين، فقالوا له: قد وترت بني العباس، وقتلت رجالهم، فلو بايعت لخليفةٍ كان أقوى لأمرك، فقال: من أي الناس؟ قالوا: تبايع لبعض آل عليّ بن أبي طالب، فقال: أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول: إنه هو خلقني ورزقني، فقالوا: تبايع لبعض بني أمية، قال: أولئك قد أدبر أمرهم، والمدبر لا يقبل أبداً، ولو سلّم عليّ رجل مدبر لأعداني إدباره، وإنما هواي في بني العباس، وما حاربتهم إلا محاماة عن العرب، لأنهم يقدمون عليهم العجم، واستمر في امتناعه إلى أن ولّى «المأمون» عبد الله بن طاهر سنة ٢٠٦ من الرقة إلى مصر، وأمره بحرب نصر بن شبث، فذهب إلى الرقة وضيّق عليه. وبينما كان نصر في «كفرعزون» جاءه رسول من المأمون يدعوه إلى طاعته ويعده بالعفو عما كان منه، فأذعن نصر، واشترط شروطاً، منها أن لا يطأ بساط المأمون، فلم يرض المأمون شرطه، واشتدّ عبد الله بن طاهر في حربه وحصاره فاستسلم، فسيّره إلى المأمون ببغداد فدخلها في شهر صفر سنة ٢١٠هـ.

وحاصره، وضيّق عليه حتى طلب الأمان. ذُكر عن جعفر بن محمد العامري أنه قال: قال المأمون لثمامة[1]: ألا تدلني على رجلٍ من أهل الجزيرة له عقل وبيان ومعرفة، يُؤدّي عني ما أوجهه إلى نصر بن شبث؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، رجل من بني عامر يقال له جعفر بن محمد، قال له: أحضرنيه، قال جعفر: فأحضرني ثمامة، فأدخلني عليه، فكلّمني بكلامٍ كثيرٍ، ثم أمرني أن أبلغه نصر بن شبث. قال: فأتيت نصراً وهو بـ«كفر عزّون» بـ«سروج»، فأبلغته رسالته، فأذعن وشرط شروطاً، منها ألا يطأ له بساطاً، قال: فأتيت المأمون فأخبرته، فقال: لا أُجيبه والله إلى هذا أبداً، ولو أفضيت إلى بيع قميصي حتى يطأ بساطي، وما باله ينفر مني، قال، قلت: لجُرْمه وما تقدّم منه، فقال: أتراه أعظم جرماً عندي من الفضل بن الربيع ومن عيسى بن أبي خالد، أتدري ما صنع بي الفضل!

(١) ثمامة بن أشرس النميري، أبو معن: من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدّمين، كان له صلة بالرشيد، ثم بالمأمون، وكان ذا نوادر ومُلَح، من تلاميذه الجاحظ، وأراد المأمون أن يستوزره فاستعفاه، وأتباعه يُسمّون «الثمامية» نسبةً إليه. وتوفي سنة ٢١٣هـ.

أخذ قوادي وجنودي وسلاحي وجميع ما أوصى به لي أبي، فذهب به إلى محمد وتركني بمرو وحيداً فريداً وأسلمني، وأفسد عليّ أخي، حتى كان من أمره ما كان، وكان أشدّ عليّ من كلّ شيء. أتدري ما صنع بي عيسى بن أبي خالد! طرد خليفتي من مدينتي ومدينة آبائي، وذهب بخراجي وفيئي، وأخرب عليّ دياري، وأقعد إبراهيم خليفةً دوني، ودعاه باسمي. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الكلام فأتكلم؟ قال: تكلّم، قلت: الفضل بن الربيع رضيعكم ومولاكم، وحال سلفه حالكم، وحال سلفكم حاله، ترجع عليه بضروب كلها تردّك إليه، وأما عيسى بن أبي خالد فرجل من أهل دولتك، وسابقته وسابقة من مضى من سلفه سابقتهم ترجع عليه بذلك، وأما نصر فرجل لم تكن له يد قط فيحمل عليها، ولا لمن مضى من سلفه، إنما كانوا من جند بني أمية. قال: إن كان ذلك كما تقول، فكيف بالحنَق والغيظ، ولكني لست أُقلع عنه حتى يطأ بساطي، قال: فأتيت نصراً فأخبرته بذلك كله، قال: فصاح بالخيل صيحةً فجالت، ثم قال: ويلي عليه، هو لم يقوَ على أربعمائة ضفدع تحت جناحه ـ يعني الزط ـ يقوى على حَلْبة العرب.


علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.
الحسن
الحسين
عمر
الحسن
علي «زين العابدين»
محمد
الحسن
عبد الله
داود
زيد
محمد «الباقر»
حسن «الأفطس»
عبد الله
سليمان
حسين
أحمد
محمد «النفس الزكية»
إدريس
يحيى
إبراهيم
محمد
جعفر «الصادق»
عبد الرحمن
إسماعيل
محمد
علي
موسى «الكاظم»
إسحاق
عبد الله
حمزة
عبيد الله
أحمد
حسن
حسين
جعفر
هارون
قاسم
إسماعيل
زيد
علي «الرضا»
العباس
إبراهيم
إسحاق
محمد
الفضل
محمد «الجواد»
علي «الهادي»
الحسن «العسكري»

ولما جدّ عبد الله بن طاهر بقتاله وحصره وبلغ منه، طلب الأمان فأعطاه، وتحوّل من معسكره إلى الرقة سنة تسعٍ ومائتين، وصار إلى عبد الله بن طاهر، وكان المأمون قد كتب إليه قبل ذلك بعد أن هزم عبد الله بن طاهر جيوشه كتاباً يدعوه إلى طاعته ومفارقة معصيته، فلم يقبل، فكتب عبد الله إليه ـ وكان كتاب المأمون إليه من المأمون كتبه عمرو بن مسعدة:

أما بعد: فإنك يا نصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزّها وبَرْدَ ظلّها وطيب مرتعها وما في خلافها من الندم والخسار، وإن طالت مدة الله بك، فإنه إنما يملي لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه لتقع عِبَرُهُ بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت تذكيرك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به إليك موقع منك، فإن الصدق صدق والباطل باطل، وإنما القول بمخارجه وبأهله الذين يُعْنَوْن به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على استنقاذك والانتياش لك خُطائك مني، فبأي أول أو آخر أوسِطَة أو إمرة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين تأخذ أمواله، وتتولّى دونه ما ولّاه الله، وتريد أن تبيت آمناً أو مطمئناً، أو وادعاً أو ساكناً أو

هادئاً، فواعالم السر والجهر، لئن لم تكن للطاعة مراجعاً وبها خانعاً لتستوبلنّ وخم العاقبة، ثم لأبدأنّ بك قبل كل عملٍ، فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت في الأرض فتنةً وفساداً كبيراً، ولأطأن بمن معي من أنصار الدولة كواهل رعاع أصحابك، ومن تأشب إليك من أداني البلدان وأقاصيها وطغامها وأوباشها، ومن انضوى إلى حوزتك من خُرّاب الناس، ومن لفظه بلده، ونفته عشيرته، لسوء موضعه فيهم، وقد أعذر من أنذر، والسلام.

وكان مقام عبد الله بن طاهر على نصر بن شبث محارباً له ـ فيما ذكر ـ خمس سنين حتى طلب الأمان، فكتب عبد الله إلى المأمون يعلمه أنه حصره وضيّق عليه، وقتل رؤساء من معه، وأنه قد عاذ بالأمان وطلبه، فأمره أن يكتب له كتاب أمان، فكتب إليه أماناً، نسخته:



أما بعد، فإن الإعذار بالحق حجة الله المقرون بها النصر، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصول بها العزّ، ولا يزال المعذِر بالحق، المحتجّ بالعدل في استفتاح أبواب التأييد، واستدعاء أسباب التمكين، حتى

يفتح الله وهو خير الفاتحين، ويُمكّن وهو خير الممكّنين، ولست تعدو أن تكون فيما لهجت به أحد ثلاثة: طالب دينٍ، أو ملتمس دنيا، أو متهوّراً يطلب الغلبة ظلماً، فإن كنت للدين تسعى بما تصنع، فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قبوله إن كان حقاً، فلعمري ما همّته الكبرى، ولا غايته القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال، والزوال مع العدل حيث زال، وإن كنت للدنيا تقصد، فأعلم أمير المؤمنين غايتك فيها، والأمر الذي تستحقها به، فإن استحققتها وأمكنه ذلك فعله بك، فلعمري ما يستجيز منع خلقٍ ما يستحقه وإن عظُم، وإن كنت متهوّراً فسيكفي الله أمير المؤمنين مؤنتك، ويعجّل ذلك كما عجّل كفاية مؤن قومٍ سلكوا مثل طريقك كانوا أقوى يداً، وأكثف جنداً، وأكثر جمعاً وعدداً ونصراً منك فيما صيّرهم إليه من مصارع الخاسرين، وأنزل بهم من جوائح الظالمين. وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ، وضمانه لك في دينه وذمته الصفح عن سوالف جرائمك، ومتقدّمات جرائرك، وإنزالك ما تستأهل من منازل العزّ والرفعة إن أتيت وراجعت، إن شاء الله. والسلام.

ولما خرج نصر بن شبث إلى عبد الله بن طاهر بالأمان هدّم «كيسوم» وخرّبها[1].

وصل نصر بن شبث إلى بغداد، فكان دخوله إليها يوم الاثنين لسبعٍ خلون من صفر سنة ٢١٠هـ، فأنزله عبد الله بن طاهر مدينة أبي جعفرٍ، ووكّل به من يحفظه، ثم وجّه به إلى المأمون.

٦" ـ خرج مهدي بن علوان الحروريّ سنة ٢٠٢هـ في جنوب شرقي بغداد، فوجّه إليه إبراهيم بن المهدي لقتاله أبا إسحاق محمد المعتصم بن الرشيد مع جماعةٍ من القادة منهم: أبو البط وسعيد بن الساجور فالتقوا مع الخوارج، وكان مع أبي إسحاق غلمان له من الأتراك، فوجّه أحد الخوارج طعنة إلى أبي إسحاق، فصدّ الطعنة أحد غلمانه، وحامى عن سيّده، وقال له: «أشناس مرا» أي اعرفني، فسمّي ذلك الغلام من يومها «أشناس»، وهُزم مهدي بن علوان الدهقاني إلى «حولايا»، وانتهت حركته.

٧" ـ وخرج بلال الضبابي سنة ٢١٤هـ، في منطقة الجبال، فوجّه إليه المأمون ابنه العباس ومعه بعض

---

(١) تاريخ الطبري.

القادة منهم: علي بن هشام، وهارون بن محمد بن أبي خالد، واستطاع هارون أن يقتل بلال الضبابي، وانتهت حركته.

٨" ـ وخرج في مصر عبيد الله بن السري فلما انتهى عبد الله بن طاهر من قتال نصر بن شبث وجّهه المأمون إلى مصر فتمكّن ـ بإذن الله ـ من هزيمة عبيد الله بن السريّ، وحاصره في الفسطاط حتى أرغمه على الاستسلام وطلب الأمان فأُعطيه وذلك سنة ٢١٠هـ. وسار عبد الله بن طاهر بعدها إلى الإسكندرية وقد غلب عليها بعض الأندلسيين الذين ارتحلوا عن الأندلس بعد موقعة الربض، فآذنهم بالحرب إن لم يُعلنوا الطاعة، ثم اتفق معهم على أن يخرجوا إلى إحدى مناطق الروم وليس إلى الأمصار الإسلامية، وأن يقيموا فيها، وفعلاً فقد خرجوا إلى جزيرة كريت «إقريطش»، واستقروا فيها بعد أن غلبوا أهلها عليها وذلك سنة ٢١١هـ.

٩" ـ وخرج بابك الخرميّ[1] في منطقة أذربيجان

---

(١) بابك الخرمي: نشأ فقيراً وقد مات والده الذي يرعاه وهو صغير إذ هو مجهول النسب، عمل راعياً لمساعدة أمه، وأذلّه من عمل عنده فشعر بالمهانة، وتعقّد نفسياً، فحقد على =

سنة ٢٠١هـ، حيث في نفسه العزيمة، وفي أتباعه القوة، واستطاع أن يُحرز بعض النصر، وأن يستولي على بعض القلاع، وكان المأمون لا يزال في مرو، فلما جاء إلى بغداد سنة ٢٠٤هـ، أرسل الولاة إلى المنطقة وبعث الجيوش لقتال بابك الخرميّ.

كلّف المأمون والي الجزيرة يحيى بن معاذ بقتال بابك الخرميّ سنة ٢٠٤هـ، فلم يظفر أحدهما بالآخر، وتوفي يحيى بن معاذ سنة ٢٠٥هـ، فعهد المأمون إلى والي أرمينيا وأذربيجان عيسى بن محمد بن أبي خالد بقتال بابك الخرميّ، فأخذ عيسى بتجهيز حملةٍ، واستمرّ بإعداداها سنةً كاملةً، ولكنه هُزم بعد ذلك كله.

أعطى المأمون ولاية أرمينيا وأذربيجان إلى

= المجتمع، وحمل كراهيةً للناس ولما يعتقدون، ثم عمل خادماً بعد ذلك عند «جاويذان بن سهرك» فأخذ عنه بعض الأفكار التي تقول بالتناسخ، والاعتقاد بوجود إلهين أحدهما للنور والآخر للظلمة حسب تعاليم المجوسية، ووجدت هذه الأفكار مكاناً لها في نفسية بابك الخرميّ السيئة التي تحقد على المجتمع، وعندما مات سيده «جاويذان بن سهرك» ورثه بابك الخرمي بتدبيرٍ وتخطيطٍ من زوجة «جاويذان» التي تزوّجت بعد ذلك بابك. فحمل بابك الأفكار الخرمية، وأخذ يدعو لها.

زريق بن علي بن صدقة الأزدي فندب أحمد بن الجنيد لقتال بابك الخرميّ وذلك سنة ٢٠٩هـ، فتمكّن بابك من أسر أحمد بن الجنيد.

ولّى المأمون على أرمينيا وأذربيجان إبراهيم بن الفضل التجيبي، فكان القتال مع بابك ضعيفاً، فأرسل المأمون سنة ٢١٢هـ محمد بن حميد الطوسي لقتال بابك الخرمي، فتمكّن بابك من محمد بن حميد سنة ٢١٤هـ، وكان لقتله أكبر الأثر في نفس المأمون بل ونفوس المسلمين جميعاً، وقد رثاه أبو تمام بقصيدةٍ مشهورةٍ، يقول فيها:

كذا فليجلّ الخطب وليفدحِ الأمر
فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عُذر
تُوفّيت الآمال بعد محمدٍ
وأصبح في شُغلٍ عن السّفرِ السّفر
وما كان إلا مال من قلّ ماله
وذُخراً لمن أمسى وليس له ذخر
وما كان يدري مجتدي جود كفّه
إذا ما استهلّت أنه خُلِق العُسر
ألا في سبيل الله من عُطّلت له
فجاج سبيل الله وانثغر الثغر

فتىً كلما فاضت عيون قبيلةٍ
دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتىً دهره شطران فيما ينوبه
ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
فتىً مات بين الطعن والضرب ميتةً
تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلّت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه
إليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوةً والحمد نسجُ ردائه
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردّى ثياب الموت حُمراً فما دجى
لها الليل إلا وهي من سندسٍ خضر
كأن بني نبهان يوم وفاته
نجوم سماءٍ خرّ من بينها البدر

يُعزّون عن ثاوٍ تعزّى به العلا
ويبكي عليه البأس والجود والشعر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى
إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر
فتىً كان عذب الروح لا من غضاضةٍ
ولكن كِبراً أن يقال به كِبر
فتىً سلبته الخيل وهو حمىً لها
وبزّته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثير في الوغى
بواتر فهي الآن من بعده بُتر
أمن بعد طيّ الحادثات محمداً
يكون لأثواب الندى أبداً نشر
إذا شجرات العرف جُذّت أصولها
ففي أيّ فرعٍ يوجد الورق النضر
لئن أُبغض الدهر الخؤون لفقده
لعهدي به ممن يُحَبُّ له الدهر
لئن غدرت في الروع أيّامه به
فما زالت الأيّام شيمتها الغدر
لئن أُلبست فيه المصيبةَ طيءٌ
فما عريت منها تميم ولا بكر

كذلك ما ننفكّ نفقد هالكاً
يُشاركنا في فقده البدو والحضر
سقى الغيث غيثاً وارت الأرض شخصه
وإن لم يكن فيه سحاب ولا مطر
وكيف احتمالي للغيوث صنيعةً
بإسقائها قبراً وفي لحده البحر
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة
غداة ثوى إلّا اشتهت أنّها قبر
ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
عليك سلام الله وقفاً فإنني
رأيت الكريم الحرّ ليس له عُمْر

وبقيت حركة بابك الخرميّ إلى أيام محمد المعتصم بن الرشيد حيث ألقى الإفشين القبض على بابك مع بعض أتباعه وحُملوا إلى سامراء حيث ضربت أعناقهم سنة ٢٢٣هـ.

١٠" ـ وخلع الطاعة في السند سنة ٢١٣هـ بشر بن داود بن يزيد المهلبيّ، فولّى المأمون على السند غسّان بن عبّاد، فاستأمنه بشر بن داود عام ٢١٦هـ، فأمّنه، وعُفي عنه.

١١" ـ وخرج في مصر عبد السلام وابن جليس وخلعا طاعة المأمون، وثارا بالقيسية واليمانية، ووثبا على عامل المعتصم وهو ابن عميرة بن الوليد الباذغيسي فقتلاه في شهر ربيع الأول سنة ٢١٤هـ، فسار المعتصم إلى مصر وقاتلهما وقتلهما، ودخل مصر، فاستقامت أمورها، واستعمل عليها عماله نيابةً عنه.

الولايات:

ولّى المأمون بعد قتل الأمين كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن إضافةً إلى العراق الحسن بن سهل، وكتب المأمون إلى طاهر بن الحسين، وهو مقيم ببغداد يأمره بتسليم ما بيده من الأعمال كلها إلى خلفاء الحسن بن سهل.

وولّى المأمون طاهر بن الحسين الموصل والجزيرة والشام والمغرب، وطلب منه السير إلى الرقة وأمره بتولي حرب نصر بن شبث.

وكتب المأمون إلى هرثمة بن أعين، وهو مقيم ببغداد بالسير إلى خراسان، فسار إليها بعد سنتين حين انتهى من أبي السرايا فعهد إليه باستلام ولايتها والقيام بأمرها.

١ ـ العراق:

قدم إلى العراق عليّ بن أبي سعيد خليفةً للحسن بن سهل على خراجها، فتأخّر طاهر بتسليم الخراج إلى عليٍّ حتى وفّى الجند أرزاقهم فلما وفاهم سلّم إليه العمل.

قدم الحسن بن سهل إلى العراق وإليه الحرب والخراج، فلما وصل وزّع عماله في الكور والبلدان. وأقام هو بالمدائن، وولّى عليّ بن هشام على بغداد من قبله، وكان من عماله فيها أيضاً محمد بن أبي خالد وأسد بن أبي الأسد.

كتب الحسن بن سهل من المدائن إلى عامله في بغداد علي بن هشام: أمطل الجند من الحربية والبغداديين أرزاقهم ومنّهم ولا تُعطهم، وكان من قبل قد وعدهم أن يدفع لهم أرزاقهم.

وكانت الحربية حين خرج هرثمة بن أعين من بغداد متوجّهاً إلى خراسان أن تمرّدوا وأعلنوا: أنهم لا يرضون حتى يطردوا الحسن بن سهل عن بغداد. وثاروا على عماله محمد بن أبي خالد وأسد بن أبي الأسد وأخرجوهما من بغداد، وعيّنوا من قبلهم إسحاق بن موسى بن محمد المهدي خليفةً للمأمون

ببغداد، وقد رضيت به الجند الحربية كما رضي به الجند من أهل بغداد.

لجأ الحسن بن سهل إلى الحيل فكاتب قادة الجند البغداديين حتى تركوا جانب عسكر إسحاق، وأخذ يعطي الجند أرزاقهم لستة أشهرٍ، فحوّلت الحربية إسحاق إليها وأنزلوه على نهر دُجيل.

وجاء زهير بن المسيّب فنزل في عسكر إسحاق، وجاء علي بن هشام ونزل من الجانب الآخر، ثم جاء الحسن بن سهل ومعه محمد بن أبي خالد وقوّادهم ليلاً حتى دخلوا بغداد.

بلغ الحربية أن أهل الكرخ يريدون أن يُدخلوا زهيراً وعلي بن هشام فأحرقوا باب الكرخ ونهبوا بعض المناطق داخل الكرخ، فقاتل علي بن هشام الحربية ثلاثة أيامٍ، ثم إنه وعد أن يعطي الحربية رزق ستة أشهرٍ، فسألوه أن يُعجّل لهم خمسين درهماً لكل رجلٍ لينفقوها في شهر رمضان، فأجابهم إلى ذلك، وجعل يُعطي، فلم يُتمّ لهم إعطاءهم حتى خرج بالبصرة زيد بن موسى بن جعفر المعروف بـ«زيد النار»، وكان قد هرب من سجن علي بن أبي سعيد، فخرج في ناحية الأنبار ومعه أخو أبي السرايا وذلك في شهر ذي القعدة سنة

٢٠٠هـ. فأرسلت إليه قوة قبضت عليه، فأخذ، فأُتي به عليّ بن هشام، فلم يلبث إلا جمعة حتى هرب من الحربية. وذلك أن علي بن هشام لم يكن يصدق مع الحربية، إذ لم يفِ لهم بإعطاء الخمسين درهماً إلى أن جاء عيد الأضحى، وبلغهم خروج هرثمة بن أعين إلى خراسان، فشدّوا على عليّ بن هشام وطردوه. وكان الذي تولّى القتال محمد بن أبي خالد، وذلك أن عليّ بن هشام لما دخل بغداد كان يستخفّ به، ووقع بين محمد بن أبي خالد وبين زهير بن المسيّب بغضاء ونال زهير من ابن أبي خالد، فغضب محمد بن أبي خالد من ذلك وتحوّل إلى الحربية، ونصب لهم القتال، واجتمع إليه الناس فلم يستطع علي بن هشام مواجهتهم فخرج من بغداد، وكان يتولّى أمر الجانب الغربي من بغداد على حين يتولّى زهير بن المسيّب الجانب الشرقي.

لما طرد أهل بغداد علي بن هشام من مدينتهم خاف الحسن بن سهل فترك «المدائن» واتجه نحو «واسط» ومضى محمد بن أبي خالد بالحربية وأهل بغداد خلف الحسن بن سهل حتى اقتربوا من «واسط»، فجاء من ناحيةٍ ثانيةٍ الأزهر بن زهير بن المسيب، فلقي محمد بن أبي خالد غير أنه هُزم أمامه، وتبعه محمد بن

أبي خالد حتى وصل إلى أبيه زهير فأحاط به وأعطاه الأمان، وأخذه أسيراً، وسار به إلى معسكره، ثم تحرّك نحو واسط فلما وصل إليها بعث زهيراً إلى بغداد، وأمر بسجنه عند ابنه جعفر وكان كفيفاً.

لما بلغ الحسن بن سهل وقوع زهير بن المسيب أسيراً بيد محمد بن أبي خالد أسرع فدخل واسط، وكان محمد بن أبي خالد قد بعث ابنه هارون فدخل الكوفة، وولّى عليها، وقدم عيسى بن يزيد الجلودي من مكة، ومعه محمد بن جعفر، فخرجوا جميعاً حتى أتوا «واسط»، ثم رجع هارون إلى أبيه، فاجتمعوا جميعاً في قرية «أبي قريش» ليدخلوا «واسط»، وبها الحسن بن سهل، فتقدّم الحسن فنزل خلف واسط في أطرافها.

وكان الفضل بن الربيع مختفياً منذ مقتل محمد الأمين، فلما رأى أن محمد بن أبي خالد قد بلغ «واسط» بعث إليه يطلب الأمان منه، فأعطاه إياه وظهر.

تعبأ محمد بن أبي خالد للقتال وتقدم هو وأصحابه حتى صاروا على ميلين من واسط فبعث إليهم الحسن بن سهل أصحابه وقواده والتقى الطرفان، واقتتلوا قتالاً شديداً عند بيوتات واسط، وما أن مالت الشمس للغروب حتى كانت الهزيمة قد لحقت بقوات

محمد بن أبي خالد، وثبت محمد لخصمه فأصابته جراحات شديدة في جسده فانهزم هزيمةً منكرةً وذلك يوم الأحد لسبعٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ٢٠١هـ.

فلما بلغ محمد موضع فم الصلح خرج عليهم أصحاب الحسن بن سهل فاقتتلوا، فلما جنّ عليهم الليل ارتحل محمد وأصحابه حتى نزلوا موضعاً يدعى المبارك، فأقاموا به، فلما أصبحوا غدا عليهم أصحاب الحسن فاقتتلوا، فلما جنّ عليهم الليل ارتحل محمد مع قواته، ووجّه محمد ابنه هارون إلى موضعٍ في سواد الكوفة على نهيرٍ يُدعى النيل فأقام هناك، وأقام محمد بـ«جرجرايا» فلما اشتدت جراحاته عليه خلّف قواده في عسكره، وحمله ابنه «أبو زنبيل» حتى أدخله بغداد ليلة الاثنين لستٍ خلون من شهر ربيع الثاني سنة ٢٠١هـ. ومات محمد بن أبي خالد من ليلته تلك متأثراً بجراحاته، ودُفن من ليلته في داره سراً.

كان زهير بن المسيب محبوساً عند جعفر بن محمد بن أبي خالد، فلما قدم أبو زنبيل أتى خزيمة بن خازم فأعلمه أمر أبيه، فبعث خزيمة إلى بني هاشم والقادة فأعلمهم ذلك، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن محمد بن أبي خالد، وأنه يكفيهم الحرب، فرضوا

بذلك فصار عيسى مكان أبيه على الحرب، وانصرف أبو زنبيل من عند خزيمة حتى أتى زهير بن المسيب فأخرجه من سجنه، فضرب عنقه.

رجع أبو زنبيل إلى أخيه عيسى فوجّهه عيسى لقتال الحسن بن سهل، وكان الحسن قد خرج من واسط عندما بلغه موت محمد بن أبي خالد، وبعث بالقادة لقتال أبي زنبيل الذي انضمّ إلى أخيه هارون، فالتقى الفريقان بفمّ الصراة ودارت المعركة هناك، وانتهت بهزيمة أبي زنبيل وأخيه هارون ومن معهما، فخرجوا هاربين حتى أتوا المدائن، وأخذ قادة الحسن بن سهل معسكرهم.

اجتمع بنو هاشم في بغداد ومعهم القادة وذلك حينما بلغهم مقتل محمد بن أبي خالد وتباحثوا في خلع المأمون واختيار خليفةٍ لهم، واختاروا منصور بن المهدي خليفةً، فأبى ذلك عليهم، فلم يزالوا به حتى أقنعوه أن يكون أميراً خليفةً للمأمون في بغداد والعراق، وقالوا: لا نرضى بالحسن بن سهل ونطرده حتى يرجع إلى خراسان.

ورأى الحسن بن سهل أنه لا قبل له بعيسى بن محمد بن أبي خالد بعد أن اجتمع إليه أهل بغداد.

بعث الحسن بن سهل قائداً له يُدعى وهب بن سعيد الكاتب بعد أن بذل له المصاهرة ومائة ألف دينار والأمان له ولأهل بيته ولأهل بغداد وولاية أي النواحي أحب، فطلب كتاب المأمون بذلك بخطه فأجابه الحسن إلى ذلك، غير أن وهب بن سعيد قد مات غرقاً.

كتب عيسى بن محمد بن أبي خالد إلى أهل بغداد: إني مشغول بالحرب عن جباية الخراج، فولّوا رجلاً من بني هاشم، فولّوا منصور بن المهدي فعسكر بـ«كلواذى»، وأرادوه على الخلافة فأبى، وقال: أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولّي من أحبّ، فرضي بذلك بنو هاشم والقادة والجند، وكان القيّم بهذا الأمر خزيمة بن خازم، فوجّه القادة في كل ناحيةٍ.

بعث الحسن بن سهل القائد حميد بن عبد الحميد الطوسي يطلب بني محمد بن أبي خالد، فانتهى حميد إلى المدائن فأقام بها يومه ثم سار باتجاه سواد الكوفة. فلما بلغ الخبر إلى منصور خرج فعسكر بـ«كلواذى» وتقدّم يحيى بن علي بن عيسى بن ماهان إلى المدائن، كما وجّه منصور من ناحيةٍ أخرى إسحاق بن العباس بن محمد الهاشمي، ووجّه غسان بن عباد بن أبي الفرج إلى ناحية الكوفة فتقدّم حتى أتى «قصر ابن هبيرة»،

فأقام به، فلما بلغ حميداً الخبر لم يعلم غسان إلا وحميد قد أحاط بالقصر، وأخذ غسان أسيراً، وسلب أصحابه، وقتل منهم، وذلك يوم الاثنين لأربع خلون من رجب سنة ٢٠١هـ.

هرب محمد بن يقطين بن موسى، وكان مع الحسن بن سهل، والتحق بعيسى بن محمد بن أبي خالد، فبعثه عيسى إلى منصور، فوجّهه منصور إلى ناحية حميد، فخرج محمد بن يقطين من بغداد يوم السبت لليلتين خلتا من شعبان سنة ٢٠١هـ، حتى أتى «كُوثي»، ووصل الخبر إلى حميد، فلم يعلم ابن يقطين حتى أتاه حميد وقواته إلى «كُوثي» فقاتلوه، وهزموه، وقتلوا من أصحابه عدداً كبيراً، كما غرق عدد آخر منهم، وانتهب حميد وأصحابه القرى التي حول «كُوثي»، ثم رجعوا إلى معسكرهم.

ونتيجة ما جرى في بغداد فقد حدثت فوضى واستغلّها رجال السوء من الحربية فآذوا الناس بقطع الطرق وأعمال النهب وذلك في آخر أيام شعبان سنة ٢٠١هـ، ولم يستطع أحد الوقوف في وجههم للدور الذي يُؤدّونه، فقام بعض الصالحين ودعوا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان منهم المدعو

خالد الدريوش وسهل بن سلامة الأنصاري وغيرهما وساعدهم كثير من أهل الخير حتى استطاعوا الوقوف في وجه الشر. لكن اختلف خالد الدريوش وسهل بن سلامة الأنصاري على قتال المخالف، ودخل منصور بن المهدي بغداد للوقوف في وجه سهل بن سلامة الأنصاري.

كان عيسى بن محمد بن أبي خالد يكاتب الحسن بن سهل، فلما بلغه خبر ما يجري في بغداد سأل عيسى الحسن بن سهل أن يعطيه الأمان له ولأهل بيته ولأصحابه، على أن يعطي الحسن أصحابه وجنده وسائر أهل بغداد رزق ستة أشهرٍ إذا أدركت الغلة، فأجابه الحسن، وارتحل عيسى من معسكره فدخل بغداد وتقوّضت عساكرهم، وأعلمهم عيسى ما دخل لهم فيه من الصلح، فرضوا بذلك.

فلما جعل المأمون ولاية العهد من بعده إلى علي بن موسى بن جعفر الطالبي دعا عيسى بن محمد بن أبي خالد الناس إلى ذلك فرضي بعضهم ورفض بعضهم الآخر، وأظهر العباسيون في بغداد البيعة بالخلافة لإبراهيم بن المهدي ومن بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى بن محمد المهدي، وخلع المأمون من الخلافة.

ولكن مات علي الرضا بن موسى ولي العهد سنة ٢٠٣هـ. وخلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي، وأخيراً قدم المأمون بغداد سنة ٢٠٤هـ، وهدأت الأوضاع في مدينة دار السلام.

٢ ـ خراسان:

بعث المأمون إلى خراسان هرثمة بن أعين بعد أن صفا له الأمر، ولكن لم يلبث أن وجد المأمون في نفسه شيئاً على هرثمة حيث اتهمه المتلوّنون بالميل إلى إبراهيم بن المهدي، وبالتساهل في تعقبّ الطالبيين وكانت النتيجة أن سُجن هرثمة بن أعين في مرو، فدسّ له الفضل بن سهل ـ وكان يكرهه ـ من يقتله، فقُتل سنة ٢٠٠هـ. وكان أهل خراسان يرغبون أن يكون أميرهم منهم، فبُذلت الجهود، ولعبت الوسائط، وتحرّك الرجال، وجرت تمثيليات لتخفي حقيقة اللعبة.

كان الحسن بن سهل قد ندب طاهر بن الحسين إلى الرقة لقتال نصر بن شبث فسار طاهر على غير رضىً، بل وقعت جفوة ظاهرية بين الرجلين، ومصارمة تخطيطية بين القائدين، وقام طاهر بما أُمر به، وتحرّك دولاب العمل السريّ، فعقد المأمون لطاهر بن الحسين على خراسان والجبال من حلوان إلى خراسان.

واستخلف طاهر بن الحسين ابنه عبد الله على الرقة، وأمره بقتال نصر بن شبث، وسار طاهر إلى خراسان في شهر ذي القعدة سنة ٢٠٥هـ. وبقي أميراً على خراسان مدة سنتين حيث توفي سنة ٢٠٧هـ.

بعد وفاة طاهر بن الحسين تولّى أمر خراسان ولده طلحة بن طاهر، وذلك في جمادى الأولى سنة ٢٠٧هـ نيابةً عن أخيه عبد الله الذي كان بالرقة مقيماً على حرب نصر بن شبث، فولّاه المأمون الشام مع عمله، وبعث إليه بعهده على خراسان وعمل أبيه، فوجّه عبد الله أخاه طلحة إلى خراسان. ثم بعث المأمون إلى خراسان أحمد بن أبي خالد ليقوم بأمر طلحة.

سار أحمد بن أبي خالد إلى خراسان وتابع إلى بلاد ما وراء النهر، فافتتح «أشروسنة» وأسر «كاوس بن خاراخره» وابنه «الفضل»، وبعث بهما إلى المأمون. ووهب طلحة بن طاهر لأحمد بن أبي خالد ثلاثة آلاف ألف درهم وعَروضاً بألفي ألف، ووهب لإبراهيم بن العباس كاتب أحمد بن أبي خالد خمسمائة ألف درهم.

ارتحل الحسن بن الحسين بن مصعب من خراسان إلى «كرمان» وامتنع بها، فسار إليه أحمد بن أبي خالد

وتمكّن من أخذه، وقدم به على المأمون فعفا عنه، وذلك سنة ٢٠٨هـ.

وخلع أهل «قم» الطاعة للسلطان سنة ٢١٠هـ، وذلك أنهم قد استكثروا ما عليهم من خراج حيث كان خراجهم ألفي ألف درهم، وكان المأمون قد حطّ عن أهل الريّ حين دخلها منصرفاً من خراسان إلى العراق بعض الخراج الذي عليهم، فطمع أهل «قم» من المأمون بمعاملتهم مثل أهل الريّ بالحطّ عنهم والتخفيف، فرفعوا إليه يسألونه الحطّ، ويشكون إليه ثقله عليهم، فلم يجبهم المأمون إلى ما سألوه، فامتنعوا من أدائه، فوجّه إليهم المأمون عليّ بن هشام، ثم أمده بـ«عجيف بن عنبسة»، فحاربهم عليّ فظفر بهم، وقتل يحيى بن عمران كبيرهم، وهدم سور «قم»، وجباها سبعة آلاف ألف درهم بعدما كانوا يتظلّمون من ألفي ألف درهم.

ومات طلحة بن طاهر بن الحسين خليفة أخيه عبد الله على خراسان سنة ٢١٣هـ. ثم إن عبد الله بن طاهر قد خرج إلى الدينور، فبعث المأمون إليه إسحاق بن إبراهيم ويحيى بن أكثم يخيّرانه بين خراسان وبين الجبال وأرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك الخرميّ، فاختار

خراسان، وسار إليها، وتولّى أمرها بنفسه، وذلك سنة ٢١٤هـ، واستمر إلى أن توفي بنيسابور سنة ٢٣٠هـ.

وثار جعفر بن داود القميّ، فظفر به عزيز مولى عبد الله بن طاهر.

٢ ـ الجزيرة الفراتية:

لم يكن للولايات حدود معينة معروفة بل كانت أسماء تدلّ على مناطق واسعةٍ قد يؤخذ منها إقليم فيضمّ إلى ولايةٍ أخرى، وقد يُضمّ إليها إقليم أو أكثر حسب المصلحة، وغالباً ما كان الخليفة في الوقت المتأخر يعهد إلى أحد الرجال البارزين بالإمارة على عدة أمصار، فيرسل نواباً عنه إلى تلك الأمصار ويبقى هو بجانب الخليفة حيث يكون، أو يختار هو قاعدةً له كأن تكون مركز أحد الأقاليم التي تتبعه، ومنها يُشرف على إمارته كلها، ويتفقّد نوابه، ويبعث إليهم بما يراه.

عهد المأمون بعد أن آل إليه أمر الخلافة إلى طاهر بن الحسين الموصل والجزيرة الفراتية والشام والمغرب، وأمره بالسير إلى الرقة ونصب الحرب لنصر بن شبث، وكان المأمون لا يزال في «مرو»، وكان الحسن بن سهل هو المنفّذ الفعلي لشؤون العراق وكل ما يليه من ناحية الغرب، وأخيراً قدم المأمون

بغداد سنة ٢٠٤هـ بعد انتهاء فتنة عمه إبراهيم بن المهدي، وكلّف طاهر بن الحسين بالمسير إلى خراسان مكانه، فولّى طاهر ابنه عبد الله بن طاهر على عمله وما تحت يده، وعهد إليه بقتال نصر بن شبث، وانطلق هو إلى خراسان، بعد أن كتب لابنه كتاباً فيه نصحه، ونسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه، وحفظ رعيتك، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك، وما أنت صائر إليه، وموقوف عليه، ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله، وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه، فإن الله قد أحسن إليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقه وحدوده فيهم، والذبّ عنهم، والدفع عن حريمهم وبيضتهم، والحقن لدمائهم، والأمن لسبيلهم، وإدخال الراحة عليهم في معايشهم، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك، وموقفك عليه، ومسائلك عنه، ومثيبك عليه بما قدّمت وأخّرت، ففرّغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك، ولا يذهلك عنه

ذاهل، ولا يشغلك عنه شاغل، فإنه رأس أمرك، ومِلاك شأنك، وأول ما يُوفّقك الله به لرشدك.

وليكن أول ما تلزم به نفسك، وتنسب إليه فعالك المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قِبَلك في مواقيتها على سننها، في إسباغ الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله فيها. وترتّل في قراءتك، وتمكّن في ركوعك وسجودك وتشهّدك، ولتصدق فيها لربك. واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك، وادأب عليها فإنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله ﷺ والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ولزوم ما أنزل الله في كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار على النبي ﷺ، ثم قم بما يحق لله عليك، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريبٍ من الناس أو بعيدٍ. وآثر الفقه وأهله، والدين وحملته، وكتاب الله والعاملين به، فإن أفضل ما تزيّن به المرء الفقهُ في دين الله، والطلب له، والحثّ عليه، والمعرفة بما يتقرّب فيه منه إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله،

والقائد له، والآمر به، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها. وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفةً بالله عزّ وجلّ، وإجلالاً له، ودركاً للدرجات العلا في المعاد، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك، والهيبة لسلطانك، والأنسة بك، والثقة بعدلك.

وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شيء أبين نفعاً، ولا أحضر أمناً، ولا أجمع فضلاً من القصد، والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق منقاد إلى السعادة. وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد، فآثره في دنياك كلها، ولا تُقصّر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة، ومعالم الرشد فلا غاية للاستكثار من البرّ والسعي له، إذا كان يُطْلَب به وجه الله ومرضاته، ومرافقة أوليائه في دار كرامته.

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يُورث العزّ، ويُحصّن من الذنوب، وإنك لن تحوط نفسك ومن يليك، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه، فأته واهتد به، تتمّ أمورك، وتزداد مقدرتك، وتصلح خاصتك وعامتك.

وأحسن الظنّ بالله عزّ وجلّ تستقم لك رعيتك،

والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك، ولا تُنهض أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبراء، والظنون السيئة بهم مأثم، واجعل من شأنك حسن الظنّ بأصحابك، واطرد عنهم سوء الظنّ بهم، وارفضه عنهم يُعِنْك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم. ولا يجدنّ عدوّ الله الشيطان في أمرك مغمزاً، فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغمّ في سوء الظنّ ما يُنغّصك لذاذة عيشك.

واعلم أنك تجد بحسن الظنّ قوةً وراحةً، وتكفي به ما أحببت كفايته من أمورك، وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها لك. ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث في أمورك، والمباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرعية والنظر فيما يُقيمها ويُصلحها، بل لتكن المباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين، وأحيى للسنّة.

وأخلص نيّتك في جميع هذا، وتفرّد بتقويم نفسك تفرّد من يعلم أنه مسؤول عما صنع، ومجزي بما

أحسن، ومأخوذ بما أساء، فإن الله جعل الدين حرزاً وعزّاً، ورفع من اتبعه وعزّزه، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى. وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم، وما استحقوه، ولا تُعَطِّل ولا تتهاون به، ولا تؤخّر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك لما يفسد عليك حسن ظنّك.

واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة، وجانب الشُّبَه والبدعات، يسلم لك دينك، وتقم لك مروءتك. وإذا عاهدت عهداً ففِ به، وإذا وعدت الخير فأنجزه، واقبل الحسنة، وادفع بها، واغمض عن عيب كل ذي عيبٍ من رعتيك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأبغض أهله، وأقص أهل النميمة، فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على أهل الكذب، لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمتها، لأن النميمة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب، ولا يستقيم لمطيعها أمر.

وأحب أهل الصدق والصلاح، وأعن الأشراف بالحق، وواصل الضعفاء، وصل الرحم، وابتغ بذلك وجه الله وعزّة أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة.

واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرف عنهما رأيك، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك، وأنعم بالعدل سياستهم، وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى، واملُك نفسك عند الغضب، وآثر الوقار والحلم، وإياك والحدّة والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله.

وإياك أن تقول إني مسلّط أفعل ما أشاء، فإن ذلك سريع فيك إلى نقص الرأي، وقلّة اليقين بالله وحده لا شريك له. وأخلص لله النيّة فيه واليقين به، واعلم أن الملك لله يُعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ولن تجد تغيّر النعمة وحلول النقمة إلى أحدٍ أسرع منه إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا بنِعم الله وإحسانه، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله. ودع عنك شره نفسك. ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخّر وتكنز البر والتقوى والعدل واستصلاح الرعية، وعمارة بلادهم، والتفقّد لأمورهم، والحفظ لدهمائهم، والإغاثة لملهوفهم.

واعلم أن الأموال إذا كثُرت وذُخّرت في الخزائن لا تثمر، وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكفّ المؤنة عنهم نمت وربت، وصلحت به العامة،

وتزيّنت الولاة، وطاب به الزمان، واعتقد فيه العزّ والمنعة، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله، ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قِبَلك حقوقهم، وأوف رعيتك من ذلك حصصهم، وتعهّد ما يصلح أمورهم ومعايشهم، فإنك إن فعلت ذلك قرّت النعمة عليك، واستوجبت المزيد من الله، وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك، وأطيب أنفساً لكل ما أردت.

فاجهد نفسك فيما حددتُ لك في هذا الباب، ولتعظم حسبتك فيه، فإنما يبقى من المال ما أُنفق في سبيل حقه، واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه. وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك، فإن التهاون يوجب التفريط، والتفريط يورث البوار، وليكن عملك لله تبارك وتعالى، وارجُ الثواب، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا، وأظهر لديك فضله، فاعتصم بالشكر، وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحساناً، فإن الله يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين، واقض الحق فيما حمل من النعم، والبس من العافية والكرامة. ولا تحقرن ذنباً. ولا تمايلن

حاسداً، ولا ترحمنّ فاجراً، ولا تصلنّ كفوراً، ولا تُداهننّ عدوّاً، ولا تُصدِّقنَّ نمّاماً، ولا تأمننّ غدّاراً، ولا تُوالين فاسقاً، ولا تتبعنّ غاوياً، ولا تحمدنّ مرائياً، ولا تحقرنّ إنساناً، ولا تردنّ سائلاً فقيراً، ولا تجيبنّ باطلاً، ولا تلاحظنّ مضحكاً، ولا تخلفنّ وعداً، ولا ترهبنّ فُجّراً، ولا تعملنّ غضباً، ولا تأتينّ بذخاً، ولا تمشينّ مرحاً، ولا تركبنّ سفهاً، ولا تفرّطنّ في طلب الآخرة، ولا تدفع الأنام عتاباً، ولا تغمضنّ عن الظالم رهبةً أو مخافةً، ولا تطلبنّ ثواب الآخرة بالدنيا. وأكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة، ولا تُدخلنّ في مشورتك الدِّقة والبخل، ولا تسمعنّ لهم قولاً، فإن ضررهم أكثر من نفعهم. وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت في أمر رعيتك من الشحّ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ، قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً، فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكفّ عن أموالهم وترك الجور عنهم، ويدوم صفاء أوليائك لك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم، فاجتنب الشحّ، واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه، وإن العاصي بمنزلة خزي، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾[1]، فسهّل طريق الجود بالحق، واجعل للمسلمين كلهم من نيّتك حظّاً ونصيباً، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد، فاعدده لنفسك خلقاً، وارض به عملاً ومذهباً.

وتفقّد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم، وأدرر عليهم أرزاقهم، ووسّع عليهم في معايشهم، ليُذهب بذلك الله فاقتهم، ويقوّم لك أمرهم، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً، وحسب ذي سلطانٍ من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبرّه وتوسعته، فزايل مكروه إحدى البليّتين باستشعار تكملة الباب الآخر، ولزوم العمل به تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً.

واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذي تعتدل عليه الأحوال في الأرض، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية، وتأمن السبُل، وينتصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويُؤدّى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجري السنن والشرائع، وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل في القضاء.

---

(١) سورة التغابن: الآية ١٦.

واشتدّ في أمر الله، وتورّع من النَّطَف[1]، وامض لإقامة الحدود، وأقلل العجلة، وأبعد من الضجر والقلق، ولتسكن ريحك، ويقرّ جدّك، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، واسدد في منطقك، وأنصف الخصم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحدٍ من رعيتك محاباة ولا محاماة، ولا لوم لائم، وتثبّت وتأنَّ، وراقب وانظر، وتدبّر وتفكّر، واعتبر، وتواضع لربك، وارأف بجميع الرعية، وسلّط الحق على نفسك، ولا تُسرعنّ إلى سفك دم - فإن الدماء من الله بمكانٍ عظيمٍ - انتهاكاً لها بغير حقها.

وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية وجعله الله للإسلام عزّاً ورفعةً، ولأهله سعةً ومنعةً، ولعدوّه وعدوّهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلًّا وصغاراً، فوزّعه بين أصحابه بالحق والعدل، والتسوية والعموم فيه، ولا ترفعنّ فيه شيئاً عن شريفٍ لشرفه، ولا عن غنيٍ لغناه، ولا عن كاتبٍ لك، ولا أحدٍ من خاصّتك. ولا تأخذنّ منه فوق الاحتمال له، ولا تكلفنّ أمراً فيه شطط، واحمل الناس كلهم على مرّ الحق، فإن ذلك أجمع لإلفتهم، وألزم

---

(١) النطف: العيب والفساد.

لرضا العامة. واعلم أنك جُعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً، وإنما سُمّي أهل عملك رعيتك، لأنك راعيهم وقيّمهم، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتُنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أودهم، فاستعمل عليهم في كُوَر عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم والسياسة والعفاف، ووسّع عليهم في الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلّدت وأُسند إليك، ولا يشغلنّك عنه شاغل، ولا يصرفنّك عنه صارف، فإنه متى آثرته وقُمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحدوثة في أعمالك، واحترزت النصيحة من رعيتك، وأعنت على الصلاح، فدرّت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيتك، وظهر الخصب في كُوَرِك، فكثُر خراجك، وتوفّرت أموالك، وقويت بذلك على ارتباط جندك، وإرضاء العامة بإقامة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة، مرضي العدل في ذلك عند عدوّك، وكنت في أمورك كلها ذا عدلٍ وقوةٍ، وآلةٍ وعدةٍ، فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئاً تحمد عاقبة أمرك إن شاء الله.

واجعل في كل كورةٍ من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم حتى كأنك مع

كل عاملٍ في عمله، معاين لأمره كله، وإن أردت أن تأمره بأمرٍ فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضه، وإلا فتوقّف عنه. وراجع أهل البصر والعلم، ثم خذ فيه عدته، فإنه ربما نظر الرجل في أمرٍ من أمره قد واتاه على ما يهوى، فقوّاه ذلك وأعجبه، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه، ونقض عليه أمره.

فاستعمل الحزم في كل ما أردت، وباشره بعد عون الله بالقوة، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك، وافرَغ من عمل يومك ولا تُؤخّره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإن لغدٍ أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخّرت، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا أخّرت عمله اجتمع عليك أمر يومين، فشغلك ذلك حتى تعرض عنه، فإذا أمضيت لكل يومٍ عمله أرحت نفسك وبدنك، وأحكمت أمور سلطانك.

وانظر أحرار الناس وذوي الشرف منهم، ثم استيقن صفاء طويتهم وتهذيب مودتهم لك، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك، فاستخلصهم وأحسن إليهم، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة، فاحتمل مؤونتهم، وأصلح حالهم، حتى لا

يجدوا لخلّتهم مسّاً، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين، ومن لا يقدر على رفع مظلمةٍ إليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه، فاسأل عنه أحفى مسألة، ووكّل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك، لتنظر فيها بما يصلح الله أمرهم. وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداءً بأمير المؤمنين أعزّه الله، في العطف عليهم، والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركةً وزيادةً. وأجرِ للأضرّاء من بيت المال، وقدّم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم، وقُوّاماً يرفقون بهم، وأطباء يُعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يُؤدّ ذلك إلى سرفٍ في بيت المال. واعلم أن الناس إذا أُعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعاً في نيل الزيادة، وفضل الرفق منهم، وربما برِم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل فكره وذهنه منها ما يناله به مؤنة ومشقة، وليس من يرغب في العدل، ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل

كالذي يستقبل ما يقرّبه إلى الله، ويلتمس رحمته به. وأكثر الإذن للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وسكّن لهم أحراسك، واخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بِشرك، ولِنْ لهم في المسألة والمنطق، واعطف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيت فأعطِ بسماحةٍ وطيب نفسٍ، والتمس الصنيعة والأجر غير مكدّر ولا منّان، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله.

واعتبر ما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسننه وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه، ودعا إلى سخط الله. واعرف ما يجمع عمّالك من الأموال وينفقون منها. ولا تجمع حراماً، ولا تنفق إسرافاً، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم. وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرم دخلائك وخاصّتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سرٍّ، وإعلامك ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك.

وانظر عمّالك الذين بحضرتك وكتّابك، فوقّت لكل رجلٍ منهم في كل يومٍ وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه وأوامره، وما عنده من حوائج عمّالك، وأمر كُوَرك ورعيتك، ثم فرّغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك، وكرّر النظر إليه والتدبير له، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمضه، واستخر الله فيه، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبّت فيه والمسألة عنه.

ولا تمنُن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروفٍ تأتيه إليهم، ولا تقبل من أحدٍ منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين، ولا تضعنّ المعروف إلا على ذلك.

وتفهّم كتابي إليك، وأكثر النظر فيه والعمل به، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره، فإن الله مع الصلاح وأهله، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله رضاً ولدينه نظاماً، ولأهله عزّاً وتمكيناً، وللذمّة والملّة عدلاً وصلاحاً.

وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءك، وأن يُنزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك، حتى يجعلك أفضل مثالك نصيباً، وأوفرهم حظاً، وأسناهم ذكراً، وأمراً، وأن يهلك

عدوك ومن ناوأك وبغى عليك، ويرزقك من رعيتك العافية، ويحجز الشيطان عنك ووساوسه، حتى يستعلي أمرك بالعزّ والقوة والتوفيق، إنه قريب مجيب[1].

وربما تبعت أرمينيا وأذربيجان وربما الموصل أيضاً ولاية الجزيرة الفراتية للإشراف على عملية الفتح أو القتال إن كان هناك ما يستدعي ذلك إذ كان الروم يحرّضون الأرمن باستمرار ويدعمونهم ضد المسلمين لإشغال المسلمين عنهم من ناحيةٍ ولإضعاف القوة المجاهدة حسب تصوّر الروم. وهذا ما أخّر انتشار الإسلام بين الأرمن. كما كان الروم يسعون لإثارة الفتن في منطقة أذربيجان حيث انتشر الإسلام فيها منذ أيام

---

(١) تاريخ الطبري. والكامل في التاريخ، ابن الأثير.

وذكر أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد تنازعه الناس وكتبوه، وتدارسوه وشاع أمره، حتى بلغ المأمون فدعا به وقُرئ عليه، فقال: ما أبقى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه، وأوصى به وتقدّم. وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال. «تاريخ الطبري».

والتبحّر بالعلم يفيد صاحبه في الدنيا والآخرة. كما يمكن للمغرض أن يخفي أشياء. فالعلم ينفي التهمة، ويُبعد الشبهة.

الفتح الأولى في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، سنة ٢٣هـ. ويمدّ الروم كل من تمتدّ عنقه تريد التطاول وخاصةً إن كان وراء ذلك دعوة كافرة هدّامة تُحارب الإسلام وتدعو إلى ما يخالفه وتعمل لنقض عرا الإيمان بالله من الأساس كالخرّمية وأمثالها.

وقد تتبع أرمينيا وأذربيجان منطقة الجبال التي تفصل بين الفيافي والبوادي التي إلى الشرق منها وخراسان من جهة الشرق وبين الجزيرة الفراتية والعراق من جهة الغرب، على أساس أن أرمينيا تُعدّ تتمةً لتلك الجبال التي تشمل أيضاً الأجزاء الغربية من أذربيجان وبعض النواحي الأخرى منها، وإذا ما انتشرت حركة في هذه المناطق تسرّبت بين السكان، إذ أنهم في شبه عزلةٍ في جبالهم ومواقعهم الصعبة سوى من يغترب تاجراً أو ينفر مجاهداً. وتسعى الحركات غالباً لتجد في المناطق الجبلية لها قاعدةً فأهلها أقوياء تمرّسوا على الشدّة، وتمرّنوا على تحمّل الصعاب، وتدرّبوا على اجتياز العقبات وتحمّل القسوة، ومع قوة أجسامهم فإن قلوبهم لا تلين ولا تخضع بالسهولة، وأفكارهم لا تتغيّر بعجالةٍ، فعقولهم إذا قبلت أمراً، وقلما تتقبّل إلا إذا وجدت في ذلك مصلحةً لها، واستطاع مُحدّثها أن

يُقنعها بمنفعةٍ مرتقبةٍ وحظٍّ مُقبلٍ، وإذا ما ثبت ذلك في العقل ورسخ في الفكر صعُب قبول غير ذلك وامتنع عن كل ما عداه. هذا إضافةً إلى أن في المناطق الجبلية حصوناً منيعةً وقلاعاً حصينةً وشعاباً صعبةً وطرقاً وعرةً ودروباً مسدودةً لا يعرفها إلا أهلها وأوديةً عميقةً يصعب اجتيازها، لذا كانت معاقل لساكنيها وملاجئ لأصحابها يصعب الوصول إليهم، ويشقّ أن تطالهم يد الغريب الخصم، وقد تسرّبت أفكار الخرّميّة إلى بعض نواحي تلك الجهات وقد وجدت في سكانها ضالتها وفي جبالها منعتها.

كان المأمون قد ولّى يحيى بن معاذ الجزيرة الفراتية وأمره بقتال بابك الخرّميّ، والمنطقة بالأصل تتبع عبد الله بن طاهر الذي استخلفه أبوه مكانه. ولم يلبث يحيى بن معاذ سوى سنةٍ حتى توفي سنة ٢٠٦هـ، ولم يستطع أن يظفر بخصمه بابك، كما أن بابك الخرميّ لم يتمكّن من إحراز النصر على يحيى. فرجع عبد الله بن طاهر إلى الرقة وتولّى حرب نصر بن شبث، وكان عبد الله قد استخلف مكانه في بغداد إسحاق بن إبراهيم.

كما ولّى المأمون على أرمينية وأذربيجان ومحاربة

بابك الخرميّ عيسى بن محمد بن أبي خالد، غير أنه نُكب فولّى مكانه صدقة بن علي الذي عُرف باسم «زريق أرمينيا».

وبعد أن ظفر عبد الله بن طاهر بنصر بن شبث سار إلى مصر بأمر المأمون لقتال عبيد الله بن السريّ.

وتمكّن شهريار بن شروين من السيطرة على الجبال، حتى مات سنة ٢١٠هـ، فخلفه ابنه سابور، ولكن نازعه مازيار بن قارن فأسره وقتله، وغدت منطقة الجبال بيد مازيار.

٤ ـ مصر:

زاد أذى النوبيين وقبائل البجاة على جنوبي مصر وكثرت تعدياتهم على منطقة أسوان، ولم يحفظوا عهداً، ولم يرعوا ذمةً فقاتلهم المأمون، وألزمهم على عقد عهدٍ جديدٍ يلتزمون بشروطه، وعُدّت بلادهم ضمن ديار الخلافة، وكانت أهم شروط هذا العهد:

١ ـ أن تكون بلاد البجاة من حدود أسوان إلى البلاد التي تمتد بين دهلك[1] وباضع[2] ملكاً للخليفة،

---

(١) دهلك: جزر في البحر الأحمر مقابل ميناء مصوع الأريتري.
(٢) باضع: ميناء قديم، جنوب ميناء مصوع اليوم.

وأن يكون كنون بن عبد العزيز ملكاً على البجاة.

٢ ـ يؤدي ملك البجاة كل عامٍ الخراج على ما كان عليه أسلافه مائةً من الإبل وثلاثمائة دينارٍ.

٣ ـ أن يحترم البجاة الإسلام، وألا يذكروه بسوءٍ، وألا يُعينوا أحداً على أهله.

٤ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول إلى بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً.

٥ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مقيماً أو مجتازاً أو حاجّاً، فهو آمن حتى يخرج من بلادهم.

٦ ـ إذا نزل البجاة صعيد مصر مجتازين أو تجاراً فلا يظهرون سلاحاً، ولا يدخلون القرى والمدن بحالٍ.

الإمارات:

إلى الغرب من مصر في ديار الخلافة كانت عدة إماراتٍ شبه مستقلةٍ، وكلها ضمن ما يُعرف اليوم باسم بلاد المغرب، وهي:

١ ـ الأغالبة:

وظهرت هذه الدولة عام ١٨٤هـ أيام الخليفة

هارون الرشيد، وذلك على يد إبراهيم بن الأغلب الذي ولّاه الرشيد إفريقية، وتوفي إبراهيم سنة ١٩٦هـ، وتولّى الإمارة بعده في القيروان ابنه عبد الله، وهو المعروف باسم «عبد الله الأول» والمكنّى بأبي العباس، وكان سيئ السيرة، زاد في الضرائب، وملّ الناس حكمه حتى أهله وعشيرته، وتوفي سنة ٢٠١هـ.

ثم خلفه أخوه زيادة الله بن إبراهيم، والمكنى أبو محمد، واستقرّ الوضع في أيامه، وعمّ الهدوء مدة ست سنوات ثم ثار عليه سنة ٢٠٧هـ زياد بن سهل المعروف بـ(ابن الصقلبية)، وحاصر مدينة باجة، فسيّر إليه زيادة الله قوةً أجبرته على فكّ الحصار، وقتلت من وافقه على خلع الطاعة.

وفي سنة ٢٠٨هـ ثار على زيادة الله بتونس منصور بن نصير فأرسل زيادة الله جيشاً بقيادة محمد بن حمزة غير أن جيش الأغالبة قد هُزم، فبعث له جيشاً آخر بقيادة ابن عمه الأغلب بن عبد الله بن الأغلب، وهدّد الجند والقيادة بالقتل إن هُزموا، وكان أن هُزموا فخافوا من العودة إلى قاعدتهم فالتحقوا بالثائر منصور بن نصير، واستولوا على عدة مدن.

سار الثائر منصور إلى مدينة القيروان وألقى

الحصار عليها، لكنه هُزم وتراجع عنها، ثم رجع ثانيةً لحصارها سنة ٢٠٩هـ، ولم يبق تحت يد الأمير الأغلبي سوى مدينة قابس والساحل الجنوبي وطرابلس، وقد ضرب منصور بن نصير السكة باسمه، ولم تنته حركته إلا في عام ٢١١هـ حيث اختلف منصور مع قائده عامر بن نافع الأمر الذي مكّن لزيادة الله من استعادة سلطانه والقضاء على حركة منصور بن نصير.

وفي عهد المأمون فتح الأغالبة أمراء إفريقية جزيرة صقلية. وكان قد سبق للمسلمين غزو هذه الجزيرة بقيادة عبد الله بن قيس الفزاري أثناء ولاية معاوية بن حديج على مصر وإفريقية في خلافة معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، ثم سنة ١٠٣هـ بقيادة محمد بن إدريس الأنصاري أيام خلافة يزيد بن عبد الملك، وحصل المسلمون على غنائم كثيرةٍ يومذاك. ثم في ١٢٢هـ بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع في خلافة هشام بن عبد الملك، ودخل حبيب مدينة «سرقوسة» على ساحل الجزيرة الشرقي. كما عاد حبيب، رحمه الله، مرة أخرى للجهاد في الجزيرة وذلك سنة ١٣٠هـ أيام خلافة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. ولكن لم تثبت أقدام المسلمين إلا في عهد الأغالبة.

عين إمبراطور القسطنطينية ميخائيل الثاني سنة ٢١١هـ أميراً على جزيرة صقلية قسطنطين البطريق، فاستعمل قسطنطين هذا على الأسطول رجلاً رومياً يُدعى «فيمي»، فأغار «فيمي» على سواحل إفريقية ونهبها، وبقي مدةً فيها. ولما وصل نبأ هذه الغارة إلى إمبراطور الروم أغضبه حيث لا يريد أن تجتمع كلمة المسلمين، وأكثر ما يجمعها عندما يكون للمسلمين هدف واحد يُوجّهون قوتهم إليه، ويُعلنون الجهاد، ويرفعون رايته، ويكون هذا عندما يُعتدى على ديار المسلمين، وعندها يكون الجهاد فرض عين، وإمبراطور الروم يريد أن يبقى المسلمون مشغولين ببعضهم، حركات تقوم، وإمارات تنشأ، لذا فإن الإمبراطور قد كتب إلى قسطنطين عامله على صقلية يأمره بإلقاء القبض على «فيمي»، ووصل الخبر إلى «فيمي» فأخبر أصحابه وأثارهم واتجه بهم إلى صقلية مغاضبين ومخالفين واستولوا على «سرقوسة» فسار إليهم قسطنطين فهزموه، فارتحل إلى مدينة «قطانيا» شمال «سرقوسة» فلحقوا به، وقبضوا عليه، وقتلوه، ونودي بـ«فيمي» ملكاً على الجزيرة. ولكن ثار عليه أحد عمّاله على بعض نواحي الجزيرة، ووالي «بلرم» وساروا إليه، واستولوا على «سرقوسة»، ففرّ منهم، واتجه إلى إفريقية، وأرسل إلى زيادة الله من

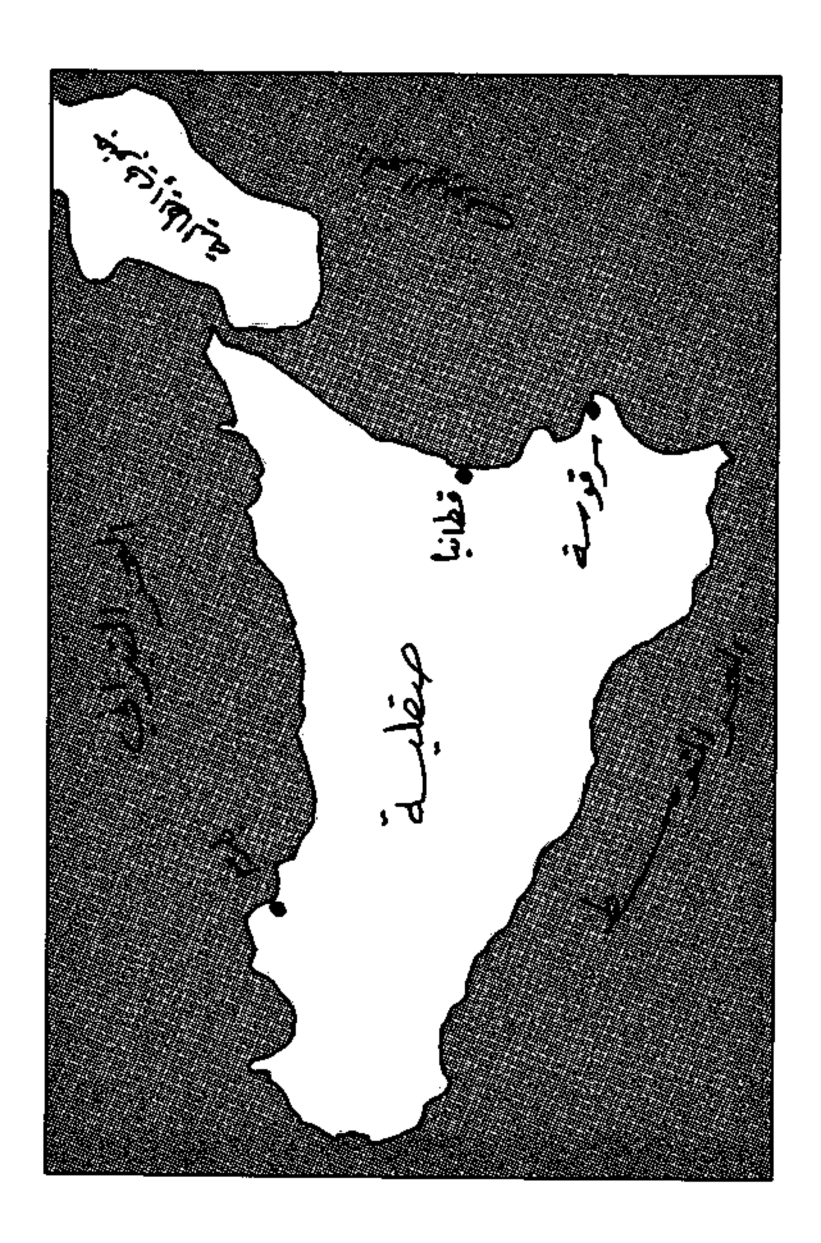
بني الأغلب يستنجد به ويعده بتسليم الجزيرة.

جهّز زيادة الله الأغلبي جيشاً كبيراً بإمرة قاضي القيروان أسد بن الفرات[1]، فانتصر المسلمون، ثم جاءت نجدات من الروم إلى نصارى صقلية، كما انقلب «فيمي» على المسلمين، وحلّ الوباء بالمسلمين، ومات أميرهم أسد بن الفرات سنة ٢١٣هـ، لذا لم يستطع المسلمون أن يتوغّلوا داخل الجزيرة.

ولّى المسلمون عليهم محمد بن أبي الجواري، وجاءتهم نجدة من القيروان، كما وصلت إلى الجزيرة سفن من مسلمي الأندلس، فساعدوا إخوانهم، وحاصر المسلمون مدينة «بلرم» عام ٢١٥هـ، ورغم عودة الأندلسيين فقد تمكّن المسلمون من فتح مدينة «بلرم» عام ٢١٦هـ. وتوفي المأمون عام ٢١٨هـ، ولا يزال الفتح يتقدّم في جزيرة صقلية.

---

(١) أسد بن الفرات بن سنان، مولى بني سُليم، أبو عبد الله: ولد سنة ١٤٢هـ بـ«حرّان». رحل أبوه في جيش محمد بن الأشعث إلى القيروان، فحمله معه وهو طفل، فنشأ بها، ثم ارتحل إلى تونس، وتربّى بها، ورحل سنة ١٧٢هـ إلى المشرق في طلب الحديث، ثم عاد إلى القيروان وتولّى قضاءها سنة ٢٠٤هـ، وتوفي في صقلية مجاهداً سنة ٢١٣هـ، وهو من أصحاب مالك، وله مصنف «الأسدية» في فقه المالكية.


صقلية
قطانيا
سرقوسة

٢ ـ الأدارسة:

تولّى أمر دولة الأدارسة في فاس إدريس الثاني بنفسه سنة ١٨٨هـ بعد أن كانت عليه وصاية، واستمرّ بالحكم حتى توفي سنة ٢١٣هـ، وعمره لا يتجاوز السادسة والثلاثين، وخلفه ابنه محمد بن إدريس، وفي عهده اختلف الأدارسة حيث نازعه أخوه عيسى بن إدريس، وكان والياً على مدينة «أزمور»، فأراد أن يستعين بأخيه القاسم بن إدريس والي «طنجة» غير أن القاسم رفض ذلك، فاستنجد محمد بأخيه عمر والي «مكناس» فساعده، فهزم أخواه اللذين في «أزمور» و«طنجة». وبقي محمد بالسلطة حتى توفي سنة ٢٢١هـ.

٣ ـ إمارة الخوارج الأباضية في «تاهرت»:

كان أمير هذه الدولة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم منذ سنة ١٧١هـ، واستمرّ حتى توفي سنة ٢٠٨هـ، وقد هادن عبد الوهاب ولاة القيروان العباسيين سواء هؤلاء الحاليين أم الذين جاءوا من بعدهم وهم الأغالبة الذين تولّوا أمر القيروان منذ عام ١٨٤هـ.

وخلف عبد الوهاب ابنه أفلح بن عبد الوهاب، واستمر في الحكم حتى سنة ٢٥٨هـ أي إلى أن زالت هذه الإمارة.

٤ ـ إمارة الخوارج الصفرية في «سجلماسة»:

وتُعرف بدولة بني مدرار، وكان الأمير فيها اليسع بن أبي القاسم منذ عام ١٧٤هـ، واستمرّ في حكمه حتى سنة ٢٠٨هـ، حيث توفي. وقد ثارت الخوارج الأباضية في أيامه في وادي «درعة» غير أنه قضى على ثورتهم وبطش بهم.

وكما هادن الخوارج الأباضيون الولاة العباسيين في القيروان كذلك هادنهم الخوارج الصفرية الذين اتجهوا نحو أوضاعهم الداخلية فقد نشطوا بالتجارة، وارتحلوا بتجارتهم بين الشمال والجنوب.

خلف اليسع بن أبي القاسم المعروف بأبي المنصور ابنه مدرار بن أبي المنصور، وقد تزوج ابنة عبد الرحمن بن رستم مؤسس دولة الخوارج الرستمية، وأنجب منها ولداً أسماه «ميمون» وعُرف باسم «ميمون ابن الرستمية» وذلك لأن مدراراً كان له ولد آخر يحمل أيضاً اسم «ميمون»، ولكن من زوجة ثانيةٍ اسمها «بقية» لذا كان يُدعى «ميمون ابن بقية» تمييزاً عن أخيه «ميمون ابن الرستمية» وقد حدث خلاف بين هذين الأخوين.

وبقي مدرار بالحكم حتى خلع نفسه من السلطان سنة ٢٢١هـ، وولّى مكانه ابنه «ميمون ابن الرستمية».

الأندلس

كان يحكم الأندلس أيام المأمون الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل من بني أمية، وقد تولّى الحكم أمر الأندلس سنة ١٨٠هـ، واستمرّ حتى عام ٢٠٦هـ، وقد عُرف بـ«الربضيّ»، وخرج عليه عمّاه، واستوليا على «طليطلة» و«بلنسية»، فحاربهما الحكم، واستردّ ما استوليا عليه. واستغلّ النصارى في الشمال هذا الخلاف والانقسام في البيت الأموي فهاجموا «أرغونة» إلا أن الأمير الحكم استطاع ـ بإذن الله ـ أن يردّهم على أعقابهم خاسرين.

وثار على الحكم والي برشلونة، ووالى الكفار، واستنجد بشارلمان ملك الفرنجة غير أن ثورته قد فشلت، وأخفق صاحبها، وخسر خسراناً مبيناً.

توفي الحكم عام ٢٠٦هـ، وخلفه ابنه عبد الرحمٰن الذي عُرف باسم «عبد الرحمٰن الأوسط»، وفي عهده استتب الأمن، وساد النظام فانصرف إلى العلم والاهتمام بشؤون الدولة، كما

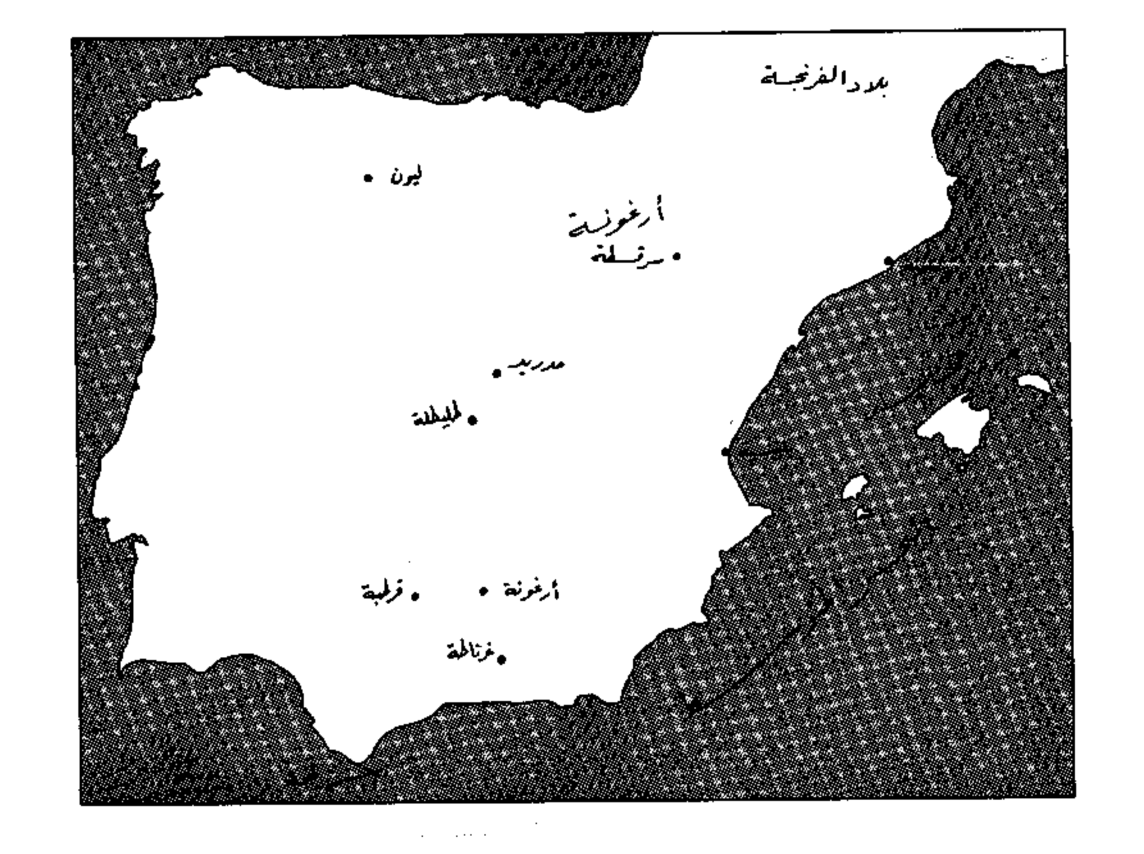
اعتنق الإسلام في أيامه عدد كبير من النصارى الإسبان.

ظهرت في أيام عبد الرحمٰن الأوسط حركات الاستخفاف، وهي شتم رسول الله ﷺ والإسلام، والكلام السيئ عن كتاب الله القرآن من قبل أفراد حمقى مغامرين بتحريضٍ من الرهبان ورجال الدين النصارى لقاء أموالٍ ووعودٍ كاذبةٍ.

هاجم أمير «ليون» من الفرنجة وبعض أمراء نصارى شمال الأندلس البلاد الإسلامية غير أنهم لم يظفروا بشيء، وعادوا خائبين.

وعاش عبد الرحمٰن الأوسط أبو المطرف حتى سنة ٢٣٨هـ، فكانت إمارته إحدى وثلاثين سنةً وثلاثة أشهرٍ، وتوفي بقرطبة، وخلفه بالإمارة ابنه محمد الأول.

وبنى في أيام إمارته المساجد في الأندلس، ومنها جامع إشبيلية، واتخذ السكة (ضرب النقود) في قرطبة، وضرب الدراهم باسمه، وكان عالي الهمة، وينظم الشعر.



بلاد الفرنجة
ليون
أرغونة
سرقسطة
مدريد
طليطلة
أرغونة
قرطبة
غرناطة

القتال مع الروم:

لم تبق للمسلمين من جبهة قتالٍ رئيسيةٍ سوى جبهة الروم وتمتدّ على مسافاتٍ طويلةٍ تبدأ من شرقي أرمينية إلى منطقة الثغور في أعالي جبال طوروس، وتصل إلى سواحل البحر المتوسط، كما أن جزر البحر تعدّ ضمن هذه الجبهة.

وإضافةً إلى هذا فإن الفرنجة في شمال الأندلس تعدّ بلادهم جبهة قتالٍ على ديار الإسلام، وليس من فرق بين الروم البيزنطيين والفرنجة سوى أن الأوليين أرثوذكس والآخرين كاثوليك فكلاهما ضمن الديانة النصرانية. وإن كان هناك خلاف أيضاً بين العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس إلا أن كليهما ضمن عقيدةٍ واحدةٍ في الإسلام حيث لا توجد تلك الخلافات في العقيدة التي نراها في النصرانية.

وقد عمل بعض المؤرخين على اختراع حلفٍ بين العباسيين في المشرق والفرنجة في غربي أوربا ومثله بين الأمويين في الأندلس والبيزنطيين في المشرق، ودوّنوا رسائل بين طرفي كل حلفٍ واخترعوا هدايا غير أنهم لم يجدوا وقائع، ولم يتمكّنوا من تدوين أحداث، لذا بقي عملهم تسجيلاً نظرياً كان الهدف من طرحه

تقوية الخلاف بين المسلمين من عباسيين وأمويين وإيصاله إلى مرحلة صراعٍ يهزّ كيان الجانبين كي تصاب الأمة الإسلامية بالضعف عسى أن ينال أعداؤها منها بعض ما يسعون له.

أما الجبهة الشرقية فلم تكن جبهةً بالمعنى الحربي، بل كانت مجموعة شعوبٍ أكثرها تركية وصينية ولكنها غير متفاهمةٍ فيما بينها تقع منها غارات على ديار الإسلام فتُؤدّب، وقد يثير بعضها ويشجعها بعض من يقبع بين المسلمين يُظهر نفسه أنه منهم وهو في الحقيقة ليس منهم، بل عليهم فيدلّ على عورات المسلمين ويستدعي الأعداء من تلك الشعوب فتقوم ببعض الهجمات، غير أنها تُردع بعد أن تثير بعض الذعر أو تنشر الفوضى، ولم يكن على تلك الجبهة أكثر من ذلك.

لما وقع الخلاف بين الأمين والمأمون ووصل إلى مرحلة الصراع أخفى الروم سرورهم، وكانوا يتوقّعون أن يصل الأمر إلى مرحلةٍ أكثر خطورةً تهدّد كيان الخلافة وتُنذر بالتشتّت والتمزّق، غير أن سرورهم قد رُدّ عليهم فكُبت، وخاب أملهم، وفشل مسعاهم في الإثارة المغطاة والتشجيع المُظلّل، وقُتل الأمين وانتهى الأمر، ولم يحدث انشقاق بل استقرّ الوضع، ولم تقع

أحداث أو ثارات بل استتب الأمن، وخاب ظنّ الروم.

وقام المأمون بالخلافة وسارت الأمور بشكلٍ هادئٍ وطيّبٍ، ثم وقعت بعض الحركات كان أكثرها خطراً حركة بابك الخرميّ لدعوتها الإلحادية وللخلفية التي تدعمها، ولقربها من مناطق الروم والأرمن فبذل الروم جهدهم، وقدّموا دعمهم، وشجّعوا الذين يبتغون الفتنة غير أن الحركة لم يكتب لها النجاح، إذ كانت السيوف تنتاش أتباعها جماعةً إثر جماعةٍ حتى قضي عليها أيام المعتصم سنة ٢٢٣هـ، وتخلّص المسلمون من شرّها.

قتل الروم ملكهم «ليون» سنة ٢٠٠هـ بعد أن تملّك عليهم سبع سنواتٍ وستة أشهرٍ، وملّكوا عليهم بعده ميخائيل بن جورجس ثانيةً، إذ كان قد ملك سنتين ١٩٣ ـ ١٩٤هـ، ثم ثاروا عليه، وملكهم القائد «ليون» حتى قتلوه سنة ٢٠٠هـ، وأعادوا ملكهم الأول ميخائيل بن جورجس، واستمرّ في ملكه حتى مات سنة ٢٠٩هـ، وخلفه ابنه تيوفيل بن ميخائيل.

لما يئس الروم من تزايد الخلاف بين المسلمين بل وجدوه أنه قد زال، عندها أخذ الروم يثيرون الفتن، ويدعمون الخرّميّة في سبيل إضعاف المسلمين فكان لا بُدَّ للخليفة من أن يُقاتلهم ليُؤدّبهم ويردّ كيدهم في

نحرهم، بل لا بد من الجهاد لنشر الإسلام والدعوة إليه، بل هذا من المهمة الأساسية التي يجب أن يقوم بها المسلمون والخليفة يُهيّئ لهم الأسباب، ويُؤمّن لهم الوسائل، ويتقدّمهم قائداً، أو يُكلّف أحدهم بالإمرة.

خرج المأمون لقتال الروم في شهر المحرم من سنة ٢١٥هـ، وسار عن طريق بغداد ـ الموصل ـ منبج ـ دابق ـ أنطاكية ـ المصيصة ـ طرسوس. ودخل من طرسوس إلى بلاد الروم في منتصف جمادى الأولى سنة ٢١٥هـ، ففتح حصن «قُرّة» يوم الأحد لأربعٍ بقين من جمادى الأولى، ثم أمر بهدم الحصن. كما افتتح حصن «ماجدة» ومنّ على أهله. ووجّه القائد «أشناس» إلى حصن «سندس» فألقى القبض على صاحب الحصن. ورجع المأمون من بلاد الروم إلى دمشق.

واعتدى الروم على أهل «طرسوس» و«المصيصة» فقتلوا منهم ألفاً وستمائةٍ، فلما بلغ ذلك المأمون خرج مباشرةً من بغداد إلى بلاد الروم ودخلها يوم الاثنين لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة ٢١٦هـ، وبقي مقيماً حتى منتصف شهر شعبان أي شهران وستة وعشرون يوماً. ولما دخل أرض الروم وافته رسل إمبراطور الروم تيوفيل بن ميخائيل بـ«أضنة» ومعهم خمسمائة رجلٍ من

أسرى المسلمين سلّموهم إلى الخليفة. وسار المأمون إلى «هرقلة» فخرج إليه أهلها بصلح. ووجّه أخاه أبا إسحاق محمد المعتصم فافتتح ثلاثين حصناً، ووجّه يحيى بن أكثم من «طوانة» فانتصر، وأصاب سبياً، ورجع إلى العسكر. ثم خرج المأمون إلى «كيسوم» فأقام بها ثلاثة أيامٍ، وارتحل بعدها إلى دمشق فمصر.

ورجع المأمون فدخل أرض الروم سنة ٢١٧هـ، فأناخ على «لؤلؤة» مائة يومٍ، ثم رحل عنها وخلّف عليها عجيفاً، فخدعه أهلها وأسروه، فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيامٍ، ثم أخرجوه. وسار الإمبراطور تيوفيل بن ميخائيل إلى «لؤلؤة»، فأحاط بعجيف، فبعث المأمون الجنود إليه، فارتحل تيوفيل قبل موافاتهم، وخرج أهل «لؤلؤة» إلى عجيف بأمانٍ.

وكتب تيوفيل صاحب الروم إلى المأمون يسأله الصلح، وبدأ بنفسه في كتابه، وقدم بالكتاب الفضل وزير تيوفيل يطلب الصلح، وعرض الفدية. وكانت نسخة كتاب تيوفيل إلى المأمون:

أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما، ولستَ حرياً أن تدع لحظٍّ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك، وفي

علمك كافٍ عن إخبارك، وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة، راغباً في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحدٍ لكل واحدٍ ولياً وحزباً، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر، وفكّ المستأسر، وأمن الطرق والبيضة، فإن أبيت فلا أدِبّ لك في الخُمَر، ولا أزخرف لك في القول، فإني لخائض إليك غمارها، آخذ عليك أسدادها، شانّ خيلها ورجالها، وإن أفعل فبعد أن قدّمت المعذرة، وأقمت بيني وبينك علم الحجّة. والسلام.

فكتب إليه المأمون:

أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليك من الموادعة، وخلطت فيه من اللين والشدّة، مما استعطفت به، من شرح المتاجر واتصال المرافق، وفكّ الأسارى، ورفع القتل والقتال، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظّ في تقليب الفكرة، ولا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه، لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم[1]،

(١) الثكل: الموت والهلاك.

ويتقرّبون إلى الله بدمائكم، ويستقلّون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل إليهم من الأمداد، وأبلغ لهم كافياً من العُدّة والعتاد، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرّتهم عليكم، موعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبةٍ أو كريم منقلبٍ، غير أني رأيت أن أتقدّم إليكم بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجّة، من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية، فإن أبيتَ ففدية توجب ذمّة، وتثبت نظرة، وإن تركت ذلك، ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في الصفة. والسلام على من اتبع الهدى.

وجّه المأمون ابنه العباس لحرب الروم سنة ٢١٨هـ، كما انطلق هو بنفسه على رأس جيشٍ، وأدركته المنية في بلاد الروم، فنُقل إلى «طرسوس»، ودُفن فيها.

وعلى الجانب الشرقي من ديار الإسلام فتح والي طبرستان عام ٢٠٢هـ بلاد اللاز والشيزر من بلاد الديلم، وأصبحت هاتان المنطقتان ضمن أرض الدولة الإسلامية منذ ذلك اليوم.

وفتح أحمد بن أبي خالد «أشروسنة» في بلاد ما وراء النهر سنة ٢٠٧هـ.

الفصل الثالث

مكر الليل

كان المتلوّنون إذا جنّ الليل وغطّت العتمة وسادت الظلمة مكروا وخطّطوا، وتوتّرت أعصابهم، وظهر الحقد في نفوسهم وكادت تتميّز من الغيظ فإذا انبلج الفجر، ووضُح الطريق، وتمّت اللقاءات أظهروا الطاعة وأبدوا التأييد والحُرْقة على الإسلام، وادّعوا الإخلاص والشجاعة للدفاع عن الحقّ الذي هم عليه، وتكلّموا عن مواصلة الطريق بالدعوة التي حملوها.

كان من تخطيط المتلوّنين أن أشعلوا نار الفتنة بين الأمين والمأمون حتى وقع الخلاف، وأُضرمت الحرب، وقُتل الأمين، وتكسّرت عظام، وتعمّقت جراح، فابتهج مثيرو الحرب، وانفرجت أسارير مُسْعِري الفتنة، وظنّوا أنه لا التئام للجراح بعد الآن، ولا جبر للعظام بعد ما حدث، ولا انتظام للأسرة بعد الذي وقع، فخاب الظنّ وضاعت مع الأيام أخبار، فما أن قُتل الأمين وبويع

المأمون حتى استقرّت الأمور، وهدأت الأوضاع، وتوحّدت الكلمة بل إن زبيدة أُمّ الأمين قد تناست ما أصابها، وعدّت المأمون عوض ابنها الأمين، وكان المأمون يُبالغ في تقديرها واحترامها.

شعر المتلوّنون بالأسى لخيبة مكرهم وفشل ما عملوا له، لذا انصرفوا للبحث عن مخططٍ آخر وللتفكير بمكرٍ جديدٍ فلم يجدوا سوى العودة إلى إثارة الطالبيين ليكون الخلاف على نطاق أوسع ولتبتعد فكرة صلة القربى نسبياً، وليختفي موضوع المحافظة على وحدة الأسرة وعلى حكم العائلة فتكون الأحقاد أشدّ والفتك أعنف، وتعود الذكريات، وتشرئب أعناق متهالكة إلى الخلافة.

تحرّك المتلوّنون في المخطط الذي وضعوه وساروا بالدرب الذي رسموه، وانطلقوا وفق التفكير الذي بحثوه، وجدّوا بإثارة الطالبيين، فظهر الموج وارتفع، وقامت حركات سبق أن ذكرناها، وتلاطمت الأمواج، ثم هدأت الريح، غير أن الجو يُنذر بالعاصفة إذ لا تزال مناطق الضغط متباينةً والسحب لا تزال قاتمةً، وتيارات الريح تعصف.

رأى المأمون أن يحلّ الموضوع بشكلٍ لم يتوقّعه

المتلوّنون، فيُرضي الطالبيين، ويقدّم لهم ما يريدون، وما يمنّيهم به الماكرون، ويُبيّن للآخرين أن بني هاشم أسرة واحدة لا اختلاف بينها ولا صراع، وأن المسلمين أمة واحدة مهمتهم تطبيق شرع الله فيما بينهم، ودعوة غيرهم إلى الإسلام، وتحقيق ذلك بالجهاد في سبيل الله، وتوقّع أن يهدأ الطالبيون، ويصبحون سيف الخلافة، ويخنث أصحاب الفتنة الذين يُظهرون غير ما يبطنون.

علي بن موسى الطالبي ولياً للعهد:

في سنة إحدى ومائتين جعل الخليفة المأمون ولياً للعهد عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأنه سيكون خليفة المسلمين من بعده، وسمّاه «الرضا من آل محمد ﷺ»، وأمر جنده بطرح لباس السواد، ولبس ثياب الخضرة، وكتب بذلك إلى الآفاق. وكتب الحسن بن سهل إلى عيسى بن محمد بن أبي خالد وهو في طريقه إلى بغداد يعلمه أن أمير المؤمنين المأمون قد جعل عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد ولي عهده من بعده وذلك أنه نظر في بني العباس وبني عليّ، فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه، وأنه سمّاه الرضيّ من آل محمد، وأمره بطرح لبس الثياب السود ولبس ثياب

الخضرة وذلك يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، ويأمره أن يأمر من قبله من أصحابه والجند والقواد وبني هاشم بالبيعة له، وأن يأخذهم بلبس الخضرة في أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم، ويأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك[1].

كان هذا الكتاب الذي بعث به الحسن بن سهل إلى عيسى بن محمد بن أبي خالد بمثابة برقيةٍ ظاهرها تنفيذ أوامر الخليفة المأمون وحقيقتها إثارة بني العباس على المأمون وإثارة الناس كذلك على الخلافة التي ستأخذهم بالقوة لتنفيذ ما تراه دون أيّ حقٍّ شرعيٍّ بالتدخل في لون اللباس وغيره. وبالفعل ما أن وصل الخبر إلى عيسى حتى دعا أهل بغداد إلى ذلك على أن يُعجّل لهم رزق شهرٍ، والباقي إذا أدركت الغلّة، فقال بعضهم: نُبايع ونلبس الخضرة، وقال آخرون: لا نُبايع ولا نلبس الخضرة، ولا نُخرج هذا الأمر من ولد العباس، وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل، فمكثوا بذلك أياماً، وغضب ولد العباس من ذلك، واجتمع بعضهم إلى بعض، وتكلّموا فيه، وقالوا: نولّي بعضنا

(١) تاريخ الطبري.

ونخلع المأمون، وكان المتكلم في هذا والمختلف والمتقلّد له إبراهيم[1] ومنصور[2] ابنا المهدي.

---

(١) إبراهيم بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو إسحاق: أخو هارون الرشيد، ولد في بغداد سنة ١٦٢هـ، وتربّى في بغداد. ولّاه الرشيد إمرة دمشق، ثم عزله عنها بعد سنتين، ثم أعاده إليها فأقام فيها أربع سنوات، ولما آلت الخلافة إلى المأمون كان إبراهيم قد اتخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدعوة إلى نفسه، وبايعه كثيرون ببغداد، فطلبه المأمون، فاستتر، فأهدر دمه، فجاءه مستسلماً، فسجنه ستة أشهرٍ، ثم طلبه إليه وعاتبه على عمله، فاعتذر، فعفا عنه، وكانت دعوته ببغداد سنتين إلا خمسةً وعشرين يوماً (٢٠٢ ـ ٢٠٤هـ) وتغلّب على الكوفة والسواد، والمأمون بخراسان، وأقام في مخبئه ست سنوات وأربعة أشهر وعشرة أيام، وظفر به المأمون سنة ٢١٠هـ. وكان أسود حالك اللون، عظيم الجثة وليس في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لساناً، ولا أجود شعراً، وكان وافر الفضل، واسع الصدر، حازماً، سخي الكف، حاذقاً بصنعة الغناء، وكانت أمه جارية سوداء اسمها «شكلة»، نسبه إليها خصومه، فيقال: «ابن شكله»، مات بسامراء سنة ٢٢٤هـ، وصلى عليه الخليفة المعتصم.

(٢) منصور بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور: أخو هارون الرشيد، وعمّ الأمين والمأمون، حجّ بالناس سنة ١٨٥هـ أيام الرشيد. وكان أمير البصرة في أيام الأمين (١٩٥ ـ ١٩٧هـ)، وبايع للمأمون، وذهب إليه وهو بخراسان (١٩٧هـ) فلم يردّه إلى إمارته، ووجّهه المأمون إلى الكوفة وفيها الثائر «أبو السرايا» فقاتله مع هرثمة بن أعين، وأسراه سنة (٢٠٠هـ)، =

ظنّ المأمون أن المتلوّنين يريدون الطالبيين لأنهم يظهرون محبتهم ويبدون تأييدهم ولكن الواقع غير ذلك، فهم لا يحبّون الطالبيين كما لا يحبّون العباسيين فالطرفان عندهم واحد ما داما مسلمين، بل يبغون الفتنة والعمل للإيقاع بالمسلمين. ولما كان ظنّ المأمون ـ كما ذكرنا ـ فقد أراد قطع الطريق على المتلوّنين، غير أن تصرّفه لم يُرضِ المتلوّنين بل أثار العباسيين أنفسهم على شخصه لما كان من بيعة علي بن موسى الطالبي، واجتماع من اجتمع على محاربة الحسن بن سهل حتى خرج من بغداد.

أظهر العباسيون ببغداد أنهم قد بايعوا إبراهيم بن المهديّ بالخلافة، ومن بعده ابن أخيه إسحاق بن

= وأرسلاه إلى الحسن بن سهل في بغداد، وانصرف منصور إلى «كلواذا» إحدى قرى بغداد، وذلك بعد مقتل الأمين، واضطربت بغداد لميل المأمون إلى الطالبيين، وهو لا يزال بخراسان، فتقدّم منصور لضبطها سنة (٢٠١هـ)، وسلّم عليه من فيها من بني هاشم والقادة بالخلافة، ولقبوه «المرتضى» فامتنع من ذلك وأبى إلا أن يكون نائباً للمأمون، فرضوا به، ثم قصدوا أخاه إبراهيم بن المهدي فبايعوه بالخلافة ثم خلعوه، وعاد المأمون إلى بغداد سنة (٢٠٤هـ)، وهدأت الأمور، وتوفي منصور سنة ٢٣٦هـ أيام المتوكل.

موسى بن المهديّ، وأنهم خلعوا المأمون، وأنهم يعطون عشرة دنانير كل إنسانٍ أول يوم من المحرم أول يوم من السنة المقبلة (٢٠٢هـ). فقبِل بعض ولم يقبل بعض حتى يُعطى. فلما كان يوم الجمعة، وحان وقت الصلاة أرادوا أن يجعلوا إبراهيم خليفة للمأمون مكان أخيه منصور. فأمروا رجلاً يقول حين يُؤذّن المؤذّن: إنا نريد أن ندعو للمأمون ومن بعده لإبراهيم ليكون خليفةً، وفي الوقت نفسه كانوا قد دسّوا قوماً، فقالوا لهم: إذا قام يقول: ندعو للمأمون، فقوموا أنتم فقولوا: لا نرضى إلا أن تبايعوا لإبراهيم، ومن بعده لإسحاق، وتخلعوا المأمون أصلاً، لا نريد أن تأخذوا أموالنا كما صنع منصور، ثم تجلسوا في بيوتكم. فلما قام من يتكلّم أجابه هؤلاء، فلم يُصلِّ بهم تلك الجمعة صلاة الجمعة، ولا خطب أحد، إنما صلّى الناس أربع ركعاتٍ ثم انصرفوا، وذلك يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة سنة إحدى ومائتين.

بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي بالخلافة في أول يوم من المحرم سنة اثنتين ومائتين، وخلعوا المأمون، فلما كان يوم الجمعة صعد إبراهيم المنبر، فكان أول من بايعه عبيد الله بن العباس بن محمد

الهاشمي، ثم منصور بن المهدي، ثم سائر بني هاشم، ثـم القـادة. وكـان المـتولّي لأخذ البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك، وكان الذي سعى في ذلك وقام به السنديّ، وصالح صاحب المصلّى، ومنْجاب، ونصير الوصيف وسائر الموالي، إلا أن هؤلاء كانوا الرؤساء والقادة غضباً منهم على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من العباس إلى ولد عليّ، ولتركه لباس آبائه من السواد ولبسه الخضرة.

ولما فرغ من البيعة وعد الجند أن يُعطيهم أرزاق ستة أشهرٍ، فدافعهم بها، فلما رأوا ذلك شغبوا عليه، فأعطاهم مائتي درهمٍ لكل رجلٍ. وغلب إبراهيم مع أهل بغداد على أهل الكوفة والسواد كله، وعسكر بالمدائن. وولّى الجانب الشرقي من بغداد العباس بن موسى الهادي والجانب الغربي إسحاق بن موسى الهادي.

كتب المأمون إلى الحسن بن سهل وهو مقيم بمعسكره بالمبارك يأمره أن يبايع لعلي بن جعفر بن محمد بولاية العهد، وأن يلبس الخضرة، وأن يتقدّم إلى بغداد ويحاصر أهلها، فنفّذ الحسن بن سهل الأمر، وارتحل باتجاه بغداد، وكتب إلى قائده حميد بن

عبد الحميد يأمره بالتقدّم إلى بغداد من ناحيةٍ أخرى، وأن يلبس ثياب الخضرة ففعل. وكان بعض قادة حميد يراسلون إبراهيم بن المهدي، ويعدونه أن يأخذوا له قصر ابن هبيرة، وفي الوقت نفسه يكتبون للحسن بن سهل أن حميداً يُراسل إبراهيم بن المهدي، كما أن حميداً كان يكتب فيهم إلى الحسن بمثل ذلك. وكان الحسن بن سهل يكتب إلى حميد يطلب منه أن يأتيه فلم يفعل حيث كان يخشى إن سار إليه أن يثب الآخرون بعسكره، فيكتب القادة لابن سهل: أن حميداً ما يمنعه من القدوم إليك إلا خوفه منك لأنه مخالف لك، وأنه قد اشترى الكثير من الضياع، فلما ألحّ الحسن على حميد بالكتب خرج إليه يوم الخميس لخمسٍ خلون من ربيع الثاني سنة ٢٠٢هـ. واستغل قادة حميد خروجه فكتبوا إلى إبراهيم بن المهدي يعلمونه بذلك، ويطلبون منه أن يرسل إليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد حتى يسلّموه قصر ابن هبيرة، وعسكر حميد. وكان إبراهيم قد خرج من بغداد وعسكر بـ«كلواذا» يريد المدائن، فلما أتاه كتاب قادة حميد أرسل لهم عيسى.

بلغ عسكر حميد قدوم عيسى إليهم ففكروا بالهرب فشدّ قادتهم عليهم وأخذوا ما في المعسكر،

وهرب ابن حميد إلى الكوفة، ثم لحق بأبيه بعسكر الحسن بن سهل، وأخذ عيسى بن محمد بن أبي خالد قصر ابن هبيرة. ووصل الخبر بما جرى إلى الحسن بن سهل وحميد بن عبد الحميد عنده، فقال له حميد: ألم أُخبرك بذلك، ولكنك خُدعت، وخرج من عنده حتى أتى الكوفة، فأخذ أموالاً كانت له هناك ومتاعاً. وولّى على الكوفة العباس بن موسى بن جعفر الطالبيّ، وأمره بلباس الخضرة، وأن يدعو للمأمون ومن بعده لأخيه علي بن موسى بن جعفر الطالبي، وأعانه بمائة ألف درهمٍ، وقال له: قاتل عن أخيك، فإن أهل الكوفة يجيبونك إلى ذلك، وأنا معك، ثم تركه حميد وخرج ليلاً من الكوفة.

بعث الحسن بن سهل إلى السواد حكيم الحارثي عندما بلغه سيطرة إبراهيم بن المهدي على المنطقة...

علم عيسى بن محمد بن أبي خالد بمسير حكيم إلى السواد فخرج عيسى وأصحابه، والتقوا مع حكيمٍ بمعركةٍ هُزم بها حكيم، وسيطر عيسى وأصحابه على المنطقة، وجاءهم خبر ولاية العباس بن موسى الطالبي على الكوفة ودعوته للمأمون ولأخيه عليّ بن موسى، وقد أجابه قوم كثير منهم، وقال له آخرون: إن كنت

تدعو للمأمون ثم من بعده لأخيك فلا حاجة لنا في دعوتك، وإن كنت تدعو إلى أخيك أو بعض أهل بيتك أو إلى نفسك أجبناك. فقال: أنا أدعو إلى المأمون ثم من بعده لأخي، فقعد عنه المتلوّنون الذين يرون في دعوته لمّ الشمل الذي قضوا مدةً طويلةً في تفريقه. وكان يتوقع أن يأتيه حميد بن عبد الحميد فيُساعده ويُقوّيه، وأن الحسن بن سهل سيمدّه بنجدةٍ، غير أنه لم يصل إليه شيء.

توجّه إلى الكوفة قادة إبراهيم المهدي الذين كانوا قادة حميد بن عبد الحميد بإمرة سعيد بن الساجور، غير أنهم ساروا إلى عسكر هرثمة بن أعين عند قرية «شاهي»، فلما التأم جمع أصحابه خرجوا يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأول سنة ٢٠٢هـ، فلما صاروا عند القنطرة خرج عليهم علي بن محمد بن جعفر الطالبي، ومعه أبو عبد الله أخو أبي السرايا ومعهما جماعة كثيرة، بعث بهم صاحب الكوفة العباس بن موسى ولكنهم هُزموا ورجعوا إلى الكوفة، وجاء سعيد بن الساجور حتى نزل الحيرة، ثم التقوا مع أصحاب العباس بن موسى في معركةٍ، وكان أصحاب سعيد يلبسون السواد، وينادون (يا إبراهيم يا منصور لا

طاعة للمأمون) ويلبس أصحاب العباس بن موسى الخضرة، وكانت معركة بين الطرفين يوم الأربعاء لأربع خلون من جمادى الأولى سنة ٢٠٢هـ، فكان كل فريق منهم إذا ظهروا على شيء أحرقوه، فلما رأى ذلك رؤساء أهل الكوفة أتوا سعيداً وأصحابه فسألوه الأمان للعباس بن موسى بن جعفر وأصحابه، على أن يخرج من الكوفة فأجابوهم إلى ذلك، ثم أتوا العباس فأعلموه، وقالوا: إن عامة من معك غوغاء، وقد ترى ما يلقى الناس من الحرق والنهب والقتل، فاخرج من بين أظهرنا، فلا حاجة لنا فيك، فقبل منهم، وخاف أن يُسلموه، وتحوّل من منزله الذي كان فيه بـ«الكُناسة»، ولم يعلم أصحابه بذلك، وانصرف سعيد وأصحابه إلى الحيرة، وشدّ أصحاب العباس بن موسى على من بقي من أصحاب سعيد وموالي عيسى بن موسى العباسي، فهزموهم حتى بلغوا بهم الخندق، فبعث العباسيون ومواليهم إلى سعيد يعلمونه بذلك، وأن العباس قد رجع عما كان طلب من الأمان، فركب سعيد وأصحابه حتى أتوا الكوفة ليلاً، فلم يظفروا بأحدٍ منهم ينتهب إلا قتلوه، ولم يظهروا على شيء مما كان في أيدي أصحاب العباس إلا أحرقوه، حتى بلغوا «الكُناسة»، فمكثوا بذلك عامة الليل حتى خرج إليهم رؤساء أهل

الكوفة، فأعلموهم أن هذا من عمل الغوغاء، وأن العباس لم يرجع عن شيء، فانصرفوا عنهم.

دخل سعيد وأصحابه الكوفة في اليوم التالي (الخميس الخامس من جمادى الأولى ٢٠٢هـ) وأعطوا الناس الأمان، وولّوا على الكوفة الفضل بن محمد بن الصباح الكندي، وهو من أهلها. فكتب إليهم إبراهيم بن المهدي يأمرهم بالخروج إلى ناحية واسط، وكتب إلى سعيد أن يستعمل على الكوفة غير الكنديّ لميله إلى أهل بلده، فولّاها غسّان بن أبي الفرج، ثم عزله بعدما قتل أبا عبد الله أخا أبي السرايا، وولّى عليها ابن أخيه الهول، فلم يزل والياً عليها حتى قدم إليها حميد بن عبد الحميد فهرب الهول منها.

أمر إبراهيم بن المهدي قائده عيسى بن محمد بن أبي خالد أن يسير إلى «واسط» لقتال عسكر الحسن بن سهل، ثم اتبعه ببقية القادة غير أن عسكر الحسن قد تحصّنوا بـ«واسط» ولم يخرجوا لقتال عدوّهم.

أمر الحسن بن سهل أصحابه بالاستعداد والخروج للقتال، فخرجوا ووقعت معركة شديدة بين الطرفين هُزم فيها عيسى وعسكره، وأخذ أصحاب الحسن كل ما كان في معسكرهم من سلاحٍ ودواب، ورجع عيسى إلى

بغداد، وكان فيها سهل بن سلامة يدعو إلى العمل بالكتاب والسنة، وتبعه كثير من الناس، ثم قبض عليه، وسُجن في مكان مجهول، وأشيع أنه قتل كي لا يعلم الناس مكانه فيخرجوه. وكان بين خروج سهل بن سلامة وبين القبض عليه اثنا عشر شهراً.

قدوم المأمون إلى العراق:

كان المأمون مقيماً حتى هذه المدة بمدينة «مرو» بخراسان، فأخبره عليّ بن موسى بن جعفر الطالبي بما فيه الناس من الفتنة والاقتتال منذ مقتل الأمين، وبما كان الفضل بن سهل يخفي عنه الأخبار، وأن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء، وهذا ما جعلهم يبايعون عمّه إبراهيم بن المهدي بالخلافة. فقال المأمون: إنهم لم يبايعوا بالخلافة، وإنما صيّروه أميراً يقوم بشؤونهم، على ما أخبره الفضل بن سهل، فأعلمه عليّ أن الفضل قد كذَبَه وغشّه، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم بن المهدي وبين الحسن بن سهل، وأن الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه، ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك، فقال: ومن يعلم هذا من أهل عسكري؟ فقال له: يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وعدّة من وجوه أهل العسكر، فقال له: أدخلهم عليّ حتى

أسائلهم عما ذكرت، فأدخلهم عليه، وهم: يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وخلف المصري، وعلي بن أبي سعيد ـ وهو ابن أخت الفضل بن سهل ـ فسألهم عما أخبره، فأبوا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل، ألا يعرض لهم، فضمن ذلك لهم وكتب لكل رجل منهم كتاباً بخطه، ودفعه إليهم، فأخبروه بما فيه الناس من الفتن، وبينوا ذلك له، وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقواده عليه في أشياء كثيرة، وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة بن أعين، وأن هرثمة إنما جاءه لينصحه، وليُبيّن له ما يعمل عليه، وأنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته، وأن الفضل دسّ إلى هرثمة من قتله، وأنه أراد نصحه. وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد في بني هاشم والموالي والقادة، فإن الجند لو رأوا القوة التي أنت عليها سكنوا إلى ذلك، وأقرّوا بالطاعة.

فلما تحقق ذلك عند المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد، فلما أمر بذلك علم الفضل بن سهل ببعض ذلك من أمرهم فغضب عليهم، فضرب بعضهم، وسجن بعضهم، وألحق الأذى ببعضهم، فعاود علي بن موسى بأمرهم المأمون، وأعلمه ما كان من ضمانه لهم،

فأعلمه أنه يُداري ما هو فيه. ثم ارتحل من «مرو» فلما أتى «سرخس» شدّ قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام فضربوه بالسيف حتى مات، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان سنة ٢٠٢هـ، فأُخذوا، وكان الذين قتلوه من حشم المأمون، وهم أربعة نفر: غالب المسعودي، وقسطنطين الرومي، وفرج الديلمي، وموفق الصقلبي، وقتلوه وله ستين سنة، وهربوا، وبعث المأمون في طلبهم، وجعل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينارٍ، فجاء بهم العباس بن الهيثم بن بُزُرْجمهر الدينوري، فقالوا للمأمون: أنت أمرتنا بقتله، فأمر بهم فضُربت أعناقهم، وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل بـ«واسط»، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل، وأنه صيّره مكانه.

رحل المأمون من «سرخس» نحو العراق يوم الفطر، وكان إبراهيم بن المهديّ بالمدائن، وعيسى بن محمد بن أبي خالد وبقية القادة يراوحون القتال ويغادونه، وقدم المطلب بن عبد الله بن مالك بن عبد الله من المدائن معتلّاً بأنه مريض، وجعل يدعو بالسرّ إلى المأمون على أن المنصور بن المهدي خليفة المأمون، ويخلعون إبراهيم بن المهدي، فأجابه إلى ذلك

المنصور بن المهدي وخزيمة بن خازم وعدد من القادة. فلما تحقق إبراهيم بن المهدي من الخبر خرج من المدائن إلى بغداد يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٢٠٣هـ، وبعث إلى المطلب، ومنصور، وخزيمة، فلما أتاهم رسوله اعتلّوا عليه، فلما رأى ذلك بعث إليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد وإخوته، فأما منصور وخزيمة فقد أعطوا بأيديهما، وأما المطلب فقد قاتل أمام منزله أصحابه ومواليه حتى كثُر الناس عليهم، فسمح إبراهيم بن المهدي بنهب دار المطلب ودور أهل بيته، وطلبوا المطلب فلم يظفروا به.

بعث حميد بن عبد الحميد قائداً من قبله فأخذ المدائن من عسكر إبراهيم، وأرسل علي بن هشام قائداً فنزل المدائن أيضاً، وندم إبراهيم على ما فعل، ولم يظفر بالمطلب.

وفاة علي الرضا[1]:

ارتحل المأمون من سرخس إلى طوس فأقام بها

(١) علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: ولد بالمدينة سنة ١٤٨هـ (عام وفاة جده جعفر الصادق)، وأمه نوبية اسمها سُكينة، سمع من أبيه =

أياماً عند قبر أبيه، ومات علي بن موسى بن جعفر الطالبي فجأةً وذلك في آخر صفر سنة ٢٠٣هـ، فأمر به المأمون فدفن عند قبر الرشيد، وكتب في شهر ربيع الأول إلى الحسن بن سهل يعلمه أن علي بن موسى بن جعفر مات، ويعلمه ما دخل عليه من الغمّ والمصيبة بموته، وكتب إلى بني العباس والموالي وأهل بغداد يعلمهم موت علي بن موسى، وأنهم إنما نقموا على بيعته له من بعده، ويسألهم الدخول في طاعته، فردّوا عليه وعلى الحسن بن سهل بجوابٍ غير طيّبٍ. وكان المأمون هو الذي صلّى على عليّ بن موسى.

الخلاف في بغداد:

كان عيسى بن محمد بن أبي خالد يظهر الطاعة

= وأعمامه: إسماعيل، إسحاق، عبد الله، علي، أولاد جعفر، وتوفي بـ«طوس» سنة ٢٠٣هـ. وكان لعلي إخوة من السراري، وهم: إبراهيم، وعباس، وقاسم، وإسماعيل، وهارون، وجعفر، وحسن، وأحمد، ومحمد، وعبيد الله، وحمزة، وزيد، وإسحاق، وعبد الله، والحسين، والفضل.
وخلّف من الولد: محمداً، والحسن، وجعفراً، وإبراهيم، والحسين.
وزوّجه المأمون ابنته أم حبيب، كما زوّج ابنه محمد بن علي بن موسى ابنته الأخرى أم الفضل، وذلك سنة ٢٠٢هـ.

والنصيحة لإبراهيم بن المهدي، غير أنه كان يكاتب الحسن بن سهل وحميد بن عبد الحميد، وكان الرسول بينهم محمد بن محمد المعبديّ الهاشميّ. وكان كلما قال له إبراهيم تهيّأ لقتال حميد يتعلّل له بأن الجند يريدون أرزاقهم، وحتى تدرك الغلّة، وما زال على ذلك حتى توثّق ما يريد فيما بينه وبين الحسن بن سهل، وحميد بن عبد الحميد فارقهم، على أن يدفع إليهم إبراهيم بن المهدي يوم الجمعة بعد انقضاء شهر شوال، وبلغ الخبر إبراهيم، فلما كان يوم الخميس جاء عيسى إلى باب الجسر، فقال للناس: إني قد سالمت حميداً، وضمنت له ألا أدخل عمله، وضمن لي ألا يدخل عملي. ثم أمر أن يُحفر خندق بباب الجسر وباب الشام، وبلغ إبراهيم ما قال وما صنع، وقد كان عيسى سأل إبراهيم أن يصلي الجمعة بالمدينة، فأجابه إلى ذلك، فلما تكلّم عيسى بما تكلّم به، وبلغ إبراهيم الخبر وأنه يريد أخذه حذر.

وذُكر أن هارون أخا عيسى أخبر إبراهيم بما يريد أن يصنع به عيسى، فلما أخبره، بعث إليه أن يأتيه حتى يناظره في بعض ما يريد، فاعتلّ عليه عيسى، فلم يزل إبراهيم يعيد إليه الرسل حتى أتاه إلى قصره بالرصافة،

فلما دخل عليه حُجب الناس، وخلا إبراهيم وعيسى، وجعل يُعاتبه، وأخذ عيسى يعتذر إليه مما يعتبه به، ويُنكر بعض ما يقول، فلما قرّره بأشياء أمر به فضُرب، ثم إنه حبسه وأخذ عدّة من قواده فحبسهم، وبعث إلى منزله، فأخذ أم ولده وصبيةً له صغاراً، فحبسهم، وذلك ليلة الخميس لليلةٍ بقيت من شوال سنة ٢٠٣هـ، وطلب خليفةً له يقال له العباس فاختفى، فلما بلغ حبس عيسى أهل بيته وأصحابه، مشى بعضهم إلى بعض، وحرّض أهل بيته وإخوته الناس على إبراهيم، واجتمعوا، وكان رأسهم عباس خليفة عيسى، فشدّوا على عامل إبراهيم على الجسر فطردوه، وعبر إلى إبراهيم فأخبره الخبر، وأمر بقطع الجسر فطردوا كل عاملٍ كان لإبراهيم في الكرخ وغيره، وظهرت الفوضى، وكتب عباس إلى حميد بن عبد الحميد يسأله أن يقدم إليهم حتى يُسلّموا إليه بغداد، فلما كان يوم الجمعة صلّوا في مسجد المدينة أربع ركعاتٍ، صلّى بهم المؤذن دون خطبةٍ.

خلع إبراهيم بن المهدي:

مرض الحسن بن سهل مرضاً شديداً، فكتب قادة الحسن إلى المأمون، فأتاهم جواب الكتاب أن يكون على عسكره دينار بن عبد الله، ويعلمهم أنه قادم على أثر كتابه.

ووصل كتاب عباس خليفة عيسى إلى حميد لقدومه إليهم ليُسلّموه بغداد، وفيه شرط من عباسٍ على حميدٍ أن يُعطيَ جند أهل بغداد كل رجلٍ منهم خمسين درهماً، فأجابهم إلى ذلك، وجاء حتى نزل «صَرْصر» بطريق الكوفة، فخرج إليه عباس، وقادة أهل بغداد، فلقوه، فوعدهم ومنّاهم، وقبلوا ذلك منه، فوعدهم أن يضع لهم العطاء في «الياسرية» على أن يصلّوا الجمعة فيدعوا للمأمون، ويخلعوا إبراهيم، فأجابوه إلى ذلك. فلما بلغ إبراهيم الخبر أخرج عيسى وإخوته من الحبس، وسأله أن يرجع إلى منزله، ويكفيه أمر هذا الجانب، فأبى ذلك عليه.

فلما كان يوم الجمعة بعث عباس إلى محمد بن أبي رجاء الفقيه فصلى بالناس الجمعة، ودعا للمأمون، فلما كان يوم السبت جاء حميد إلى «الياسرية» فعرض حميد جند أهل بغداد، وأعطاهم الخمسين التي وعدهم، فسألوه أن ينقصهم عشرةً عشرةً، فيعطيهم أربعين أربعين درهماً لكل رجلٍ منهم، لما كانوا تشاءموا به من عليّ بن هشام حين أعطاهم الخمسين فغدر بهم، وقطع العطاء عنهم، فقال لهم حميد: بل أزيدكم وأعطيكم ستين درهماً لكل رجلٍ، فلما بلغ

ذلك إبراهيم دعا عيسى فسأله أن يقاتل حميداً، فأجابه إلى ذلك، فخلّى سبيله، وأخذ منه كفلاء، فكلّم عيسى الجند أن يعطيهم مثل ما أعطى حميد فأبوا ذلك عليه، فلما كان يوم الاثنين عبر إليهم عيسى وإخوته وقواد أهل الجانب الشرقي، فعرضوا على أهل الجانب الغربي أن يزيدوهم على ما أعطى حميد، فشتموا عيسى وأصحابه، وقالوا: لا نريد إبراهيم، فخرج عيسى وأصحابه حتى دخلوا المدينة، وأغلقوا الأبواب، وصعدوا السور، وقاتلوا الناس ساعةً، فلما كثر عليهم الناس انصرفوا راجعين حتى أتوا باب خراسان، فركبوا في السفن، ورجع عيسى كأنه يريد أن يقاتلهم، ثم احتال حتى صار في أيديهم شبه الأسير، فأخذه بعض قواده فأتى به منزله، ورجع الباقون إلى إبراهيم فأخبروه الخبر، فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً.

اختفاء إبراهيم بن المهدي:

كان سهل بن سلامة سجيناً عند إبراهيم، على حين يظنّ الناس أنه مقتول، فلما دخل حميد بن عبد الحميد بغداد أخرج إبراهيم سهلاً من سجنه، فكان يدعو في مسجد الرصافة كما كان يدعو، فإذا كان الليل ردّه إلى حبسه، فمكث بذلك أياماً، فأتاه أصحابه

ليكونوا معه، فقال لهم: الزموا بيوتكم، فإني أرزأ هذا - يعني إبراهيم - فلما كان ليلة الاثنين للليلةٍ خلت من ذي الحجة سنة ٢٠٣هـ، خلّى سبيله، فذهب فاختفى. فلما رأى أصحاب إبراهيم وقواده أن حميداً قد نزل منطقة عبد الله بن مالك، تحوّل عامتهم إليه، وأخذوا له المدائن، فلما رأى ذلك إبراهيم، أخرج جميع من عنده حتى يقاتلوا، فالتقوا على جسر نهر «ديالي» فاقتتلوا فهزمهم حميد، فقطعوا الجسر فتبعهم أصحابه حتى أدخلوهم بيوت بغداد.

فلما كان يوم العيد الأضحى أمر إبراهيم القاضي أن يصلي بالناس في «عيساباذ»، فصلى بهم وانصرف الناس، واختفى الفضل بن الربيع، ثم تحوّل إلى حميد، ثم تحول علي بن ريطة إلى عسكر حميد، وجعل الهاشميون والقادة يلحقون بحميد واحداً بعد واحدٍ، فلما رأى ذلك إبراهيم أُسقط في يديه، فشقّ عليه، وكان المطلب بن عبد الله بن مالك يكاتب حميداً على أن يأخذ له الجانب الشرقي، وكان سعيد بن الساجور، وأبو البطّ، وعبدويه وعدة معهم من القواد يكاتبون علي بن هشام على أن يأخذوا له إبراهيم، فلما علم إبراهيم بأمرهم وما اجتمع عليه كل قومٍ من

أصحابه، وأنهم قد أحدقوا به، جعل يُداريهم، فلما جنّه الليل اختفى ليلة الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٠٣هـ، وبعث المطلب إلى حميد يعلمه أنه قد أحدق بدار إبراهيم هو وأصحابه، فإن كان يريده فليأته.

أقبل حميد ومن معه إلى دار إبراهيم، وطلبوه فيها فلم يجدوه، ولم يزل إبراهيم متوارياً حتى قدم المأمون. وكذلك ظهر سهل بن سلامة، فقرّبه حميد وردّه إلى أهله، ولم يزل مقيماً حتى قدم المأمون، فأتاه فأجازه ووصله، وأمره أن يجلس في منزله.

غلب علي بن هشام على شرقي بغداد، وحميد بن عبد الحميد على غربيها، وصار المأمون إلى همذان، وكانت أيام إبراهيم بن المهدي كلها سنة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً.

قدوم المأمون بغداد:

مرّ المأمون على جرجان فأقام بها شهراً، ثم خرج منها فصار إلى الريّ في شهر ذي الحجة، فأقام بها أياماً، ثم خرج منها، فجعل يسير المنازل، ويقيم اليوم واليومين حتى صار إلى النهروان، وذلك يوم

السبت، فأقام فيها ثمانية أيامٍ، وخرج إليه أهل بيته والقادة ووجوه الناس، فسلّموا عليه. وكان قد كتب وهو في الطريق إلى طاهر بن الحسين بالرقة أن يوافيه إلى النهروان، فوافاه بها، ثم سار إلى بغداد فدخلها يوم السبت لأربع عشرة بقيت من شهر صفر سنة ٢٠٤هـ، عند ارتفاع النهار، دخل بغداد بلباس الخضرة هو ومن معه، فلما قدم نزل الرصافة، وأمر طاهر بن الحسين بنزول الخيزرانيّة مع أصحابه، ثم تحوّل فنزل قصره على شطّ دجلة، وأمر حميد بن عبد الحميد وعليّ بن هشام وكل قائدٍ كان في عسكره أن يقيم في عسكره، فكانوا يختلفون إلى دار المأمون في كل يومٍ، ولم يكن أحد يدخل عليه إلا في الثياب الخضر، ثم تكلم في ذلك بنو هاشم وولد العباس خاصةً، وقالوا له: يا أمير المؤمنين، تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتهم، ولبست الخضرة. وكتب إليه في ذلك قواد أهل خراسان.

وقيل: إنه أمر طاهر بن الحسين أن يسأله حوائجه، فكان أوّل حاجةٍ سأله أن يطرح لباس الخضرة، ويرجع إلى لباس السواد زيّ دولة الآباء[1]، فلما رأى طاعة

---

(١) ليظهر المأمون للناس سريع التقلّب لا يثبت على رأي ولا يستقرّ على قرار.

الناس له، فعل ذلك فرجع إلى لبس السواد، وذلك يوم السبت لسبعٍ بقين من صفر سنة ٢٠٤هـ.

القبض على أعوان إبراهيم بن المهدي:

قُبض على إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المعروف بـ«ابن عائشة»، ومحمد بن إبراهيم الإفريقي، ومالك بن شاهي، وفرج البَغواريّ وهم من الذين كانوا يسعون بالبيعة لإبراهيم بن المهدي، فضربهم، ثم أمر بسجنهم، فأساءوا في السجن، فأمر بضرب أعناقهم.

القبض على إبراهيم بن المهدي:

خرج إبراهيم بن المهدي مُتنقّباً مع امرأتين ليلة الأحد لثلاث عشرة من ربيع الثاني سنة ٢١٠هـ، فأخذه حارس أسود، فقال الحارس: من أنتن؟ وأين تُرِدْنَ في هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوتٍ كان في يده، له قيمة كبيرة ليُخلّيهن، فلما نظر الحارس إلى الخاتم ارتاب بهنّ، وقال: هذا خاتم رجلٍ له شأن، فرفعهن إلى صاحب المسلحة[1]، فأمرهنّ أن يُسفرن، فتمنّع

(١) المسلحة: جماعة في عدةٍ بموضع رصد قد وُكّلوا به بإزاء ثغرٍ.

إبراهيم، فجبذه صاحب المسلحة، فبدت لحيته، فرفعه إلى صاحب الجسر فعرفه، فذهب به إلى باب المأمون، فأعلم به، فأمر بالاحتفاظ به في الدار، فلما كان غداة الأحد أُقعد في دار المأمون لينظر إليه بنو هاشم والقادة والجند، وصيّروا المقنعة التي كان مُتنقّباً بها في عنقه، والملحفة التي كان متلحفاً بها في صدره، ليراه الناس ويعلموا كيف أُخذ، وبعد أربعة أيامٍ حوّله المأمون إلى منزل أحمد بن أبي خالد فحبسه عنده، ثم أخرجه المأمون معه حيث خرج إلى الحسن بن سهل بواسط، ويقال: إن الحسن بن سهل كلّمه فيه، فرضي عنه وخلّى سبيله، وصيّره عند أحمد بن أبي خالد، وجعل معه أحمد بن يحيى بن معاذ وخالد بن يزيد بن مزيد يحفظانه، إلا أنه موسّع عليه، عنده أمه وعياله، ويركب إلى دار المأمون، وهؤلاء معه يحفظونه.

العفو عن إبراهيم:

دخل إبراهيم إلى المأمون مرةً، فقال له المأمون: هيه يا إبراهيم، فقال: يا أمير المؤمنين، وليّ الثأر محكّم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الاغترار بما مُدّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنبٍ، كما

جعل كل ذي ذنبٍ دونك، فإن تُعاقب فبحقك، وإن تعفُ فبفضلك، قال: بل أعفو يا إبراهيم، فكبّر ثمّ خرّ ساجداً.

وقيل: إن إبراهيم كتب بهذا الكلام وهو مختفٍ، فوقّع المأمون في حاشية رقعته: (القدرة تُذهب الحفيظة، والندم توبة، وبينهما عفو الله، وهو أكبر ما نسأله). فكتب إبراهيم قصيدة يمدح فيها المأمون. فقال المأمون بعد أن سمع القصيدة: أقول ما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[1]. والقصيدة هي:

يا خير من رفلت يمانيةٌ به
بعد النبي لآيسٍ ولطامع
وأبرّ من عَبَدَ الإله على التقى
عيناً وأقوله بحقٍّ صادع
عسل الفوارع ما أُطعت فإن تُهَجْ
فالصابُ يُمْزَجُ بالسّمام الناقع
مُتيقّظاً حَذِراً وما يخشى العدى
نبهان من وَسَنات ِ ليل الهاجع

(١) سورة يوسف: الآية ٩٢.

ملئت قلوب الناس منك مخافةً
وتَبيتُ تكلؤهم بقلبٍ خاشع
بـأبـي وأُمّـي فـديـةٌ وبـنـيـهـا
من كل معضلةٍ وريبٍ واقع
ما ألين الكنف الذي بوّأتَنِي
وطنـاً وأمـرع رتـعـه لـلـراتـع
للصالحات جُعلت أخاً وللتقى
وأباً رؤوفاً للفقير القانع
نفسي فداؤك إذ تضلّ معاذري
وألوذ منك بفضل حلمٍ واسع
أملاً لفضلك والفواضل شيمةً
رفعت بناءك بالمحلّ اليافع
فبذلت أفضل ما يضيق ببذله
وُسعُ النفوس من الفَعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله
عفو، ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلو عن العقوبة بعدما
ظَفِرَتْ يداك بمستكينٍ خاضع
فرحمتَ أطفالاً كأفراخ القطا
وعويل عانسةٍ كقوس النازع

وعطفت آصرةَ عليّ كما وعى
بعد انهياض الوشي عظم الضالع
الله يعلم ما أقول فإنها
جهدُ الأليَّةِ من حنيفٍ راكع
ما إن عصيتك والغُواة تقودني
أسبابها إلا بنيّةِ طائع
حتى إذا علقت حبائل شقوتي
بِردِّي إلى حُفَرِ المهالك هائع
لم أذرِ أن لمثل جرمي غافراً
فوقفت أنظر أيَّ حتفٍ صارعي
ردَّ الحياة عليَّ بعد ذهابها
ورع الإمام القادر المتواضع
أحياك منْ ولّاك أطول مدّةٍ
ورمى عدوَّك في الوتين بقاطع
كم من يدٍ لك لم تُحدّثني بها
نفسي إذا آلت إليّ مطامعي
أسديتَها إليّ عفواً هنيئةً
فشكرت مصطنعاً لأكرم صانع
إلا يسيراً عندما أوليتني
وهو الكثير لديّ غير الضائع

إن أنت جُذتَ بها عليّ تكن لها

أهلاً، وإن تمنع فأعدل مانع

إن الذي قسم الخلافة حازها

في صلب آدم للإمام السابع

جمع القلوب عليك جامع أمرها

وحوى رداؤك كل خيرٍ جامع

محنة خلق القرآن:

بعد انتهاء موضوع إبراهيم بن المهدي، هدأت الأوضاع، واستقرّت الأحوال، وساد النظام، واستتب الأمن، وانصرف الناس إلى أعمالهم، وشعر المتلوّنون بالأسى إذ ما أثاروا فتنةً إلا وانطفأت بعد مدةٍ، وما أشعلوا ناراً إلا خبت بعد زمنٍ يسيرٍ، وما أهاجوا حركةً إلا وقضي عليها، وما حرّكوا خلافاتٍ إلا وانتهت بصلحٍ وعاد الوئام، ففي كل مرةٍ يخيب أملهم، ويفشل مخططهم، ويضيع عملهم، ويُنظر لبعضهم نظرة الريبة، وتدور الشكوك حول بعضهم، وتوضع إشارات الاستفهام على آخرين منهم، هذا إضافةً إلى من يفقدون من رجالهم أثناء تنفيذ عملياتهم، وفي إثارة فتنهم، ومشاركة قادتهم ورجالاتهم أثناء إيقاد النار وبثّ البلاء، وبصورةٍ عامةٍ توصّلوا إلى أن جهودهم قد ذهبت هباءً منثوراً.

رأى المتلوّنون أن الخلافات بين أبناء الأسرة المالكة تنتهي دون أن تورث أحقاداً، ومن غير أن تترك آثاراً، وأن الصراع بين أبناء العمومة (العباسيون والطالبيون) ينتهي بانتصار الذين بيدهم السلطة وتعود للخلافة القوة ويسير الركب، وتتحرّك عجلات الحكم. وتلتئم الجراح لمصلحة الأمة، وتزول آثار ما حدث، وتمّحي نتائج ما جرى في سبيل المحافظة على الخلافة وللوقوف في وجه الأعداء.

اقتنع المتلوّنون أن الذي يورث الأحقاد، ويُرسّخ الكراهية، ويبقي الخلافات، ويؤجّج الخصومات، ويوجد الشبهات، ويُنمّي الفرقة، ويزيد التعنّت، ويحرّك النفس للتهجّم إنما هو الخلاف الفكري وخاصةً إذا أمكن دسّ شبهات، وبثّ مخالفات، وإدخال في العقيدة ما ليس منها.

رأى المتلوّنون أن المأمون شغوف بالعلم متجه إليه فيمكن شدّه إلى هذا الجانب وشحنه ببعض الأفكار التي تُثير فتناً في المجتمع وتُوجد تجزئةً بين الناس، وقد اقتنعوا بذلك وأخذوا بالعمل له. فبدؤوا بالحديث عن صحابة رسول الله ﷺ، والتركيز على عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، وعن عمه العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه، وذلك من أجل إيجاد

صلةٍ بين الجانبين ورابطٍ يصل بينهما، والتوجيه على مواقف عليٍّ، رضي الله عنه، البطولية دون الحديث عن مواقف الصحابة الآخرين رضوان الله عليهم جميعاً، إضافةً إل القرابة من رسول الله ﷺ ونشأته في بيته، وزواجه من فاطمة، رضي الله عنها، حتى أصبح المأمون يفضّل علياً، رضي الله عنه، على بقية الصحابة، رضي الله عنهم، مخالفاً بذلك إجماع المسلمين بتفضيل الراشدين، وأفضليتهم حسب تسلّمهم الخلافة أي: أبو بكرٍ، فعمر، فعثمان، فعليّ، رضي الله عنهم جميعاً.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ اتجّه المتلوّنون بالمأمون بالأبحاث الفلسفية، وأقحموا موضوع «خلق القرآن» الذي لم يقل به أحد من الصحابة أو التابعين لهم، فأطنب الفلاسفة في بحث الخالق والمخلوق، وذكروا أن كل شيءٍ سوى الله مخلوق، وأن كتاب الله القرآن مخلوق. وقبل المأمون الموضوع، وأظهر القول بذلك سنة ٢١٢هـ، وتعصّب لهذا القول، وكتب سنة ٢١٨هـ إلى إسحاق بن إبراهيم[1] في

(١) إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي، أمير بغداد، وليها نحواً من ثلاثين سنة، وعلى يده امتحن العلماء بأمر المأمون في خلق القرآن. كان صارماً جواداً، له معرفة ودهاء، مات سنة ٢٣٥هـ، وولي بعده بغداد ابنه محمد.

امتحان القضاة والمحدّثين، وأمر بإشخاص جماعةٍ منهم إليه بالرقة، وكان ذلك أول كتابٍ كُتب في ذلك، وهو:

أما بعد: فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيتهم والتشمير لطاعة الله فيهم، واللّهَ يسأل أميرُ المؤمنين أن يُوفّقه لعزيمة الرشد وصريمته والإقساط فيما ولّاه الله من رعيته برحمته ومِنّته. وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر لهم ولا رويّة ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستضاء بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالةٍ بالله، وعمىً عنه، وضلالةٍ عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوبٍ عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصورٍ على أن يُقدّروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكّر والتذكّر، وذلك أنهم ساروا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، واتفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه، وقد قال الله في محكم كتابه الذي جعله لما

في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمةً وهدىً: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[1]، فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[2]، وقال عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾[3]، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا بها متقدّمها، وقال: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[4]، وكل مُحْكَمٍ مُفصَّلٍ فله مُحْكِم مفصّلٍ، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه.

ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنّة، وفي كل فصلٍ من كتاب الله قصص من تلاوته مُبطل قولهم، ومكذّب دعواهم، يردّ عليهم قولهم ونِحلتهم، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغرّوا به الجهّال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب،

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١.

(٣) سورة طه: الآية ٩٩.

(٤) سورة هود: الآية ١.

والتخشّع لغير الله، والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيئ آرائهم، تزيّناً بذلك عندهم وتصنّعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتّخذوا دون الله وليجةً إلى ضلالتهم، فقُبِلت بتزكيتهم لهم شهادتهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم على دَغَل دينهم، ونَغَل أديمهم، وفساد نيّاتهم ويقينهم، وكان ذلك غايتهم التي إليها أجروْا، وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم، وقد أُخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمّهم الله وأعمى أبصارهم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[1].

فرأي أمير المؤمنين أن أولئك شرّ الأمة ورؤوس الضلالة، المنقوصون من التوحيد حظّاً، والمخسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحق من يُتّهم في صدقه، وتُطرح شهادته، لا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام،

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

وإخلاص التوحيد، ومن عمي عن رشده وحظّه من الإيمان بالله وبتوحيده، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضلّ سبيلاً. ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى[1] الناس بالكذب في قوله، وتخرّص الباطل في شهادته من كذب على الله ووحيه، ولم يعرف اللّهَ حقيقة معرفته، وإن أولاهم بردّ شهادته في حكم الله ودينه من ردّ شهادة الله على كتابه، وبَهت حق الله بباطله.

فاجمع بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلّده الله، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقرّوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنصّ[2] من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقرّ أنه مخلوق محدَث ولم يره، والامتناع

(١) أحجى: أحق وأجدر.

(٢) نصّه: استقصى مسألته عن الشيء.

من توقيعها عنده. واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك من قضاة أهل عملك في مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم وتفقّد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك. إن شاء الله.

وكتب في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائتين.

وكتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في أشخاص سبعة نفرٍ، منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي[1]، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون، ويحيى بن معين[2]،

---

(١) محمد بن سعد بن منيع، الحافظ العلامة الحُجّة، أبو عبد الله البغدادي، مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث. ولد بالبصرة سنة ١٦٨هـ، وسكن بغداد، وتوفي فيها سنة ٢٣٠هـ. طلب العلم في صباه ولحق الكبار. صحب الواقدي المؤرّخ زماناً، فكتب له، وروى عنه. وابن سعد مولى الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وقيل أيضاً: بل مولى خزاعة، من أشهر كتبه: الطبقات الكبرى.

(٢) يحيى بن معين بن عون بن زياد المرّيّ بالولاء، البغدادي، أبو زكريا، أصله من «سرخس»: ولد في بلدة «نقيا» قرب الأنبار سنة ١٥٨هـ، كان أبوه على خراج الريّ، فخلّف له ثروةً كبيرةً أنفقها في طلب الحديث، وعاش ببغداد، وتوفي بالمدينة =

وزهير بن حرب[1] أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدَّوْرقيّ، فأشخصوا إليه، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً إن القرآن مخلوق، فأشخصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره، فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون، فخلّى سبيلهم. وكان ما فعل من ذلك إسحاق بن إبراهيم بأمر المأمون.

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم: أما بعد، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه، وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحمّلهم رعاية خلقه وإمضاء حكمته وسننه والائتمام بعدله في

= حاجّاً سنة ٢٣٣هـ، وصلّى عليه أميرها. نعته الذهبي بسيّد الحفّاظ، وقال ابن حجر العسقلاني: إمام الجرح والتعديل، وقال أحمد بن حنبل: أعلمنا بالرجال.

(١) زهير بن حرب بن شداد الحرشي النسائي: مولى بني الحريش بن كعب بن عامر بن صعصعة، أبو خيثمة: كان اسم جده (أشتال) فُعرِّب، وقيل: شداد: ولد سنة ١٦٠هـ، نزل بغداد بعد أن أكثر التطواف، وجمع وصنّف، وبرع في هذا الشأن هو وابنه وحفيده محمد بن أحمد، ويعد أحد أعلام الحديث، روى عنه: الشيخان وأبو داود وابن ماجه، وتوفي سنة ٢٣٤هـ في خلافة المتوكل.

بريّته، أن يُجهدوا لله أنفسهم، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلّدهم، ويدلوا عليه ـ تبارك اسمه وتعالى ـ بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويهدوا إليه من زاغ عنه، ويردّوا من أدبر عن أمره، وينهجوا لرعاياهم سَمْت نجاتهم، ويقفوهم على حدود إيمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويكشفوا لهم مغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم، بما يدفعون الريب عنهم، ويعود بالضياء والبيّنة على كافّتهم، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم، إذ كان جامعاً لفنون مصانعهم، ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكّروا ما الله مرصد من مساءلتهم عما حُمّلوه، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به، ومما بيّنه أمير المؤمنين برويّته، وطالعه بفكره، فتبيّن عظيم خطره، وجليل ما يرجع في الدين من وَكْفه وضرره، ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم، وأثراً من رسول الله ﷺ وصفيّه محمد ﷺ باقياً لهم، واشتباهه على كثيرٍ منهم، حتى حسن عندهم، وتزيّن في عقولهم ألا يكون مخلوقاً، فتعرّضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه، وتفرّد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته وإنشائها

بقدرته، والتقدّم عليها بأوليّته التي لا يُبلغ أولاها، ولا يُدرك مداها، وكان كل شيءٍ دونه خلقاً من خلقه، وحدَثاً هو المحدث له، وإن كان القرآن ناطقاً به ودالاً عليه، وقاطعاً للاختلاف فيه، وضاهَوْا به قول النصارى في ادّعائهم في عيسى ابن مريم: إنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[1] وتأويل ذلك أنا خلقناه كما قال جلّ جلاله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝﴾[3]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[4] فسوّى عزّ وجلّ بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها، وأخبر أنه جاعله وحده، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝﴾[5]، فدلّ ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يحاط إلا بمخلوق، وقال لنبيّه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝﴾[6]، وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٣.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٩.
(٣) سورة النبأ: الآية ١٠، ١١.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.
(٥) سورة البروج: الآيتان ٢١، ٢٢.
(٦) سورة القيامة: الآية ١٦.

مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[1]، وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾[2] وأخبر عن قوم ذمّهم بكذبهم أنهم قالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[3] ثم أكذبهم على لسان رسوله، فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾[4] فسمّى الله تعالى القرآن قرآناً وذكراً وإيماناً ونوراً وهدىً ومباركاً وعربياً وقصصاً، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾[5]، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾[6]، وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[7]، وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[8] فجعل له أولاً وآخراً، ودلّ عليه أنه محدود مخلوق.

وقد عظّم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلْم

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٢١.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٩١.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٩١.
(٥) سورة يوسف: الآية ٣.
(٦) سورة الإسراء: الآية ٨٨.
(٧) سورة هود: الآية ١٣.
(٨) سورة فصلت: الآية ٤٢.

في دينهم، والحرج في أمانتهم، وسهّلوا السبيل لعدوّ الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده، وشبّهوه به، والاشتباه أولى بخلقه. وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً في الدين، ولا نصيباً من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يحلّ أحداً منهم محلّ الثقة في أمانةٍ ولا عدالةٍ ولا شهادةٍ ولا صدقٍ في قول ولا حكايةٍ، ولا توليةٍ لشيءٍ من أمر الرعيّة، وإن ظهر قصد بعضهم، وعُرف بالسداد مسدّد فيهم، فإن الفروع مردودة إلى أصولها، ومحمولة في الحمد والذم عليها، ومن كان جاهلاً بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلاً، وعن الرشد في غيره أعمى وأضلّ سبيلاً.

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمٰن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك، وانصصها عن علمهما في القرآن، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيءٍ من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يقرّ بأن القرآن مخلوق، فإن قالا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدّم إليهما في امتحان من يحضر مجالسهما

بالشهادات على الحقوق، ونصّهم عن قولهم في القرآن فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطل شهادته، ولم يقطعا حكماً بقوله، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره. وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك. إن شاء الله.

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعةً من الفقهاء والحكام والمحدّثين، وأحضر أبا حسان الزياديّ وبشر بن الوليد الكنديّ وعليّ بن أبي مقاتل والفضل بن غانم والذيّال بن الهيثم وسجّادة والقواريري وأحمد بن حنبل وقتيبة وسعدويه الواسطي وعليّ بن الجعد وإسحاق بن أبي إسرائيل وابن الهرْش وابن عليّة الأكبر ويحيى بن عبد الرحمٰن العمري وشيخاً آخر من ولد عمر بن الخطاب ـ كان قاضي الرقة ـ وأبا نصر التمّار وأبا معمر القطيعي ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفَرُّخان وجماعةً منهم النضر بن شميل وابن عليّ بن عاصم وأبو العوام البزّاز وابن شجاع وعبد الرحمٰن بن إسحاق فأُدخلوا جميعاً على إسحاق، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين

حتى فهموه، ثم قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ فقال: قد عرفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرةٍ، قال: فقد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى، فقال: أقول: القرآن كلام الله، قال: لم أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ قال: الله خالق كل شيءٍ، قال: ما القرآن شيء؟ قال: هو شيء، قال: فمخلوق؟ قال: ليس بخالق، قال: ليس أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ قال: ما أُحْسِنُ غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك. فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعةً كانت بين يديه، فقرأها عليه، ووقّفَه عليها، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء، ولا يُشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني، ولا وجهٍ من الوجوه، قال: نعم، وقد كنت أضرب الناس على ما دون هذا، فقال للكاتب: اكتب ما قال.

ثم قال لعليّ بن أبي مُقاتل: ما تقول يا عليّ؟ قال: قد سمّعتُ كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرّةٍ وما عندي غير ما سمع، فامتحنه بالرقعة فأقرّ بما فيها، ثم قال: القرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله، قال: لم أسألك عن هذا، قال: هو كلام الله، وإن أمرنا أمير

المؤمنين بشيءٍ سمعنا وأطعنا. فقال للكاتب: اكتب مقالته.

ثم قال للذيّال نحواً من مقالته لعليّ بن أبي مُقاتل، فقال له مثل ذلك.

ثم قال لأبي حسّان الزياديّ: ما عندك؟ قال: سل عما شئت، فقرأ عليه الرقعة ووقّفه عليها، فأقرّ بما فيها، ثم قال: من لم يقل هذا القول فهو كافر، فقال: القرآن مخلوق هو؟ قال: القرآن كلام الله والله خالق كل شيءٍ، وما دون الله مخلوق، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقد قلّده الله أمرنا، فصار يقيم حجّنا وصلاتنا، ونؤدّي إليه زكاة أموالنا، ونجاهد معه، ونرى إمامته إمامة، إن أمرنا ائتمرنا، وإن نهانا انتهينا، وإن دعانا أجبنا، قال: القرآن مخلوق هو؟ فأعاد عليه أبو حسّان مقالته، قال: إن هذه مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها، وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول، قلت ما أمرتني به، فإنك الثقة المأمون فيما أبلغتني عنه من شيءٍ، فإن أبلغتني عنه بشيءٍ صرت إليه، قال: ما أمرني أن أبلغك شيئاً. قال عليّ بن أبي مقاتل: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب

رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها. قال له أبو حسّان: ما عندي إلا السمع والطاعة، فمرني آتمر، قال: ما أمرني أن آمرك وإنما أمرني أن أمتحنك.

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل، فقال له: ما تقول في القرآن؟ قال: هو كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله لا أزيد عليها. فامتحنه بما في الرقعة، فلما أتى على ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[1] وأمسك عن لا يُشبهه شيء من خلقه في معنىً من المعاني، ولا وجهٍ من الوجوه، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر، فقال: أصلحك الله، إنه يقول: سميع من أُذنٍ، بصير من عينٍ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل: ما معنى قوله: ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾؟ قال: هو كما وصف نفسه، قال: فما معناه؟ قال: لا أدري، هو كما وصف نفسه.

ثم دعا بهم رجلاً رجلاً، كلهم يقول: القرآن كلام الله، إلا هؤلاء النفر؛ قتيبة وعبيد الله بن محمد بن الحسن وابن عُليّة الأكبر وابن البكاء وعبد المنعم بن

---

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

إدريس ابن بنت وهب بن مُنبّه والمظفّر بن مُرَجّا، ورجلاً ضريراً ليس من أهل الفقه، ولا يعرف بشيء منه، إلا أنه دُسّ في ذلك الموضع، ورجلاً من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة، وابن الأحمر، فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[1] والقرآن محدَث لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[2]. قال له ابن إسحاق: فالمجعول مخلوق؟ قال: نعم، قال: فالقرآن مخلوق؟ قال: لا أقول مخلوق، ولكنه مجعول، فكتب مقالته.

فلما فرغ من امتحان القوم، وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر، فقال: أصلحك الله، إن هذين القاضيين أئمة، فلو أمرتهما فأعادا الكلام، قال له إسحاق: هما ممن يقوم بحجة أمير المؤمنين، قال: فلو أمرتهما أن يسمعانا مقالتهما، لنحكي ذلك عنهما، قال له إسحاق: إن شهدت عندهما بشهادةٍ، فستعلم مقالتهما إن شاء الله.

فكتب مقالة القوم رجلاً رجلاً، ووُجّهت إلى

(١) سورة الزخرف: الآية ٣.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢.

المأمون، فمكث القوم تسعة أيامٍ، ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم، ونسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك جواب كتابه كان إليك، فيما ذهب إليه متصنّعة أهل القبلة وملتمسو الرئاسة، فيما ليسوا له بأهلٍ من أهل الملة من القول في القرآن، وأمرك أمير المؤمنين من امتحانهم، وتكشيف أحوالهم وإحلالهم محالّهم. تذكر إحضارك جعفر بن عيسى وعبد الرحمٰن بن إسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت ممن كان يُنسب إلى الفقه، ويُعرف بالجلوس للحديث، ويُنصّب نفسه للفُتيا بمدينة السلام، وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن، والدلالة على حظهم، وإطباقهم على نفي التشبيه واختلافهم في القرآن، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى في السرّ والعلانية، وتقدّمك إلى السنديّ وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدّمت به فيهم إلى القاضيين بمثل ما مثّل لك أمير المؤمنين في امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود، وبثّ الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك

بالقدوم عليك، لتحملهم وتمتحنهم على ما حدّه أمير المؤمنين، وتثبيتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت.

وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً كما هو أهله، ويسأله على أن يصلّي على عبده ورسوله محمد ﷺ، ويرغب إلى الله في التوفيق لطاعته، وحسن المعونة على صالح نيّته برحمته. وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجع إليك فيه كل امرئٍ منهم، وما شرحت من مقالتهم.

فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وادّعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاده أمير المؤمنين، فقد كذب بشرٌ في ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك ولا في غيره عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص، والقول بأن القرآن مخلوق، فادعُ به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وأنصصه عن قوله في القرآن، واستتبه منه، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح، والشرك المحض عند أمير

المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصرّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله.

وكذلك إبراهيم بن المهديّ فامتحنه بمثل ما تمتحن به بِشراً، فإن كان يقول بقوله. وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ، فإن قال: إن القرآن مخلوق فأشهر أمره واكشفه، وإلا فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله.

وأما عليّ بن أبي مُقاتل، فقل له: ألست القائل لأمير المؤمنين: إنك تُحلّل وتحرّم، والمكلّم له بمثل ما كلّمته به، مما لم يذهب عن ذكره.

وأما الذيّال بن الهيثم، فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار وفيما يستولي عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله، وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه، وسالكاً مناهجهم، ومحتذياً سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوّام، وقوله إنه لا يحسن الجواب في القرآن، فأعلمه أنه صبيّ في

عقله لا في سنّه، جاهل، وأن إن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك، إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها، واستدلّ على جهله وآفته بها.

وأما الفضل بن غانم، فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما اكتسب من الأموال في أقلّ من سنةٍ، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك، فإنه إن كان شأنُه شأنَه، وكانت رغبتُه في الدينار والدرهم رغبتَه، فليس بمستنكرٍ أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما، وإيثاراً لعاجل نفعهما، وأنه مع ذلك القائل لعليّ بن هشام ما قال، والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذي حال به عن ذلك ونقله إلى غيره.

وأما الزياديّ، فأعلمه أنه كان منتحلاً، ولا كأول دعيّ كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله ﷺ، وكان جديراً أن يسلك مسلكه، فأنكر أبو حسان أن يكون مولىً لزياد أو يكون مولىً لأحدٍ من الناس، وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمرٍ من الأمور.

وأما المعروف بأبي نصر التمّار، فإن أمير المؤمنين شبّه خساسة عقله بخساسة متجره.

وأما الفضل بن الفَرُّخان، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمٰن بن إسحاق وغيره تربّصاً بمن استودعه، وطمعاً في الاستكثار لما صار في يده، ولا سبيل عليه من تقادم عهده، وتطاول الأيام به، فقل لعبد الرحمٰن بن إسحاق: لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا وائتمانك إياه، وهو معتقد للشرك منسلخ من التوحيد.

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبي معمَر، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحلّ ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاً، وصاروا للنصارى مثلاً.

وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أن صاحبه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجه من المال الذي كان استحلّه من مال عليّ بن هشام، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه.

وأما سعدويه الواسطيّ، فقل له: قبّح الله رجلاً

بلغ به التصنّع للحديث والتزيّن به، والحرص على طلب الرئاسة فيه، أن يتمنّى وقت المحنة، فيقول بالتقرّب بها متى يمتحن، فيجلس للحديث.

وأما المعروف بسجّادة، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى وحكّه لإصلاح سجّادته وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه، ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه، إن كان شاهدَهما وجالسهما.

وأما القواريريّ، ففيما تكشّف من أحواله وقبوله الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه وسوء طريقته وسخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولّى لجعفر بن عيسى الحسني مسائله، فتقدّم إلى جعفر بن عيسى في رفضه، وترك الثقة به والاستنامة إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمريّ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب، فجوابه معروف.

وأما محمد بن الحسن بن عليّ بن عاصم، فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه، لم ينتحل النحلة

التي حُكيت عنه، وإنه بعد صبيّ يحتاج إلى تعلّم.

وقد كان أمير المؤمنين وجّه إليك المعروف بأبي مسهر بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن فجمجم عنها ولجلج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ ذميماً، فأنصصه عن إقراره، فإن كان مقيماً عليه فأشهر ذلك وأظهره، إن شاء الله.

ومن لم يرجع عن شركه ممن سمّيت لأمير المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بِشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي فاحملهم أجمعين موثّقين إلى عسكر أمير المؤمنين، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم، حتى يُؤدّيهم إلى عسكر أمير المؤمنين، ويُسلّمهم إلى من يُؤمَن بتسليمهم إليه، لينصّهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف، إن شاء الله، ولا قوّة إلّا بالله.

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُنداريه، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية، معجّلاً به تقرّباً إلى الله عزّ وجلّ بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد، وإدراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه،

فأنفذ لما أتاك من أمر المؤمنين، وعجّل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطةٍ بُنداريةٍ مفردةٍ عن سائر الخرائط، لتُعرّف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله.

وكتب سنة ثمان عشرة ومائتين.

فأجاب القوم كلهم حين أعاد القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق، إلا أربعة نفر منهم: أحمد بن حنبل وسجّادة والقواريريّ ومحمد بن نوح المضروب. فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشُدّوا في الحديد، فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يُساقون في الحديد، فأعاد عليهم المحنة، فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده، وخلى سبيله، وأصرّ الآخرون على قولهم، فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضاً، فأعاد عليهم القول، فأجاب القواريري إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده، وخلّى سبيله، وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما، ولم يرجعا، فشُدّا جميعاً في الحديد، ووُجّها إلى «طرسوس»، وكتب معهما كتاباً بإشخاصهما، وكتب كتاباً مفرداً بتأويل القوم فيما أجابوا إليه. فمكثوا أياماً، ثم دعا بهم فإذا كتاب قد ورد من المأمون على إسحاق بن إبراهيم، أن قد فهم

أمير المؤمنين ما أجاب القوم إليه، وذكر سليمان بن يعقوب صاحب الخبر أن بشر بن الوليد تأوّل الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1]، وقد أخطأ التأويل، إنما عنى الله عزّ وجلّ بهذه الآية من كان معتقد الإيمان، مظهر الشرك، فأما من كان معتقد الشرك مظهر الإيمان، فليس هذه له. فأشخصهم جميعاً إلى طرسوس ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم.

فأخذ إسحاق بن إبراهيم من القوم الكفلاء ليوافوا العسكر بطرسوس، فأشخص أبا حسان، وبشر بن الوليد، والفضل بن غانم، وعليّ بن أبي مقاتل، والذيّال بن الهيثم ويحيى بن عبد الرحمن العمريّ، وعليّ بن الجعد، وأبا العوام، وسجادة، والقواريري، ومحمد بن الحسن بن عليّ بن عاصم، وإسحاق بن أبي إسرائيل، والنضر بن شُميل، وأبا نصر التمّار، وسعدويه الواسطيّ، ومحمد بن حاتم بن ميمون، وأبا معمر، وابن الهرش، وابن الفَرُّخان، وأحمد بن شجاع، وأبا هارون بن البكاء. فلما صاروا إلى الرقة بلغتهم وفاة

(١) سورة النحل: الآية ١٠٦.

المأمون، فأمر بهم عنبسة بن إسحاق ـ وهو والي الرقة ـ أن يصيروا إلى الرقة، ثم أشخصهم إلى إسحاق بن إبراهيم بمدينة السلام مع الرسول المتوجّه بهم إلى أمير المؤمنين، فسلّمهم إليه، فأمرهم إسحاق بلزوم منازلهم، ثم رخّص لهم بعد ذلك في الخروج، فأما بشر بن الوليد، والذيّال، وأبو العوام، وعليّ بن أبي مقاتل فإنهم شخصوا من غير أن يُؤذن لهم حتى قدموا بغداد، فلقوا من إسحاق بن إبراهيم في ذلك أذىً، وقدم الآخرون مع رسول إسحاق بن إبراهيم، فخلّى سبيلهم[1].

---

(١) تاريخ الطبري. وإني لأشك في هذا الكلام وأعتقد أنه مدسوس، ويقصد به الطعن بالمجتمع الإسلامي وعلمائه خاصةً حيث أنهم قادة المجتمع، فيذكر القضاة والمحدثين، ويصفهم أنهم خلفاء أئمة المسلمين ومن حق الله عليهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، وأنهم مستودع العلم، والعاملون بالحق، وبعد قليل يعود فيصفهم بالسوء، والغش، وأكل الربا، وأخذ أموال الناس بالباطل، ويصل بهم إلى الكفر، وأنهم يبطنون غير ما يظهرون...
كما يصف الخليفة بأنه مُتتبّع عورات المسلمين مُتعقّب أغلاط العلماء وتصرّفاتهم، حتى كأن ذلك هو مهمته الأساسية. وقد دُسّ الطعن في هذا الموضع بخبثٍ ومكر إذ أنه لا يلفت انتباه القارئ بشكلٍ واضحٍ ما دام وقت محنةٍ وفتنةٍ، غير أنه يثبت في الذهن ويرسخ بالنفس على أن العلماء لم يكونوا على المستوى المطلوب، وهم في كل وقتٍ على هذه الحال.

وهكذا استطاع المتلوّنون أن يبثّوا هذه الفتنة في المجتمع الإسلامي وأن يجرّوا المأمون إليها فكانت محنةً شغلت المسؤولين مدةً من الزمن أصاب العلماء منها أذىً كثير، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، وآخرون مثله، كما تاهت أعداد منهم، وفُتن آخرون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وبقيت هذه البدعة التي لم يتعرّض لها أحد من المسلمين من قبل بل لم تخطر على بال مسلمٍ، مدة ليست بالقصيرة، فالقرآن كلام الله وكفى، ثم قيّض الله لها المتوكل فردّها سنة ٢٣٤هـ، ومنع القول بها، وقال: القرآن كلام الله أنزله على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

وهكذا شغلت هذه الفتنة المجتمع الإسلامي مدة ستة عشرة سنةً (٢١٨ ـ ٢٣٤هـ).



الفصل الرابع

شخصية المأمون

• ولد المأمون سنة سبعين ومائةٍ في ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول، وهي الليلة التي مات فيها عمّه موسى الهادي، واستخلف أبوه هارون الرشيد، وأمه أم ولد اسمها «مراجل» ماتت في نِفاسها به.

• قرأ العلم في صغره.

• أدّبه اليزيدي[1]، وجمع الفقهاء من الآفاق،

---

(١) اليزيدي: يحيى بن المبارك بن المغيرة العدويّ البصريّ النحويّ، عرف باليزيديّ لاتصاله بالأمير يزيد بن منصور خال المهدي يؤدّب ولده.
شيخ القراء، تلا عليه خلق، منهم: أبو عمر الدوري (حفص بن عمر بن عبد العزيز الدوري) الثقة، إمام القراءة في زمانه، توفي سنة ٢٤٦هـ.
أدّب اليزيدي المأمون، وكان ثقةً، حجّةً في القراءة. ألف كتاب «النوادر» وكتاب «المقصور والممدود» وكتاب «الشكل» وكتاب «نوادر اللغة» وكتاب «النحو». =

وبرع في الفقه، والعربية، وأيام الناس، ولما كبر عُني بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها، فجرّه ذلك إلى القول بخلق القرآن.

• كان أفضل رجال بني العباس حزماً، وعزماً، وحلماً، وعلماً، ورأياً، ودهاءً، وهيبةً، وشجاعةً، وسؤدداً، وسماحةً، وله محاسن وسيرة طويلة لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن، ولم يلِ الخلافة من بني العباس أعلم منه، وكان فصيحاً مفوّهاً.

• كان المأمون يقول: معاوية بِعَمْرِهِ[1]، وعبد الملك بحجّاجه[2]، وأنا بنفسي.

• يقال: لبني العباس فاتحة، وواسطة، وخاتمة، فالفاتحة السفاح، والواسطة المأمون، والخاتمة المعتضد[3].

= كان نظير الكسائي الذي كان يُؤدّب محمد الأمين.
ولد «اليزيديّ» سنة ١٢٨ وتوفي سنة ٢٠٢هـ، فعاش أربعاً وسبعين سنةً.

(١) عمرو بن العاص، رضي الله عنه.

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي، والي العراقين.

(٣) المعتضد: أحمد أبو العباس بن طلحة الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، الخليفة العباسي السادس عشر، وكانت خلافته عشر سنوات (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ).

• قيل: إنه ختم القرآن في بعض أشهر رمضان ثلاثاً وثلاثين ختمةً.

• قال أبو معشر المنجم: كان المأمون أمّاراً بالعدل، فقيه النفس، يُعدّ من كبار العلماء.

• عن الرشيد أنه قال: إني لأعرف في عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزّة الهادي، ولو أشاء أن أنسبه إلى الرابع ـ يعني نفسه ـ لنسبته، وقد قدّمت محمداً عليه، وإني لأعلم أنه منقاد إلى هواه مبذر لما حوته يده يُشاركه في رأيه الإماء والنساء، ولولا أم جعفر وميل بني هاشم لقدّمت عبد الله عليه.

• أراد الرشيد سفراً، فأمر الناس أن يتأهّبوا لذلك، وأعلمهم أنه خارج بعد الأسبوع، فمضى الأسبوع ولم يخرج، فاجتمعوا إلى المأمون، فسألوه أن يستعلم ذلك. ولم يكن الرشيد يعلم أن المأمون يقول الشعر، فكتب إليه المأمون:

يا خير من دبّت المطى به
ومن تقدى بسرجه فرس
هل غاية في المسير نعرفها
أم أمرنا في المسير ملتبس؟

ما علم هذا إلا إلى ملك

من نوره في الظلام نقتبس

إن سرت سار الرشاد متبعاً

وإن تقف فالرشاد محتبس

فقرأها الرشيد، فسُرّ بها، ووقّع فيها: يا بنيّ ما أنت والشعر، إنما الشعر أرفع حالات الدنى، وأقلّ حالات السرى.

• أخرج عن محمد بن عبد الله قال: لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء إلا عثمان بن عفان، والمأمون.

• أخرج عن الأصمعي قال: كان نقش خاتم المأمون «عبد الله بن عبد الله».

• أخرج عن ابن عيينة[1] قال: جمع المأمون العلماء، وجلس للناس، فجاءت امرأة، فقالت: يا أمير المؤمنين مات أخي وخلّف ستمائة دينارٍ، أعطوني ديناراً وقالوا: هذا نصيبك. قال: فحسب المأمون، ثم كسر

---

(١) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد: محدّث الحرم المكي، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ، وسكن مكة وتوفي بها سنة ١٩٨هـ.
كان حافظاً ثقةً، واسع العلم، كبير القدر، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. كان أعور.

الفريضة، ثم قال لها: هذا نصيبك، فقال له العلماء: كيف علمت يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الرجل خلف ابنتين؟ قالت: نعم، قال: فلهنّ الثلثان أربعمائة، وخلّف والدة فلها السدس مائة، وخلّف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون، وبالله ألك اثنا عشر أخاً؟ قالت: نعم، قال: أصابهم ديناران ديناران، وأصابك دينار.

• وأخرج عن محمد بن حفص الأنماطي قال: تغدّينا مع المأمون، فوُضع على مائدته ألوان كثيرة من الطعام. قال: فكلما وضع لون نظر المأمون إليه، فقال: هذا نافع لكذا، ضارّ لكذا، فمن كان منكم صاحب بلغم فليجتنب هذا، ومن منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلبت عليه السوداء فلا يعرض لهذا، ومن قصد قلّة الغذاء فليقتصر على هذا، فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين، إن خضّنا في الطب كنت «جالينوس» في معرفته، أو في النجوم كنت «هرمس» في حسابه، أو في الفقه كنت «علي بن أبي طالب، رضي الله عنه» في علمه، أو ذكر السخاء كنت «حاتم طيء» في صفته، أو صدق الحديث كنت «أبا ذر» في لهجته، أو الكرم فأنت «كعب بن مامه» في فعاله، أو الوفاء فأنت «السموأل بن عاديا» في وفائه. فسرّ بهذا الكلام، وقال: إن الإنسان إنما فضل بعقله، ذلك لم

يكن لحم أطيب من لِحم، ولا أدم أطيب من أدم.

• وأخرج عن عمارة بن عقيل قال: قال لي ابن أبي حفصة الشاعر: أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر؟ فقلت: من يكون أفرس منه؟ والله إنا لننشد أول البيت فيسبق إلى آخره، من غير أن يكون سمعه، قال: إني أنشدته بيتاً أجدت فيه، فلم أره تحرّك له وهو هذا:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً
بالدين والناس في الدنيا مشاغيل

فقلت له: ما زدت أن جعلته عجوزاً في محرابها في يدها سبحة، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولاً عنها؟ وهو المطوق لها، ألا قلت كما قال عمك ـ يعني جرير ـ في عبد العزيز بن الوليد:

فلا هو في الدنيا يضيع نصيبه
ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغله

• وأخرج عن إبراهيم بن سعيد الجوهريّ قال: وقف رجل بين يدي المأمون قد جنى جنايةً، فقال له: والله لأقتلنّك، فقال: يا أمير المؤمنين تأنّ عليّ، فإن الرفق نصف العفو، قال: وكيف وقد حلفت لأقتلنّك؟

فقال: لأن تلقى الله حانثاً خير من أن تلقاه قاتلاً، فخلّى سبيله.

• وأخرج الخطيب عن أبي الصلت عبد السلام بن صالح قال: بتّ عند المأمون ليلةً، فنام القيم الذي يُصلح السراج، فقام المأمون وأصلحه، وسمعته يقول: ربما أكون في المتوضأ فيشتمني الخدام ويفترون عليّ، ولا يدرون أني أسمع، فأعفو عنهم.

• وأخرج الخطيب عن يحيى بن أكثم قال: ما رأيت أكرم من المأمون، بتّ عنده ليلةً، فأخذه سعال، فرأيته يسدّ فاه بكم قميصه حتى لا أنتبه. وكان يقول: أول العدل أن يعدل الرجل في بطانته، ثم الذين يلونهم حتى يبلغ إلى الطبقة السفلى.

• وأخرج الصولي عن عبد الله بن البواب، قال: كان المأمون يحلم حتى يغيظنا، وجلس مرةً يستاك على دجلة من وراء ستر ـ ونحن قيام بين يديه ـ فمر ملّاح وهو يقول: أتظنون أن هذا المأمون ينبُل في عيني ـ وقد قتل أخاه ـ قال: فوالله ما زاد أن تبسّم وقال لنا: ما الحيلة عندكم حتى أنبُل في عين هذا الرجل الجليل؟.

• وأخرج عن عبد الله بن محمد الزهريّ قال: قال المأمون: غلبة الحجة أحبّ إليّ من غلبة القدرة، لأن غلبة

القدرة تزول بزوالها، وغلبة الحجة لا يزيلها شيء.

• وأخرج ابن عساكر عن العتبي قال: سمعت المأمون يقول: من لم يحمدك على حسن النيّة لم يشكرك على جميل الفعل.

• وأخرج عن أبي العالية قال: سمعت المأمون يقول: ما أقبح اللجاجة بالسلطان، وأقبح من ذلك الضجر من القضاة قبل التفهيم، وأقبح منه سخافة الفقهاء بالدين، وأقبح منه البخل بالأغنياء، والمزاح بالشيوخ، والكسل بالشباب، والجبن بالمقاتل.

• وأخرج عن علي بن عبد الرحيم المروزيّ قال: قال المأمون: أظلم الناس لنفسه من يتقرّب إلى من يُبعده، ويتواضع إلى من لا يُكرمه، ويقبل مدح من لا يعرفه.

• قيل: دخل رجل من الخوارج على المأمون، فقال له المأمون: ما حملك على خلافنا؟ قال: آية في كتاب الله، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: ألك علم بأنها منزلة؟ قال: نعم، قال: وما دليلك؟ قال: إجماع الأمة، قال: فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل فارض

بإجماعهم في التأويل، قال: صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين.

• وأخرج عن هُدْبة بن خالد قال: حضرت غداء المأمون، فلما رُفعت المائدة جعلت ألتقط ما في الأرض، فنظر إليّ المأمون، فقال: أما شبعت؟ قلت: بلى، ولكن حدّثني حمّاد بن سَلَمة عن ثابت البُناني عن أنس، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (مَن أكل ما تحت مائدةٍ أمن من الفقر) فأمر لي بألف دينار.

• وأخرج الصولي عن محمد بن القاسم قال: سمعت المأمون يقول: أنا والله ألذّ للعفو حتى أخاف أن لا أُوجر عليه، ولو علم الناس مقدار محبتي للعفو لتقرّبوا إليّ بالذنوب.

• وأخرج عن علية عن حماد بن إسحاق قال: لما قدم المأمون بغداد جلس للمظالم كل يوم أحدٍ إلى الظهر.

• وأخرج عن ابن أبي سعيد قال: هجا دعبل المأمون، فقال:

إني من القوم الذين سيوفهم
قتلتْ أخاك وشرّفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله

واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فلما سمعها المأمون لم يزد على أن قال: ما أقلّ حياء دعبل، متى كنت خاملاً وقد نشأت في حجر الخلفاء؟ ولم يعاقبه.

• وأخرج عن ابن دؤاد قال: سمعت المأمون يقول لرجلٍ: إنما هو غدر أو يُمْنٌ وهبتها لك، ولا تزال تُسيء وأُحسن، وتُذنب وأغفر حتى يكون العفو هو الذي يصلحك.

• وأخرج ابن عساكر عن يحيى بن أكثم قال: كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء، فجاء رجل عليه ثياب قد شمّرها، ونعله في يده، فوقف على طرف البساط وقال: السلام عليكم، فردّ عليه المأمون، فقال: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه، جلسته باجتماع الأمة أم بالمغالبة والقهر؟ قال: لا بهذا ولا بهذا، بل كان يتولّى أمر المسلمين من عقد لي ولأخي، فلما صار الأمر إليّ علمت أني محتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في المشرق والمغرب على الرضا بي، ورأيت أني متى خلّيت الأمر اضطرب حبل الإسلام، ومرج أمرهم، وتنازعوا، وبطل الجهاد

والحج، وانقطعت السبل، فقمت حياطةً للمسلمين إلى أن يُجْمِعوا على رجلٍ يرضون به فأُسلم إليه الأمر، فمتى اتفقوا على رجلٍ خرجت له من الأمر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وذهب.

• وأخرج عن محمد بن المنذر الكنديّ قال: حجّ الرشيد، فدخل الكوفة، فطلب المحدّثين، فلم يتخلّف إلا عبد الله بن إدريس، وعيسى بن يونس، فبعث إليهما الأمين والمأمون، فحدّثهما ابن إدريس بمائة حديثٍ، فقال المأمون: يا عمّ أتأذن لي أن أعيدها من حفظي؟ قال: افعل، فأعادها، فعجب من حفظه.

• سمع الحديث من أبيه، وهشيم، وعبّاد بن العوّام، ويوسف بن عطية، وأبي معاوية الضرير، وإسماعيل بن عليّة، وحجّاج الأعور.

• قال البيهقي: سمعت الإمام أبا عبد الله الحاكم قال: سمعت أبا أحمد الصيرفي، سمعت جعفر بن أبي عثمان الطيالسي يقول: صليت العصر في الرصافة خلف المأمون في المقصورة يوم عرفة، فلما سلّم كبّر الناس، فرأيت المأمون خلف الدرابزين وهو يقول: لا يا غوغاء لا يا غوغاء غداً سنّة أبي القاسم ﷺ، فلما كان يوم الأضحى حضرت إلى الصلاة، فصعد المنبر، فحمد الله

وأثنى عليه، ثم قال: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله وبحمده بكرةً وأصيلاً، حدّثنا هشيم بن بشير، حدّثنا ابن شبرمة عن الشعبي عن البراء بن عازب عن أبي بردة بن دينار، قال: قال رسول الله ﷺ: (من ذبح قبل أن يُصلّي فإنما هو لحم قدّمه، ومن ذبح بعد أن يُصلّي فقد أصاب السنة). الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، اللهم أصلحني واستصلحني وأصلح على يدي. قال الحاكم: هذا حديث لم نكتبه إلا عن أبي أحمد، وهو عندنا ثقة مأمون، ولم يزل في القلب منه شيء حتى ذاكرت به أبا الحسن الدارقطني فقال: هذه الرواية عندنا صحيحة عن جعفر، فقلت: هل من متابع فيه لشيخنا أبي أحمد؟ فقال: نعم، ثم قال: حدثني الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات، حدثني أبو الحسين محمد بن عبد الرحمن الروزباذي، حدثنا محمد بن عبد الملك التاريخي ـ قال الدارقطني: وما فيهم إلا ثقة مأمون ـ حدثنا جعفر الطيالسي، حدثنا يحيى بن معين قال: سمعت المأمون، فذكر الخطبة والحديث.

• قال الصولي: حدثنا جعفر الطيالسي، حدثنا يحيى بن معين، قال: خطبنا المأمون ببغداد يوم

الجمعة، ووافق يوم عرفة، فلم سلّم كبّر الناس، فأنكر التكبير، ثم وثب حتى أخذ بخشب المقصورة، وقال: يا غوغاء ما هذا التكبير في غير أيامه؟ حدّثنا هشيم عن مجالد، عن الشعبيّ، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، ما زال يُلبّي حتى رمى جمرة العقبة، والتكبير في غدٍ ظهراً عند انقضاء التلبية إن شاء الله تعالى.

• وقال الصولي: حدثنا أبو القاسم البغوي، حدثنا أحمد بن إبراهيم الموصلي، قال: كنا عند المأمون، فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: (الخلق عيال الله، فأحب عباد الله إلى الله عزّ وجلّ أنفعهم لعياله). فصاح المأمون، وقال: اسكت، أنا أعلم بالحديث منك، حدثنيه يوسف بن عطية الصفّار، عن ثابت، عن أنس أن النبيّ ﷺ قال: (الخلق كلهم عيال الله، فأحب عباد الله أنفعهم لعياله) أخرجه من هذا الطريق ابن عساكر، وأخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده وغيره من طرق عن يوسف بن عطية.

• قال الصولي: حدثنا المسيح بن حاتم العكلي، حدثنا عبد الجبار بن عبد الله، قال: سمعت المأمون يخطب، فذكر في خطبته الحياء فوصفه ومدحه، ثم

قال: حدثنا هشيم، عن منصور، عن أبي بكرة وعمران بن حصين، قالا: قال رسول الله ﷺ: (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء[1] من الجفاء، والجفاء في النار) أخرجه ابن عساكر عن طريق يحيى بن أكثم عن المأمون.

• وقال الحاكم: حدثنا الحسين بن تميم، حدثنا الحسين بن فهم، حدثنا يحيى بن أكثم القاضي، قال: قال لي المأمون يوماً: يا يحيى أريد أن أحدّث، فقلت: ومن أولى بهذا من أمير المؤمنين؟ فقال: ضعوا لي منبراً، فصعد وحدث، فأول حديثٍ حدثنا به: عن هشيم، عن أبي الجهم، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار) ثم حدّث بنحو من ثلاثين حديثاً، ثم نزل، فقال لي: يا يحيى، كيف رأيت مجلسنا؟ قلت: أجلّ مجلسٍ يا أمير المؤمنين، تفقّه الخاصة والعامة.

• وقال ابن عساكر: حدثنا محمد بن إبراهيم الغزّيّ، حدثنا أبو بكر محمد بن إسماعيل بن السري

---

(١) البذاء: الفحش في القول.

التفليسي، حدثنا أبو عبد الرحمن السلميّ، أخبرني عبيد الله بن محمد الزاهد العكبري، حدثنا عبد الله بن محمد بن مسيح، حدثنا محمد بن المغلس، حدثنا محمد بن السري القنطري، حدثنا عليّ بن عبد الله، قال: قال يحيى بن أكثم: بتّ ليلةً عند المأمون، فانتبهت في جوف الليل وأنا عطشان فتقلّبت، فقال: يا يحيى ما شأنك؟ قلت: عطشان، فوثب من مرقده فجاءني بكوزٍ من ماءٍ، فقلت: يا أمير المؤمنين ألا دعوت بخادمٍ ألا دعوت بغلامٍ؟ قال: لا، حدثني أبي عن أبيه عن جده عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: (سيّد القوم خادمهم).

• قال الخطيب: حدثنا الحسن بن عثمان الواعظ، حدثنا جعفر بن محمد بن الحاكم الواسطي، حدثنا أحمد بن الحسن الكسائي، حدثنا سليمان بن الفضل النهرواني، حدثني يحيى بن أكثم، فذكر نحوه، إلا أنه قال: حدثني الرشيد، حدثني المهدي، حدثني المنصور عن أبيه عن عكرمة، عن ابن عباس، حدثني جرير بن عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيد القوم خادمهم).

• قال ابن عساكر: حدثنا أبو الحسن علي بن أحمد، حدثنا القاضي أبو المظفر هناد بن إبراهيم النسفي،

حدثنا محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان الغنجار، حدثنا أبو أحمد علي بن محمد بن عبد الله المروزيّ، حدثنا أبو العباس عيسى بن محمد بن عيسى بن عبد الرحمن الكاتب، حدثني محمد بن قدامة بن إسماعيل صاحب النضر بن شميل، حدثنا أبو حذيفة البخاري، قال: سمعت المأمون أمير المؤمنين يحدّث عن أبيه عن جده عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (مولى القوم منهم). قال محمد بن قدامة: فبلغ المأمون أن أبا حذيفة حدّث بهذا عنه، فأمر له بعشرة آلاف درهم[1].

• وذكر عن سعيد بن زياد أنه لما دخل على المأمون بدمشق قال له: أرني الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لكم، قال: فأريته، قال: فقال: إني لأشتهي أن أدري أي شيء هذا الغشاء على هذا الخاتم؟ فقال له أبو إسحاق: حُلّ العقد حتى تدري ما هو؟ قال: فقال: ما أشكّ أن النبيّ ﷺ عقد هذا العقد، وما كنت لأحلّ عقداً عقده رسول الله ﷺ. ثم قال للواثق: خذه فضعه على عينك، لعل الله أن يشفيك. قال: وجعل المأمون يضعه على عينه ويبكي.

(١) تاريخ الخلفاء.

• وذكر عن العيشي صاحب إسحاق بن إبراهيم، أنه قال: كنت مع المأمون بدمشق، وكان قد قلّ المال عنده حتى ضاق، وشكا ذلك إلى أبي إسحاق المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين، كأنك بالمال قد وافاك بعد جمعةٍ. قال: وكان حُمل إليه ثلاثون ألف ألف من خراج ما يتولّاه له. قال: فلما ورد عليه ذلك المال، قال المأمون ليحيى بن أكثم: اخرج بنا ننظر إلى هذا المال، قال: فخرجا حتى أصحرا، ووقفا ينظرانه، وكان قد هُيّئ بأحسن هيئة، وحُلّيت أباعره، وأُلبست الأحلاس الموشاة والجِلال المصبّغة، وقُلّدت العِهَن، وجعلت البدر بالحرير الصيني الأحمر والأخضر والأصفر، وأُبديت رؤوسها، قال: فنظر المأمون إلى شيءٍ حسن، واستكثر ذلك، فعظُم في عينه، واستشرفه الناس ينظرون إليه، ويعجبون منه، فقال المأمون ليحيى: يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين إلى منازلهم، وننصرف بهذه الأموال قد ملكناها دونهم، إنا إذن للئام. ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له: وقّع لآل فلان ألف ألفٍ، ولآل فلان بمثلها، ولآل فلان بمثلها. قال: فوالله لم يزل حتى فرّق أربعةً وعشرين ألف ألف درهم، ورجله في الركاب، ثم قال: ادفع الباقي إلى المعلّى يعطي

جندنا. قال العيشي: فجئت حتى قمت نصب عينيه، فلم أردّ طرفي عنها، لا يلحظني إلا رآني بتلك الحال. فقال: يا أبا محمد، وقّع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف ألف، لا يختلس ناظري. قال: فلم يأتِ عليّ ليلتان حتى أخذت المال.

• وذكر السَّليطيّ أبو عليّ، عن عمارة بن عقيل، قال: أنشدت المأمون قصيدةً فيها مديح له، هي مائة بيتٍ، فأبتدئ بصدر البيت فيبادرني إلى قافيته كما قفّيته، فقلت: والله يا أمير المؤمنين، ما سمعها مني أحد قط، قال: هكذا ينبغي أن يكون، ثم أقبل عليّ، فقال لي: أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله بن العباس قصيدته التي يقول فيها:

تشطّ غداً دار جيراننا

فقال ابن العباس:

وللدار بعد غدٍ أبعد

حتى أنشده القصيدة، يُقفّيها ابن عباس. ثم قال: أنا ابن ذاك[1].

• كان في المأمون شهامة عظيمة وقوة جسيمة في

---

(١) تاريخ الطبري.

القتال، وحصار الأعداء، ومصابرة الروم وحصرهم، وقتل رجالهم وسبي نسائهم، وكان يقول: كان لعمر بن عبد العزيز وعبد الملك حجّاب وأنا بنفسي. وكان يتحرّى العدل ويتولّى بنفسه الحكم بين الناس والفصل. جاءته امرأة ضعيفة قد تظلّمت على ابنه العباس، وهو قائم على رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه، فادّعت عليه، بأنه أخذ ضيعةً لها واستحوذ عليها فتناظرا ساعةً فجعل صوتها يعلو على صوته، فزجرها بعض الحاضرين، فقال له المأمون: اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أسكته، ثم حكم لها بحقها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم.

• وقال يحيى بن أكثم: سمعت المأمون يوم عيدٍ خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على الرسول ﷺ ثم قال: عباد الله، عظم أمر الدارين، وارتفع جزاء العالمين، وطالت مدة الفريقين، فوالله إنه للجدّ لا اللعب، وإنه للحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والحساب والفصل والميزان والصراط، ثم العقاب أو الثواب، فمن نجا يومئذٍ فقد فاز، ومن هوى يومئذٍ فقد خاب، الخير كله في الجنة، والشر كله في النار.

• وكتب إلى بعض الأمراء: ليس من المروءة أن يكون بيتك من ذهبٍ وفضةٍ وغريمك عارٍ، وجارك طاوٍ، والفقير جائع.

• كان المأمون أبيض، ربعة، حسن الوجه، قد وخطه الشيب، يعلوه صفرة أعين، طويل اللحية رقيقها، ضيّق الجبين، على خده خال[1].



(١) البداية والنهاية.

أسرة المأمون

تزوج المأمون ابنة عمه موسى الهادي وتسمى أم موسى.

وتزوج بوران بنت الحسن بن سهل وذلك في شهر رمضان من سنة ٢١٠هـ. وأنفق الحسن بن سهل يوم زفاف ابنته الكثير.

للمأمون من الأبناء الذكور:

١ ـ محمد الكبير.

٢ ـ العباس.

٣ ـ عليّ.

٤ ـ محمد.

٥ ـ عبيد الله.

٦ ـ الحسن.

٧ ـ أحمد.

٨ ـ عيسى.

٩ - إسماعيل.

١٠ - الفضل.

١١ - موسى.

١٢ - إبراهيم.

١٣ - يعقوب.

١٤ - سليمان.

١٥ - هارون.

١٦ - جعفر.

١٧ - إسحاق.

وللمأمون تسع بناتٍ، منهن: أم حبيب التي زوّجها أبوها لعلي الرضيّ بن موسى بن جعفر، وأم الفضل التي زوجها لمحمد بن علي بن موسى بن جعفر. وأكثر أولاده من أمهات أولاد.



الفصل الخامس

ولاية العهد ووفاة المأمون

كان ولي عهد المأمون أخوه القاسم (المؤتمن) حسب وصية والده هارون الرشيد، ولكن هذه الولاية كانت مرتبطةً بالمأمون إن رغب أثبتها وإن أحبّ ألغاها هكذا كان عهد الرشيد.

ألغى المأمون ولاية عهد أخيه القاسم، وجعلها سنة ٢٠١هـ لعلي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وعهد له أن يكون الخليفة من بعده، وسمّاه الرضيّ من آل محمد ﷺ، وأمر جنده بطرح السواد، ولبس ثياب الخضرة، وكتب بذلك إلى الآفاق.

وفي سنة ٢٠٣هـ توفي علي بن موسى، ولم يبق ولي للعهد.

وفي سنة ٢١٨هـ، في مطلع شهر رجب أثناء مرض المأمون عهد لأخيه أبي إسحاق محمد

المعتصم بن هارون الرشيد بالخلافة من بعده، ونفذت كتبه إلى عماله في البلدان بذلك. فقد جاء فيها: من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد إلى العباس بن المأمون، وإلى إسحاق، وعبد الله بن طاهر، أنه إن حدث به حدث الموت في مرضه هذا، فالخليفة من بعده أبو إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد. فكتب بذلك محمد بن داود، وختم الكتب وأنفذها.

فكتب أبو إسحاق إلى عماله: من أبي إسحاق أخي أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين.

فورد كتاب من أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد إلى إسحاق بن يحيى بن معاذ عامله على جند دمشق يوم الأحد لثلاث عشرة ليلةً خلت من رجب سنة ٢١٨هـ، عنوانه، من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبي إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد: أما بعد، فإن أمير المؤمنين أمر بالكتاب إليك في التقدّم إلى عمالك في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكفّ الأذى عن أهل عملك، فتقدّم إلى عمالك في ذلك أشدّ التقدمة، واكتب إلى عمال الخراج بمثل ذلك.

وكتب إلى جميع عماله في أجناد الشام، جند حمص والأردن وفلسطين، بمثل ذلك، فلما كان يوم الجمعة لإحدى عشرة بقيت من رجب سنة ٢١٨هـ، صلى إسحاق بن يحيى بن معاذ في مسجد دمشق فقال في خطبته بعد دعائه لأمير المؤمنين: اللهم وأصلح الأمير أخا أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبا إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد.

وفاة المأمون:

دخل المأمون بلاد الروم مجاهداً يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة ٢١٨هـ، دخلها من «طرسوس» وبينما كان في «البدندون» على ساحل البحر، وعلى مسيرة يومٍ من «طرسوس» ومعه أخوه محمد المعتصم والقارئ سعيد العلّاف إذ يأتيهم سلّتان من الرُّطَب كأنه جُني ما فيهما قبل قليلٍ، فأكلوا ما شاء لهم أن يأكلوا، وشربوا من ماء تلك الجهات، فما قام أحد منهم إلا وهو محموم، فكانت منيّة المأمون من تلك العلّة، ولم يزل المعتصم عليلاً حتى دخل العراق، وكذا سعيد العلّاف.

ولما اشتدّت بالمأمون علّته بعث إلى ابنه العباس،

فأتاه وهو شديد المرض متغيّر العقل، قد نُفّذت الكتب بما نُفذت له في أمر محمد المعتصم بن الرشيد، فأقام العباس عند أبيه أياماً، وقد أوصى قبل ذلك إلى أخيه أبي إسحاق محمد المعتصم.

وقيل: لم يوص إلا والعباس حاضر والقضاة والفقهاء والقواد والكتاب، وكانت وصيته: هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين بحضرة من حضره، أشهدهم جميعاً على نفسه أن يشهد ومن حضره أنّ الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له في ملكه، ولا مُدبّر لأمره غيره، وأنه خالق وما سواه مخلوق، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل، ولا شيء مثله تبارك وتعالى، وأن الموت حق، والبعث حق، وثواب المحسن الجنة وعقاب المسيء النار، وأن محمداً ﷺ قد بلّغ عن ربه شرائع دينه، وأدّى نصيحته إلى أمته، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه أفضل صلاة صلّاها على أحدٍ من ملائكته المقرّبين وأنبيائه والمرسلين، وإني مُقرّ مُذنب، أرجو وأخاف، إلا أنني إذا ذكرت عفو الله رجوت، فإذا أنا متّ فوجّهوني وغمّضوني، وأسبغوا وضوئي وطهوري، وأجيدوا كفني، ثم أكثروا حمد الله على الإسلام ومعرفة حقه عليكم في محمد ﷺ، إذ

جعلنا من أمته المرحومة، ثم أضجعوني على سريري، ثم عجّلوا بي، فإذا أنتم وضعتموني للصلاة، فليتقدّم بها من هو أقربكم بي نسباً، وأكبركم سناً، فليكبّر خمساً، ويبدأ في الأولى في أولها بالحمد لله والثناء عليه والصلاة على سيدي وسيد المرسلين جميعاً، ثم الدعاء للمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، ثم الدعاء للذين سبقونا بالإيمان، ثم ليُكبّر الرابعة، فيحمد الله ويهلله، ويكبره ويسلم في الخامسة، ثم أقلّوني فأبلغوا بي حفرتي، ثم لينزل أقربكم إليَّ قرابةً، وأودّكم محبةً، وأكثر من حمد الله وذكره، ثم ضعوني على شقي الأيمن واستقبلوا بي القبلة، وحلّوا كفني عن رأسي ورجليّ، ثم سدّوا اللحد باللّبِن، واحثوا تراباً عليّ، واخرجوا عني وخلّوني وعملي، فكلكم لا يغني عني شيئاً، ولا يدفع عني مكروهاً، ثم قفوا بأجمعكم فقولوا خيراً إن علمتم، وأمسكوا عن ذكر شرٍّ إن كنتم عرفتم، فإني مأخوذ من بينكم بما تقولون وما تلفظون به، ولا تدعوا باكيةً عندي، فإن المعول عليه يُعذّب.
رحم الله امرأ اتّعظ وفكّر فيما حتّم الله على جميع خلقه من الفناء، وقضى عليهم من الموت الذي لا بُدّ منه، فالحمد لله الذي توحّد بالبقاء، وقضى على جميع خلقه

الفناء، ثم لينظر ما كنت فيه من عزّ الخلافة، هل أغنى ذلك عني شيئاً إذ جاء أمر الله! لا والله، ولكن أضعِف عليّ به الحساب، فيا ليت عبد الله بن هارون لم يكن بشراً، بل ليته لم يكن خلقاً. يا أبا إسحاق ادنُ مني، واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن، واعمل في الخلافة إذ طوّقكها الله عمل المريد لله، الخائف من عقابه وعذابه، ولا تغترّ بالله ومهلته، فكأنْ قد نزل بك الموت. ولا تغفل أمر الرعية، الرعية الرعية، العوام العوام، فإن المُلك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم. الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين، ولا ينهيَنَّ إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدّمته وآثرته على غيره من هواك، وخذ من أقويائهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم في شيءٍ، وأنصف بعضهم من بعضٍ بالحق بينهم، وقرّبهم وتأتّهم، وعجّل الرحلة عني، والقدوم إلى دار ملكك بالعراق، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت. والخرّمية فأغزِهم ذا حزمٍ وصرامةٍ وجلدٍ، وأكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة، فإن طالت مدتهم فتجرّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدّم النيّة فيه، راجياً

ثواب الله عليه، واعلم أن العظة إذا طالت أوجبت على السامع لها والموصي بها الحجة، فاتق الله في أمرك كله، ولا تُفْتَن.

ثم دعا أبا إسحاق بعد ساعةٍ حين اشتدّ به الوجع، وأحسّ بمجيء أمر الله، فقال له: يا أبا إسحاق عليك عهد الله وميثاق وذِمّة رسول الله ﷺ لتقومنّ بحق الله في عباده، ولتؤثرنّ طاعته على معصيته، إذ أنا نقلتها من غيرك إليك، قال: اللهم نعم، قال: فانظر من كنت تسمعني أقدّمه على لساني فأضعف له التقدمة، عبد الله بن طاهر أقرّه على عمله ولا تهجْه، فلقد عرفت الذي سلف منكما أيام حياتي وبحضرتي، استعطفه بقلبك، وخُصّه بِبِرّك، فقد عرفتَ بلاءه وغناءه عن أخيك، وإسحاق بن إبراهيم فأشركه في ذلك، فإنه أهل له. وأهل بيتك، فقد علمت أنه لا بقية فيهم وإن كان بعضهم يُظهر الصيانة لنفسه.

عبد الوهاب عليك به من بين أهلك، فقدّمه عليهم، وصيّر أمرهم إليه. وعبد الله بن أبي داود فلا يفارقك، وأشركه في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع لذلك منك، ولا تتخذ بعدي وزيراً تلقي إليه شيئاً، فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس

وخُبْث سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صحةٍ مني، فصرت إلى مفارقته، قالياً له، غير راضٍ بما صنع في أموال الله وصدقاته، لا جزاه الله عن الإسلام خيراً. وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم، واقبل من محسنهم، وصِلاتهم فلا تغفلها في كل سنةٍ عند محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوهٍ شتّى، اتقوا الله ربكم حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. اتقوا الله واعملوا له، اتقوا الله في أموركم كلها. أستودعكم الله ونفسي وأستغفر الله مما سلف، وأستغفر مما كان مني، إنه كان غفّاراً، فإنه ليعلم كيف ندمي على ذنوبي، فعليه توكلت من عظيمها، وإليه أُنيب ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، وصلى الله على محمدٍ نبي الهدى والرحمة.

وتوفّي المأمون يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من شهر رجب سنة ٢١٨هـ. فكان عمره ثمانيةً وأربعين عاماً، وكانت مدة خلافته عشرين سنةً وخمسة أشهرٍ وثلاثةً وعشرين يوماً (٢٥ محرم ١٩٨ ـ ١٨ رجب ٢١٨هـ).

ولما توفي حمله ابنه العباس وأخوه أبو إسحاق

محمد المعتصم إلى «طرسوس» فدفناه في دارٍ كانت لخادم للرشيد يُدعى «خاقان»، وصلّى عليه أخوه محمد المعتصم، ثم وكّلوا به حرساً من أبناء أهل طرسوس وغيرهم مائة رجلٍ، وأُجري على كل رجلٍ منهم تسعون درهماً.

ومات المأمون ولم يترك موضوع خلق القرآن، ولم يتب من ذلك، بل مات عليه، وانقطع عمله وهو على ذلك لم يرجع عنه.

وتولى الخلافة أخوه أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد.



المُحتوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الباب الأول	
محمد الأمين	
١٩٣ ـ ١٩٨هـ	
الفصل الأول: الأمين قبل الخلافة	١٥
وفاة هارون الرشيد	٢٤
الفصل الثاني: خلافة محمد الأمين	٢٦
الخلاف بين الأمين والمأمون	٢٧
الطرف الآخر	٣٩
كتاب من الأمين إلى المأمون	٤٤
كتاب من المأمون إلى الأمين	٤٦
رد الأمين	٤٨
رد المأمون	٤٩
جواب الأمين	٥١
جواب المأمون	٥٢
خطاب الأمين	٥٣
خطاب المأمون	٥٥
التباين والاختلاف	٦٣
بدء النزال	٦٥
القتال	٦٧
طرد عمال الأمين من منطقة الجبال وقزوين	٧٢
مقتل عبد الرحمٰن الأبناوي	٧٣

الموضوع	الصفحة

بعث الجيوش لقتال طاهر بن الحسين ٧٥
عبد الملك بن صالح ٨٣
خلع الأمين واعتقاله ٨٥
سيطرة طاهر بن الحسين على الأهواز ٨٩
استيلاء طاهر بن الحسين على المدائن ٩٤
بيعة أهل مكة والمدينة للمأمون ٩٤
توسعة الحرب بين الأخوين ٩٩
الحرب المعنوية ١٠٠
حصار بغداد ١٠١
استئمان خزيمة بن خازم ١٠٤
دخول طاهر بن الحسين بغداد ١٠٤
مقتل الأمين ١٠٥
الولايات ١١١
١ ـ الحجاز ١١١
٢ ـ الشام ١١٢
٣ ـ الجزيرة الفراتية ١١٤
٤ ـ الكوفة ١١٥
٥ ـ البصرة ١١٥
٦ ـ إفريقية ١١٦
٧ ـ المغرب الأقصى ١١٨
الأندلس ١٢٥
الخلاصة ١٢٨
الفصل الثالث: الجهاد في عهد محمد الأمين ١٣٢
الفصل الرابع: شخصية محمد الأمين ١٤١

الباب الثاني
عبد الله المامون
١٩٨ ـ ٢١٨هـ

الفصل الأول: المأمون قبل الخلافة ١٥١

المأمون في خلافة الأمين ١٥٥

الفصل الثاني: خلافة عبد الله المأمون ١٥٩

أول الإجراءات ١٦١

الحركات ١٦٢

١ ـ الحسن الهِرْش ١٦٥

٢ ـ محمد بن إبراهيم ١٦٥

٣ ـ إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق ١٨٠

٤ ـ عبد الرحمٰن بن أحمد ١٨٢

٥ ـ نصر بن شبث ١٨٣

٦ ـ مهدي بن علوان الحروريّ ١٩٠

٧ ـ بلال الضبابي ١٩٠

٨ ـ عبيد الله بن السريّ ١٩١

٩ ـ بابك الخرميّ ١٩١

١٠ ـ بشر بن داود ١٩٦

١١ ـ عبد السلام وابن جليس ١٩٧

الولايات ١٩٧

١ ـ العراق ١٩٨

٢ ـ خراسان ٢٠٧

٣ ـ الجزيرة الفراتية ٢١٠

٤ ـ مصر ٢٢٩

الإمارات: ٢٣٠
١ ـ الأغالبة ٢٣٠
٢ ـ الأدارسة ٢٣٦
٣ ـ إمارة الخوارج الأباضية ٢٣٦
٤ ـ إمارة الخوارج الصفرية ٢٣٧
الأندلس ٢٣٨
القتال مع الروم ٢٤١
الفصل الثالث: مكر الليل ٢٤٨
علي بن موسى الطالبي ولياً للعهد ٢٥٠
قدوم المأمون إلى العراق ٢٦١
وفاة علي الرضا ٢٦٤
الخلاف في بغداد ٢٦٥
خلع إبراهيم بن المهدي ٢٦٧
اختفاء إبراهيم بن المهدي ٢٦٩
قدوم المأمون بغداد ٢٧١
القبض على أعوان إبراهيم بن المهدي ٢٧٣
القبض على إبراهيم بن المهدي ٢٧٣
العفو عن إبراهيم بن المهدي ٢٧٤
محنة خلق القرآن ٢٧٨
الفصل الرابع: شخصية المأمون ٣٠٧
أسرة المأمون ٣٢٧
الفصل الخامس: ولاية العهد ووفاة المأمون ٣٢٩
وفاة المأمون ٣٣١
المحتوى ٣٣٩